سلسلة الإسلام والبحر المتوسط
الكتاب الأول

الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم



تأليف

دكتور ابراهيم أحمد العدوى
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم ونائب رئيس جامعة القاهرة (سابقا)
ومقرر لجنة الحضارة والعلوم بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

دار رياض الصالحين
الفيوم ٣٢١٨٨١

الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم

تأليف

دكتور ابراهيم أحمد العدوي

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير بقلم
الأستاذ الدكتور / محمد مصطفى زيادة

للتاريخ البيزنطى حقوق الجيرة والشفعة فى بناء تاريخ البلاد الإسلامية، بل حقوق الشريك القديم كذلك، لأن دولة المسلمين امتدت أول ما امتدت إلى بلاد البيزنطيين فى غرب آسيا وشمال أفريقيا، وهذه بلاد تكوينها الحضارى اشبه شىء بمجموعة من حضارات متراكمة بعضها فوق بعض طبقات، وآخرها وأوضحها أمام المسلمين وقتذاك حضارة البيزنطيين.

وللبيزنطيين كذلك آثار واضحة فى الحياة العامة ببلاد العرب نفسها قبل الإسلام، ومصداق ذلك وجود المسيحية البيزنطية (أرثوذكسية ونسطورية) فى جوف نجران ومخاليف اليمن وأطراف العراق الأعلى، ثم نشاط التجارة البيزنطية فى بعض أمهات المدن العربية وموانى البحر الأحمر. وهذا وذاك مما يشرحه هذا الكتاب فى شىء من التفصيل الذى يجعل الاهتمام بالتاريخ البيزنطى (والتاريخ الايرانى كذلك) بديهة خالصة مطلقة عند أجيال القومة على التاريخ الإسلامى.

وسوف يرى قارىء هذا الكتاب أن دراسة التاريخ الإسلامى وتدريسه لا يصلحان ولايصلح صاحبهما إلا إذا تأهل أولا بنصيب - ولو قليل - من التاريخ البيزنطى (والتاريخ الايرانى كذلك مرة أخرى من باب التأكيد). وهذا هو قول المعنيين بالدراسات التاريخية الإسلامية فى مصر وغيرها من البلدان. ولست أقصد بذلك أن يصبح الأخصائى فى التاريخ الإسلامى أخصائياً كذلك فى التاريخ البيزنطى والإيرانى معاً، بل يعرف من التاريخ البيزنطى - مثلا - ما يجعله على خبرة باستعمال لفظ «الروم وصاحب الروم» للدلالة على الدولة البيزنطية وأباطرتها وعلاقاتهم المختلفة بالدولة الإسلامية وخلفائها وسلاطينها

فى مختلف العصور. وفى هذا الكتاب ما يدل على هذه العلاقات وأنواعها، وعلى مقدار ما أفاد المسلمون من الحوادث والنظم البيزنطية فى الحرب والسياسة والبلاط والحاشية والادارة. ثم إذا أنا تكلمت بلغة الآثار فلا استطيع إلا أن أضيف إلى اقتناعى الراسخ بوجوب الاهتمام بالتاريخ البيزنطى من جميع نواحيه فى دوائر التاريخ الإسلامى. ولمن حاجة الدليل على ذلك أن ينظر إلى باب النصر وباب الفتوح بسور القاهرة القديمة، وإلى مدخل الجامع الأموى وسوق حميدية بدمشق، ثم ينظر إلى بعض أجزاء من سور القسطنطينية البيزنطية وسوق استنابول الممتد وراء جامع بايزيد، ليرى بنفسه مدى ما استمد المسلمون من البيزنطيين - وغيرهم - فى الطرز المعمارية، وهى من أهم الدلالات على أحوال المجتمع فى أية دولة من الدول عبر التاريخ كله.

غير أنى أقول فى وضوح وحماسة علمية أن هذا الكتاب - على فائدته الواضحة - باكورة طيبة أرجو أن يتلوها محصول كبير، لأن مراحل التاريخ الإسلامى فى غرب آسيا وشمال أفريقيا على كثرتها لاتكاد تخلو طويلا من علاقات متنوعة وصلات بالتاريخ البيزنطى ودخائله. ثم إنى أود أن يكون ذلك المحصول الكبير مليئاً بعضه - على الأقل - بدراسات بيزنطية اصلية بحتة. وأتمنى أن يكون صاحب هذا الكتاب صاحبها، وأن يكون معظم المحصول المنتظر من ثماره الناضجة. فإنه خليق بإنتاج علمى وافر من هذا المستوى على مر السنين، لتوضيح مداخل التاريخ الإسلامى وجوانبه فى العصور الوسطى.

محمد مصطفى زيادة

المقدمة

البحر المتوسط هو بحر الإسلام ومنارته التى تهدى العالم أجمع - بحكم موقعها الجغرافى الفريد - إلى شواطىء الأمن والطمأنينة والسلام. ويتناول على بلاد الجزء الأول من سلسلة «الإسلام والبحر المتوسط» شروق شمس الإسلام البحر المتوسط حين امتدت إلى شواطئه بالشام ومصر والفتوحات الإسلامية زمن الخليفة أبى بكر الصديق والخليفة عمر بن الخطاب. وبهذا الشروق الساطع لشمس الإسلام فى مطالع القرن الأول الهجرى، السابع الميلادى على البحر المتوسط قطعت عجلة الشرق دورة كاملة فى مجرى تاريخها الطويل، إذ استرد الشرق غابر مجده، واستعاد سالف هيبته وسلطانه. فمنذ فتوحات الإسكندر المقدونى ارتبط الشرق بركاب الغرب، ثم جاءت الإمبراطورية الرومانية الكبرى فشدت وثاق هذا الارتباط، وأخذت تجنى من بلاد الشرق مالذ لها وطاب. على أن مطالع القرن الرابع الميلادى آذنت بتحول عجلة القيادة صوب الشرق حين أحس أباطرة الدولة الرومانية الكبرى ضرورة نقل عاصمتهم إلى الطرف الشرقى ببلاد البحر المتوسط من أمبراطوريتهم. فقد اضطرب جوف الشرق بحركات غدت منبع خطر ملح على كيان الدولة، ورأى الأباطرة ضرورة إقامتهم قرب هذ المنبع لدفع غوائله عن صرح أمبراطوريتهم العتيدة، وعمودها الفقرى وهو البحر المتوسط، الذى اطقلوا على اسم «بحرنا "Mare Nostruume".

وتمت الخطوة النهائية فى تلك السبيل حين انتقل الإمبراطور قسطنطين الكبير إلى مدينة بيزنطة على البسفور واتخذها مقراً له. على أن أحداث القرنين الرابع والخامس للميلادى لم تلبث أن أودت بكيان القسم الغربى

من الإمبراطورية الرومانية، وجاء استمرار هذا القسم الشرقى من الإمبراطورية الرومانية حملا جثم على الشرق ورقيباً وقف لحركاته بالمرصاد. فدأبت هذه الإمبراطورية على التطلع إلى جيرانها فى الشرق بعين ملؤها الحذر مما حملها على أن تختط لنفسها سياسة شرقية باعدت بينها وبين أهداف أمها الإمبراطورية الرومانية الكبرى، وجلعتها قمينة أن تدعى الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو الإمبراطورية البيزنطية. وهى التى عرفها العرب قبل الإسلام وبعده باسم «دولة الروم» والتى انتسب إليها أيضاً البحر المتوسط باسم «بحر الروم» حتى ظهور الإسلام.

واستخدام المصطلح العربى أكثر سلامة من حيث المنظور التاريخى، حيث كان اباطرة دولة الروم أنفسهم يستخدمونه للتعريف بأنفسهم، هذا فضلا عن أن فريقاً من الكتاب المحدثين لايميل إلى استخدام اسم الامبراطورية البيزنطية ويفضل عليها اسم الإمبراطورية الرومانية الشرقية.

ويعالج الفصل الأول سياسة دولة الروم فى بلاد العرب «مهد الإسلام» وكيف هيأت الأحداق العالمية إذ ذاك الجو لانتشار الدعوة الإسلامية فى هذه البلاد. ثم تناول فى الفصل الثانى ما افاده الاسلام من التيارات المختلفة التى امتلأت بها دولة الروم حتى انتزعت منها بوجه خاص الشام ومصر، هاتين الدولتين الشرقيتين، موطن الحضارات القديمة. ثم عرضت الدراسة إلى انتقال دول الشرق الإسلامى من دور التكوين إلى دور الكفاح للذود عن حياضها وإعلاء شأنها. ذلك أن المسلمين أخذوا ينافسون الروم فى السيطرة على حوض البحر المتوسط الشرقى، الذى غدا إذ ذاك قلب العالم النابض ومنبع القوة لكل من تطلع إلى السيادة والسلطان، ثم إن هذا الكفاح الذى بلغ ذروته فى محاولات المسلمين الاستيلاء على القسطنطينية وانتهائه ببقاء هذه العاصمة

بعيدة عن متناول قواتهم علمهم كيف يؤقلمون سياستهم، وذلك على أساس أن دولتهم أضحت تكون مع أمبراطورية الروم محوراً تدور عليه أحداث العالم إذ ذلك. وهو الأمر الذى تركز فى سلامة البحر المتوسط وبلاده.

ويشرح الفصل الثالث كيف حافظ كل من الفريقين على بقاء الميزان السياسى بينهما متعادلا، وأن مايطرأ على علاقتيهما السياسية من أخذ ورد إنما هو من علامات الحياة وما يصاحبها من سنن. ثم تتناول الدراسة فى الفصلين الرابع والخامس مظاهر تعاون الدولتين على مافيه نفعهما، من تبادل تجارى وثقافى، مع تزود كل فريق من معين الآخر بما يقتضيه ذلك من القيام بزيارات وتبادل احترام المعتقدات، وهو ما يعالجه فى تفصيل ووضوح الفصل السادس والأخير من الكتاب.

وفى هذا العرض السالف ابتعدت الدراسة عن الأغراق فى التفاصيل حيث تجعل فترة ظهور السلاحقة والنورمان فى القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى، نقطه انتهاء السرد التاريخ للعلاقات بين المسلمين والروم فى هذا الجزء الأول من سلسلة الإسلام والبحر المتوسط. ذلك أن الدور الذى قامت به هاتان القوتان يعتبر نقطة تحول فى تاريخ العصور الوسطى العام، وكذلك فى كيان البحر البحر المتوسط، الذى صار إذ ذاك بحيرة إسلامية وجزء لايتجزأ من دار الإسلام وأمتها.

ويقضى واجب العرفان بالفضل العلمى والروحى اسناد المنهج الأساسى للدراسة فى هذا الجزء الأول عن «الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم» إلى استاذى المرحوم الدكتور محمد مصطفى زيادة - رائد الدراسات الإسلامية / البيزنطية فى العالمين العربى والإسلامى. فكان لتوجيهات سيادته - على نحو

ماتفضل به فى تصدير تلك الدراسة وهى فى بداياتها المبكرة - الأثر الطيب فى الاعداد النهائى لهذا الجزء الأول الذى يصدر فى سلسلة الإسلام والبحر المتوسط.

وهنا يطيب لى أن أتقدم بالشكر الوافر لابنى وصديقى وزميلى الاستاذ الدكتور/ حسن على حسن رئيس قسم التاريخ بكلية دار العلوم جامعة القاهرة، حيث لسيادته فضل اختيار وانتقاء «الإسلام والبحر والمتوسط» ليكون عنواناً لسلسلة الدراسات التى تبدأ بهذا الجزء الأول عن «الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم» كما أشكر أبنى وتلميذى الدكتور/ صبحى عبدالمنعم محمد المدرس بفرع جامعة القاهرة بالفيوم، الذى تفضل بالاشراف على نشر هذه السلسلة فى دار رياض الصالحين.

ومن حسن الطالع أن يصدر الأول من هذه السلسلة عن «الإسلام والبحر المتوسط» فى هذه المرحلة المعاصرة من الصحوة الإسلامية. داعياً الله سبحانه وتعالى أن ينير الطريق لما فيه مجد الإسلام وأهله.

إبراهيم أحمد العدوى

«إن أعظم قوتى العالم أجمع، قوة العرب وقوة الروم تعلوان وتألقان كالشمس والقمر فى السماء، ولهذا وحده يجب أن نعيش إخوة، على الرغم من اختلافنا فى الطبائع والعادات والدين»

((من رسالة نيقولا ميستيكوس بطريق القسطنطينية حول منتصف القرن العاشر الميلادى إلى حاكم جزيرة كريت أيام تبعيتها للمسلمين))

الفصل الأول

العـــرب والــروم قبـل الإســلام

بلاد العرب السعيدة

الظاهرة الكبرى فى تاريخ العرب قبل الإسلام هو سيطرة النظم القبلية على حياة السكان بها سيطرة تامة، شملت سائر النواحى السياسية والحضارية، وكذلك العلاقات الخارجية لأولئك السكان مع القوى الكبرى المجاورة لأطراف بلادهم. فقد كفلت تلك النظم للعرب نوعاً فريداً من السلطان توارثوا فيما بينهم مجده ومظاهره الحضارية، بحيث لايفقده جماعة منهم حتى تتلقفه جماعة أخرى أكثر فتوة وقوة. وتجلت تلك الظاهرة فى العلاقات التى قامت بين العرب وجارتهم الكبرى إمبراطورية الروم حتى مشرق الدعوة الإسلامية السامية فى أرض الحجاز. ويقتضى فهم التطورات التى مرت بها تلك العلاقات الرجوع إلى شىء من أصول تاريخ العرب قبل الإسلام، وتتبع مجرى الأحداث الذى انتهى بتنصيب أهل الحجاز فى مركز الصدارة على سائر سكان العرب فى العصر الجاهلى، السابق مباشرة للبعثة النبوية.

وتستند أولى تلك الأصول إلى التجاوب القوى اذى ظهر بين بيئة بلاد العرب وسكانها، وأثر هذا التجاوب فى مصائر القوى السياسية التى قامت فى تلك البلاد قبل ظهور الإسلام. ذلك أن سكان بلاد العرب عرفوا كيف يفيدون أنفسهم من البيئات التى حاطت بهم، وسخروا لخدمتهم ما بها من أسباب الحياة الحقيقة، التى جعلت منهم قسمين تبعاً لثنائية المظهر الجغرافى الذى ساد بلادهم. إذ تنتظم شبه الجزيرة العربية أراض خصبة فى الجنوب والجنوب الغربى، وصحراوات شاسعه فى الوسط والشمال.

واستوطن الشطر الأول قبائل عرفت بعرب الجنوب، اتسمت حياتها بالاستقرار والأخذ بمظاهر الحضر، على حين نزل فى الشطر الثانى قبائل أطلق عليها عرب الشمال(١)، كانت حياتها عبارة عن التنقل فى الصحارى تلمساً لأسباب العيش فيها بالقرب من المراعى وعيون المياه. وهيأت سبل الاستقرار لقبائل الجنوب سبق اخواتها من عرب الشمال فى ميدان السياسة والحضارة(٢). ذلك أن خصوبة الأرض، وتوافر المياه بها من سقوط الأمطار

---

(١) المظهر العام لجغرافية بلاد العرب هو انقسامها إلى أرض خصبة وأخرى صحراوية ولكن من يدرس عن كتب تلك الخواص الجغرافية يرى أن الجهات الخصبة تركزت بصفة خاصة على الأطراف الساحلية، لأن البحر يحيط ببلاد العرب من ثلاث جهات، ساعدت على حصول الأطراف على بعض الأمطار. وأهم تلك الجهات هى:

أ- اليمن فى الجنوب الغربى، ب - حضرموت فى الجنوب، وهى موطن البخور ذات القيمة الغالية فى العصور القديمة، ج - أرض الحسا الساحلية فى الشرق.

أما الصحراوات فهى الغالبية العظمى من رقعة بلاد العرب والتى صارت لكنزتها تحظر على الذهن عادة عند ذكر تلك البلاد، ولكن تلك الصحارى ليست كلها قفارا موحشة، وإنما تشمل عدة أنواع منها ما يلى:

أ) النفوذ: وهى صحراء ذات رمال بيضاء أو حمراء، وتغطى معظم شمال بلاد العرب ويطلق عليها أحياناً اسم البادية. وعلى الرغم من جفاف تلك الصحارى إلا أنها تنال قدراً من الامطار يساعد على تغطية بعض جهاتها ببساط من الخضرة.

ب - الدهناء: وهى مساحة من الرمل الأحمر تمتد من نجد فى الشمال إلى حضرموت فى الجنوب ومن اليمن فى الغرب إلى عمان فى الشرق، وأشد جهاتها قسوة تعرف باسم "الربع الخالى".

ج - الحرة: وهى مناطق من الحمم البركانية تكثر فى المناطق الغربية والوسطى من بلاد العرب وتمتد إلى الشمال حتى حوران، وفى داخل هذه الحلقة من الصحارى يبرز قلب مرتفع هو بلاد العرب الوسطى أو نجد، بسهولها التى تربى هذه الحلقة من الصحارى يبرز قلب مرتفع هو بلاد العرب الوسطى أو نجد، بسهولها التى تربى أحسن الخيول العربية.

(٢) تردد صدى تقسيم لسكان بلاد العرب إلى أهل جنوب وشمال فى أنساب العرب أنفسهم، فيرى العرب أنهم ينقسمون قسمين، عرب بائدة، وتضم ثمودا وعادا اللذين اشتهر فى القرآن، وطسما، ثم عرب باقية.

ويعود علماء الانساب فيقسمون العرب الباقية قسمين رئيسيين، هما العرب العاربة والعرب المستعربه، والعاربه فى نظرهم هم أهل اليمن الذين يرجع نسبهم إلى قحطان، أما العرب المستعربة فهم

الموسمية جعل الزراعة سهلة ميسورة، ومعيشة السكان بها رغدة هنية. وفصلا عن ذلك فإن الطبيعة سخت فى إغداقها على تلك الجهات الخضراء ومنحت أرض اليمن منها، التى عرفت باسم بلاد العرب السعيدة (Arabia Felilx) موقعاً جغرافيا ممتازاً، هيأ لها سبل الاتصال بالقوى السياسية الكبرى فى العالم القديم. فقامت بلاد اليمن على الطريق التجارى العالمى الذى ربط مصادر الانتاج فى الشرق الأقصى من الحرير والتوابل والعطور بالأسواق الكبرى المطلة على شرق البحر المتوسط، والظامئة إلى تلك المتاجر.

وأدى الثراء الذى تجمع لأهل اليمن، أو عرب الجنوب، من نتاج أراضيهم الخصبة، وما جلبته لهم المتاجر من مكرس إلى قيام ممالك زاهرة فى بلادهم. إذ تجمعت القبائل هناك حول واحدة منها كانت فى الغالب أقواها، بشكل ترتب عليه ظهور أول نظام لتكوين الممالك. على أن تلك الظاهرة لم ترتب عليها ضياع الشعور القبلى، برغم تمتع الملك فى هذا النظام بالمقام الأول. فقد ظلت النظم القبلية تعمل عملها فى قيام ممالك عرب الجنوب وانحلالها، بحيث تتخلى القبيلة المتداعية من مكانها فى الحكم إلى قبيلة أخرى أكثر فتوة وشبابا. وأول ممالك عرب الجنوب استها قبائل معين سنة ١٥٠٠ق.م. ولا يعرف عن تلك المملكة المعينية أكثر من النقوش التى تركتها فى شمال بلاد اليمن حول بلدة معين. ولكن لا تلبث المعلومات أن تزداد عن عرب الجنوب وحضارتهم فى عهد المملكة التى أسستها قبائل سبأ على أنقاض مملكة معين فى القرن الثامن قبل الميلاد. فقد اتخذت تلك المملكة الثانية عاصمة فى مأرب. التى اشتهرت بكثرة مبانيها من القصور والمرافق العامه، التى أهمها السد العظيم، الذى نسب إليها وعرف باسم (سد مأرب). ثم أن تلك المملكة لم تهتم بأحوال الزراعة فحسب، وإنما بالتجارة أيضاً مع البحر الأبيض المتوسط، عن طريق سلسلة من المحطات التجارية، التى اشتملت إلى جانب مخازن المتاجر مستودعات للأسلحة كذلك(١).

وكانت سيطرة عرب الجنوب على المتاجر الشرقية سببا فى خلق

(١) هل، الحضارة العربية، ص٥.

علاقات دولية بين بلادهم والقوى السياسية الكبرى المحيطة بهم آنذ ذاك، ثم تحولت تلك العلاقات آخر الأمر إلى تنافس خطير من أجل انتزاع السيادة التجارية من عرب الجنوب انفسهم، وانفجرت أولى مظاهر الحقد التجارى على عرب الجنوب فى عهد المملكة التى اسستها قبائل حمير على انقاض مملكة سبأ سنة ١١٥ق.م. ذلك أن روما بعد أن بسطت سلطانها على سائر البلاد المطلة على البحر المتوسط، والتى كان آخرها مصر التى سقطت سنة ٣١ ق.م. تطلعت إلى القضاء على سلطان عرب الجنوب التجارى، وإدخال بلاد اليمن فى التبعيه لها، فبعث الامبراطور أوكتافيوس سنة ٢٤ ق.م حملة على رأسها والى مصر جايوس لغزو بلاد اليمن. غير أن تلك الحملة باءت بالفشل بسبب جهل القائد الرومانى بجغرافية بلاد العرب(١)

ولكن الامبراطورية الرومانية تعرضت عن هذا الفشل الحربى باستغلالها لكشف بحرى هام ذاعت اخباره قبيل استيلاء الرومان على مصر بعهد قصير ذلك أن أحد بحارة الاسكندرية ويدعى (هيبالوس) استطاع أن يكتشف أهمية الرياح الموسمية فى السفر والانتقال بين البحر الأحمر والمحيط الهندى. فقد استخدم الرياح التجارية الشمالية فى الإبحار من موانى مصر على البحر الأحمر والوصول إلى عدن. وما كاد يخرج بسفينته من بوغاز باب المندب حتى دفعته الرياح الموسمية الصيفية التى تصادف هبوبها إذ ذاك إلى الهند وسيلان. وبعد أن حمل سفينته من متاجر الشرق الأقصى فى سيلان حتى حان ميعاد الرياح الموسمية الشتوية التى حملته عائداً إلى عدن. وهناك تصطدم تلك الرياح بمرتفعات البحر الأحمر وتنحرف شمالا بحيث دفعت سفينة هيبالوس إلى الوصول إلى مصر مرة ثانية(٢)

---

(١) ابحر والى مصر الرومانى جايوس على رأس حملة لإخضاع الحميريين من ميناء ارسينوى (Arsinoe) ـ وهى القلزم العربية، أو السويس الحالية ـ، وفصل النزول فى ميناء (Leuco - Come) وهى الحوراء فى الحجاز، وذلك بدلا من الاتجاه مباشرة الى اليمن. وبذلك وقع القائد الرومانى في خطأ فاحش نتيجة جهله بجغرافية تلك المنطقة من بلاد العرب. إذ سار فى طريق وعر استنفد كل قوته قبل أن يصل إلى أسوار مأرب، مما اضطره إلى العودة منهزماً.

(2) Mommsen, The Provinces of the Roman Empire II, 209,300.

ومنذ نجاح هيبالوس فى كشف الرياح الموسمية حتى اشتد التنافس التجارى بين الرومان وعرب الجنوب، فصارت السفن الرومانية تعمل على الوصول مباشرة إلى مصادر الانتاج بالشرق الأقصى دون الاعتماد على عرب الجنوب والتلخص بالتالى من المكوس. غير أن تلك المحاولات الرومانية لم تكلل بالنجاح بسبب يقظة حمير، وظلت السيادة التجارية بأيدى عرب الجنوب.

ولم يلبث سلطان الإمبراطورية الرومانية أن أخذ يتأرجح منذ مطالع القرن الرابع الميلادى، إذ كانت الإمبراطورية على أبواب عصر جديد يؤذن بانتقال نقطة ارتكازها من روما إلى شرق الإمبراطورية لمواجهة الأخطار التى أخذت تتجمع على الحدود الشرقية من ناحية آسيا. ثم تمخضت أحداث القرنين الرابع والخامس الميلادى عن تأسيس روما جديدة وهى القسطنطينية كما سميت فيما بعد، فى موضع مدينة بيزنطة القديم على البسفور. وصارت الإمبراطورية الرومانية بذلك قسمين، هما الدولة الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية والدولة الرومانية الغربية وعاصمتها ميلان بعد أن ذهبت عن روما هيبتها القديمة. ثم لم يلبث القسم الغربى من الإمبراطورية أن وقع فى قبضة القبائل الجرمانية التى أسست لنفسها ممالك فى غرب أوربا معلنة بذلك زوال السلطان الرومانى من تلك الجهات(١)

غير أن الدولة الرومانية الشرقية وعاصمتها القسطنطينية ظلت قائمة، وتسيطر على سائر الممتلكات القديمة للدولة الرومانية الكبرى عدا غرب أوربا التى سيطر عليها الجرمان(٢). وقد عرفت تلك الدولة الرومانية الشرقية باسم الإمبراطورية البيزنطية نسبة إلى الإسم القديم لعاصمتها بيزنطة. غير أن

---

(1) Runciman, Byzamtine Civilization, 164.
Vasiliev, Histoire De L'Empire Byyantin I,213.

(٢) تعتبر سنة ٤٧٦م. العام الذى زالت فيه الامبراطورية الرومانية فى الغرب زوالا مادياً. ففى هذه السنة ثار قائد القبائل الجرمانية فى إيطاليا على الإمبراطور رمولوس (Romulus) ووالده أورستيز (Orestes) صاحب السلطة الفعلية. واستطاع أدو آكر زعيم الجرمان قتل اورستيز ونفى ابنه، وارسل إلى امبراطور الدولة الرومانية فى الشرق بخبره بما حدث فى إيطاليا، وأنها لم تعد بحاجه إلى أمبراطور، وأنه يرغب فى أن ينعم عليه بلقب النائب الإمبراطورى فى إيطاليا. وغدا الجرمان سادة إيطاليا وغالة (فرنسا)وأسبانياوبريطانيا،واضحت دولهم الناشئة مطالع العصور الوسطى بأوربا.

العرب أطلقوا على تلك الدولة الجديدة قبل الإسلام وبعده اسم «دولة الـــروم» ونعتوا أهلها بكلمة «الروم» كذلك(١). ولكن هذا التطور الجديد الذى أدى إلى قيام «دولة الروم» لم يحمل فى طياته تغييراً فى الموقف التجارى والتنافس مع عرب الجنوب. ذلك أن تلك الدولة الجديدة رأتت أن وضعها الشرقى يحتم عليها تحقيق حلم أمها الرومانية الكبرى. وهو الاستيلاء على اليمن لتدعيم سيادتها التجارية.

واضطرت دولة الروم إلى التعجيل بتنفيذ مآربها فى بلاد اليمن فى عهد الإمبراطور جستين الأول (٥١٨-٥٢٧م)، بسبب سيطرة فارس على الطرق التجارية البرية الآتية من الشرق الأقصى عبر أواسط آسيا والتى نصب فى الشام وآسيا الصغرى من ممتلكات الروم. واستهدفت الأسرة الساسانية الحاكمة فى فارس إذ ذاك إزهاق الروم وقتل اقتصادياتهم باحتكارها تلك الطرق(٢). ومن ثم لم يكن أمام الروم من سبيل للتخلص من مضايقات الفرس إلا بتدعيم سيادتهم التجارية على الطريق الذى تتحكم فيه بلاد اليمن لبعده عن فارس. وذلك بإزالة سلطان عرب الجنوب السياسى.

وساعدت الأحداث التى جرت فى بلاد اليمن فى القرن السادس الميلادى على تحقيق أهداف الروم العدوانية. ذلك أن صراعاً نشب بين اليهودية والمسيحية فى بلاد اليمن أتاح للروم التدخل فى شئون أهلها من عرب الجنوب والتعجيل بإطاحة مجدهم التجارى. وكانت المسيحية قد دخلت بلاد اليمن فى العصر الحميرى فيما بين سنة ٣٠٠و ٥٢٥م، إذ وصلت أول سفارة مسيحية بلاد العرب سنة ٣٥٦م، أرسلها الإمبراطور قنسطنطيوس بزعامة رجل يدعى ثيوفيلوس، الذى نجح فى إنشاء كنيسة فى عدن، وإقامة كنيستين أخريتين فى مملكة حمير ثم اعتنقت نجران المسيحية كذلك سنة ٥٠٠م على يد قديس من الشام يدعى فيمون، اسرته قافلة عربية، عادت به إلى نجران(٣).

---

(١) كان سكان دولة الروم انفسهم يفتخرون بأنهم من نسل الرومان القدامى واطلقوا على انفسهم اعتداداً أبناء رومية (Romaioi). ولعل العرب نقلوا تلك الكلمة إلى كلمة "الروم"

(2) Runciman, op cit, 164.

(3) Hitti, History of the Arabs, 61.

وسرعان ما انتشرت اليهودية كذلك فى بلاد اليمن، وصارت منافساً للمسيحية هناك فى القرن السادس الميلادى. ودخلت اليهودية بلاد العرب منذ عهد مبكر، يرجع غالباً إلى غزوة الإمبراطور الرومانى تيطس لفلسطين وتحطيمه بيت المقدس سنة ٧٠م وازدهرت اليهودية فى بلاد اليمن فى القرن السادس الميلادى وغدت صاحبه السيادة هناك، حيث تولى الحكم ملك حميرى يهودى يدعى ذو نواس، ولم يلبث الصراع بين اليهودية والمسيحية أن غدا متوقعاً فى ذلك القرن، ولاسيما بعد أن اختلط بالأغراض التجارية. ذلك أن ملوك حمير اليهود قاموا بعدة حوادث سلب ونهب وذبح للتجار الروم المسيحين، الذى يعبرون اليمن فى طريقهم إلى بلاد الحبشة، لأنهم وجدوا فى أولئك التجار مزاحماً لنشاطهم التجارى، وسبباً فى الأنهيار الاقتصادى الذى بدأ يصيب بلاد اليمن.

ثم امتد الاضطهاد الدينى الذى قام به اليهود فى اليمن إلى مواطنيهم المسيحيين، إذ اضحت المسيحية فى نظر ملوك حمير رمز التدخل الاجنبى الذى قام به الروم فى جنوب بلاد العرب، وأثراً من آثار نفوذه وسلطانه. وانفجر الصراع الدينى بمذبحة كبرى أطاح فيها اليهود بمسيحى نجران فى اكتوبر سنة ٥٢٣م، بعد أن رفض أولئك المسيحيون إنذار ذى نواس لهم بتغيير دينهم. غير أن أحد المسيحين أفلت من تلك المذبحة وذهب إلى القسطنطينية يطلب النجدة والمساعدة. وأرسل إمبراطور الروم، وهو جستين الأول إلى نجاشى الحبشة، باعتباره وكيلا عن دولة الروم فى رعاية المسيحيين المقيمين بالقرب منه، يعهد إليه بمهمة الانتقام من اليهود وتأديبهم على جريمتهم الشنعاء. وجهز النجاسى حملة عبرت البحر الأحمر تحت قيادة أرباط. وتمكن أحد ضباط تلك الحملة واسمه ابرهه، الذى حل مكان أرياط فى القيادة، أن يهزم ذا نواس اليهودى، الذى فر تاركاً اليمن سنة ٥٢٥م لسيادة الحبشة المسيحية عميلة دولة الروم. وأرسل ملك الحبشة إلى الإمبراطور جستين الأول وبطريق الاسكندرية يزف إليهما بشرى النصر والفوز.

على أن زوال سيادة عرب الجنوب وانهيار ممالكهم دفع اليمن إلى

أحضان الفقر الاقتصادى والاضطراب السياسى. فحدث إبان حكم أبرهه عودة التصدع فى سد مأرب بعد محاولات غير مجدية قام بها ذلك الحاكم لترميمه. وتلا إحدى المرات التى تصدع فيها ذلك السد هجرة قبيلة كبيرة من عرب الجنوب هى قبيلة بنى غسان إلى منطقة حوران فى شمال بلاد العرب. وينسب المؤرخون العرب ضياع مجد بلاد اليمن الحضارى وهجرة سكانها إلى تلك الحادثة التى انهار فيها سد مأرب. لكن ذلك ليس العامل الأول أو الأساسى، إذ أن انهيار السد يعد فى ذاته أولا وقبل كل شىء ظاهرة لإهمال وانحلال دولة دب الفناء والفساد فى أوصالها.

وقد حاول أبرهه نائب ملك الحبشة فى صنعاء، التى صارت عاصمة اليمن إذ ذاك، فى عهد السيطرة الحبشية على جنوب بلاد العرب، إحياء المجد التجارى لتلك البلاد. فانشأ فى تلك العاصمة كاتدرائية كبيرة زخرفها بالرخام المجزع الأبيض والأحمر والأخضر والأسود، وطعم بابها بالذهب واللؤلؤ. وتلك الكاتدرائية هى التى سماها العرب (القليس) استقاقاً من الكلمة اليونانية (Ecclesia) أى كنيسة. وكانت الحبشة تبتغى تدعيم أركان المسيحية فى تلك البلاد، وخلق منافس للكعبة فى مكة التى صارت فى ذلك الوقت مركز الحج فى بلاد العرب الشمالية. ومما لاشك فيه أن العامل الاقتصادى كان القوة الخفية التى حملت أبرهه على تأسيس القليس، إذ استهدف تحويل الحجاج من مكة إلى صنعاء للحصول على الموارد المالية العظيمة التى كانت تصب فى خزائن مكة.

ويروى أن اثنين من عرب الحجاز انتهكا حرمة كاتدرائية صنعاء (القليس) بأن دنساها فى إحدى الليالى التى أقيم فيها احتفال بعيد من الأعياد، فاشتاط ابرهه غضباً وقاد حملة تأديبية كبرى، وهى حملة أصحاب الفيل، لمعاقبة أهل مكة. وحدث ذلك سنة ٥٧١م، وهى السنة التى ولد فيها الرسول الكريم، والمعروفة بعام الفيل، الذى هلك فيه جيش أبرهه لانتشار مرض بين الجنود

وبذلك تحطمت حملة التى ربما ترتب عليها - لو قدر لها النجاح - امتداد سيطرة الأحباش، وكلاء الروم على أهم شريان تجارى فى بلاد العرب. ثم أعقب هذا الفشل ازدياد التدهور الاقتصادى والسياسى فى بلاد اليمن. وذلك أن فارس فرصتها لم تغفل أهمية تلك البلاد برغم ما سادها من أنحلال وتطلعت إلى القضاء على سيادة الأحباش ونفوذ الروم منها. ووجدت فارس حين قامت حركة قومية لتخليص بلاد اليمن من حكم الحبشة. وكان يتزعم هذه الحركة سيف بن ذى يزن، سليل البيت الملكى الحميرى القديم. فطلب ذلك البطل من الملك الفارسى كسرى انوشروان مساعدته على استرداد بلاده. فأمده كسرى سنة ٥٧٥م بحملة عددها ثمانمائة رجل قضت على الحامية الحبشية فى بلاد اليمن. وكان لانتصار عرب الجنوب أثر كبير فى سائر أنحاء الجزيرة العربية، وجاءتهم الوفود من كل مكان، ولاسيما من مكة التى كان جيش الحبشة قد حاول غزوها. وحضر على رأس وفد مكة عبدالمطلب من قبيلة قريش وهو جد النبى الكريم. غير أن هذا التطور السياسى لم يأت بجديد على بلاد اليمن، إذ تخلصت من نير الأحباش لتقع فى براثن الفرس الذين امعنوا فى السيطرة على البلاد ليحولوا دون الروم وبين الاستيلاء عليها مرة أخرى.

وظل عرب الجنوب بذلك يعانون أسوأ عهود الاستعمار والضنك، حتى ظهر الإسلام، وقام عرب الحجاز المسلمون بإنقاذ بنى وطنهم وضمهم الى ركب الجيوش الإسلامية المظفرة، ضد كل من الروم والفرس.

عرب الشمال:

إذا كان عرب الجنوب قد تعرضوا لأطماع الروم وبطشهم بسبب موقع بلادهم الجغرافى، فإن جماعات من عرب الشمال تردت فى نفس المصير بسبب تجاوبها مع بعض البينات التى نزلت بها. ذلك أن الصحراوات التى قطنها عرب الشمال لم تكن كلها كما يتصور المرء امتداداً شاسعاً من رمال محرقة لايمكن اجتيازها، أو فلاة موحشة مقفرة لايصلح العيش فيها. ولكن على النقيض من

ذلك اشتملت بعض بقاع تلك الصحراوات على الحشائش والنباتات التى ساعدت على الإقامة فيها أو الضرب فى مناكبها، فضلا عن أن صحراوات شمال بلاد العرب تمتد على شكل لسان طويل تحيط به أراضى خصبة من العراق والشام أشبه بهلال، عرف منذ أقدم العصور باسم الهلال الخصيب.

وكان لتلك الظاهرة الجغرافية أثر كبير فى حياة عرب الشمال. فيرى علماء السامية أن جوف بلاد العرب كان يزدحم على فترات معينة، يفصل الواحدة منها عن الأخرى نحو ألف سنة تقريباً، بعدد كبير من السكان يزيد كثيراً عما تتحمله مواردها الاقتصادية، مما حمل أولئك السكان على الهجرة إلى الأراضى الخصبة التى تحيط ببلادهم شمالا. وتأخذ القبائل فى ارتياد الصحراوات الشمالية حتى ينتهى بها التجوال إلى الاستقرار على أطراف الهلال الخصيب، حيث تنتهز الفرصة للاغارة على بلاده أو التسلل إليها للأخذ بنصيب من خيراتها. وكانت أراضى الشام الخصيبة تسيل لعاب أولئك البدو الضاربين على حدودها، حيث اشتهرت بما حوته من النبيذ والزيت والقمح، المثل الأعلى للبدوى عن حياة النعيم.

وتعتبر هجرة الأنباط العرب نموذجاً يوضح حركات عرب الشمال وتأقلمهم مع الظاهرة الجغرافية العاملة التى سادت بلادهم. إذ حوالى سنة ٥٠٠ق.م غدت الصحراء الممتدة من شرق سوريا وفلسطين إلى الفرات منتجع العرب الأنباط الذين أطلقت عليهم الإمبراطورية الرومانية الكبرى اسم أهالى الخيام (Secnites) وكانت حياتهم نموذجاً لما كان عليه البدوى فى مهده الأصلى، إذ كانوا فى نضال مستمر استغلال حول استغلال أماكن الرعى والتكالب على الأراضى التى يمكن فلاحتها، حتى أصبحت حياتهم مليئة بالنشاط والكفاح (in fuga vita est illis semper).

ولكن الجماعات التى استقرت منهم فى الجهات التى أمكنهم استثمارها عرفوا تأسيس الإمارات. فظهرت البتراء التى اتخذها الأنباط عاصمة لهم، واتسعت رقعة هذه الإمارة فى القرن الأول للمسيح حتى امتدت من عاصمتها

البتراء. إلى دمشق شمالا وإلى مدائن صالح أو الحجر جنوباً وإلى الفرات شرقاً. ولكن الإمبراطور الرومانى تراجان قضى على نفوذ تلك الإمارة سنة ١٠٥م. وكان ذلك جزءاً من السياسة التى تلقتها دولة الروم فيما بعد عن أمها الإمبراطورية الرومانية الكبرى، وهى تقليم أظافر الإمارات العربية والقضاء عليها إذا عظم شأنها. وتجلت هذه السياسة الرومانية مرة أخرى مع إمارة تدمر التى أسستها القبائل العربية التى أقامت حول تلك المدينة، بعد إنهيار مجد الأنباط.

وبلغت إمارة تدمر أزهى عصورها بين سنتى ١٣٠، ٢٧٠م، وحالفت روما ونفذت سياستها ضد دولة الفرس البارثية، فنجح أذينه حاكم تدمر فى طرد شابور الأول الفارسى من الشام سنة ٢٦٥م، ومنحه الإمبراطور الرومانى لقب حاكم المشرق (Dux Orientis) اعترافاً بجهوده وخدماته ولكن ما أن اعتزت الإمارة بقوتها وسطوتها حتى حطمها الإمبراطور أورليان وقضى على عاصمتها تدمر سنة ٢٧٣م.

على أن زوال إمارة تدمر لم يقض على حركات القبائل العربية الضاربة على أطراف الهلال الخصيب، إذ تلقت تلك القبائل مدداً من الهجرات التى بعث بها جوف بلادهم، ولاسيما من بلاد اليمن نفسها التى دخلت منذ القرن الثالث الميلادى فى دور من الانحلال والتدهور الاقتصادى. وكانت الأحوال السياسية فى أرض الهلال الخصيب تساعد عرب الشمال إذ ذاك على الاستمرار فى بناء مجد سياسى لهم. إذ قامت فى فارس سنة ٢٢٦م أسرة حاكمة جديدة عرفت باسم الأسرة الساسانية وضعت نصب عينيها الاستفادة من القبائل العربية الضاربة على حدودها الغربية بعد إنهيار إمارة تدمر. وتصادف تلك الفترة فى قدوم قبيلة تنوخ العربية، التى يقال أنها من أصل يمنى واستقرارها غربى نهر الفرات من الحدود الفارسية إبان فترة الاضطراب التى شهدت انتقال السلطة فى فارس من الدولة البارثية إلى الساسانية.

وعاش التنوخيون بادىء الأمر فى خيام، ثم تطور معسكرهم المؤقت

بمرور الزمن إلى مخيم دائم عرف باسم الحيرة، وهى كلمة مشتقة من اللفظ السريانى «حرتا» ومعناه المعسكر. وأصبحت الحيرة عاصمة دولة ضمت القبائل العربية الضاربة غربى الفرات بفضل مؤسسها عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعه بن لخم. ومن ثم أطلق على تلك الدولة أحياناً إمارة اللخميين نسبة إلى مؤسسها أو إمارة الحيرة نسبة إلى العاصمة نفسها. ودخلت تلك الإمارة العربية فى التبعية لدولة الفرس الساسانية، واشتهر امراؤها بالتفانى فى خدمة مصالح الفرس. ومن أمثلة ذلك ما قام به النعمان الأول (٤٠٠-٤١٨م)، إذ بنى على مقربة من الحيرة، القصر الشهير المعروف باسم الخورنق لينزل به بهرام جور بن يزدجرد الأول. وجاء بعد النعمان سلسلة من الأمراء اشتهر منهم المنذر الثالث (٥٠٥-٥٥٤م)، الذى يسميه العرب «ابن ماء السماء»، وهو المعروف عند الروم كذلك باسم (Alamoundaras). فقد خرج على رأس مائة ألف من أتباعه ليحارب الروم وحلفاءهم الغساسنة فى وقعة تعرف عند العرب باسم «يوم حليمه».

وكان لإمارة الحيرة أثر كبير فى بلاد الحجاز، فقد استقدم أحد ملوكها وهو عمرو بن المنذر الثالث الملقب «بابن هند» (٥٥٤-٥٦٩م)، عدداً من مشاهير شعراء العرب مثل طرفه بن العبد والحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم، وهم جميعاً من أصحاب المعلقات السبع، وأغدق عليهم العطايا الوافرة لإشادتهم بمجد اللخميين. وأدى هذا الاتصال كذلك إلى انتشار المسيحية من الحيرة إلى الحجاز، كما قام نفر من أهل الحيرة بتعليم قريش من قبائل الحجاز الكتابة، مما كان له أكبر الأثر فى تطور الأحداث فى بلاد الحجاز قبيل الدعوة الإسلامية بفترة قصيرة.

وعاصر إمارة اللخميين، إمارة أخرى أسستها قبيلة الغساسنة التى جاءت كذلك من جنوب بلاد العرب بعد تدهور أحوالها الاقتصادى. إذ حدث عقب حادث من حوادث إنهيار سد مأرب هجرة تلك القبيلة إلى شمال بلاد العرب، واستقرارها على أطراف الشام أثناء القرن الرابع الميلادى. وكان يقيم

فى تلك الجهات إذ ذاك عدة قبائل من قضاعة، التى تفرقت عن تنوخ بعد استقرارها غربى نهر الفرات. واتسمت حركات تلك القبائل بالأنضواء تحت زعامة أقوى القبائل هيبة ونفوذاً، ولذا لم يلبث قبيلة تدعى سليح أن هزمت من بشمال بلاد العرب من قضاعة، وأخذت منها عصى الزعامة. وكان هذا هو الموظف حين وفدت قبيلة الغساسنة واستأثرت لنفسها بالسلطان من دون سليح.

وحوالى القرن الخامس الميلادى اتجهت دولة الروم إلى استخدام الغساسنة فى الدفاع عن حدود الشام ضد هجمات الفرس وعملائها اللخميين، فضلا عن صد تيار القبائل العربية الأخرى التى تبغى الإغارة على إقليم الشام. وبلغ الغساسنة أوج مجدهم فى عهد أمرائهم وهو الحارث الأعرج (الملقب فى مراجع الروم باسم Arethas)، وذلك على عهد إمبراطور جستنيان، إذ استطاع الحارث (٥٢٩-٥٦٩م) أن يهيمن على كثير من القبائل العربية الضاربة فى شمال بلاد العرب، وغدت له اليد العليا حتى جبال لبنان شمالا وإلى الشاطىء الفينيقى غرباً وفى فلسطين ووادى الأردن. وتشير بعض القصائد التى أنشدت فى مدح الغساسنة كذلك إلى أن نفوذهم وصل إلى قبيلة عوف بن مرة الضاربة فى شمال الحجاز، أو الشمال الغربى من نجد.

واشتبك الحارث الأعرج فى حروب مريرة لخدمة دولة الروم ضد منافستها دولة الفرس وعملائها من الحيرة. واستطاع الحارث فى معركة من أشهر الوقائع التى نشبت بين الغساسنة واللخميين وتسمى «يوم حليمة» القضاء على المنذر الثالث المعروف بابن ماء السماء، والذى كان يعد رمز عظمة اللخميين، وشوكة أرقت الروم فى بلاد الشام). وقدر الإمبراطور جستنيان أعمال الحارث، فأغدق عليه لقب «فيلارخ» كما نصبه سيداً على كل قبائل عرب الشام، ولكن عندما بلغ مجد الغساسنة السماكين، وظنوا أنهم قادرون على الشام وأهله تنكرت لهم دولة الروم، وبادرت إلى تطبيق سياسة أمها روما القديمة، فى كسر شوكة الغساسنة وإبقائهم على التبعية لها فى الصورة التى تحددها لهم.

وتعلل أباطرة الروم فى تنفيذ مآربهم بالخلاف المذهبى بينهم وبين

الغساسنة. إذ كان المذهب الرسمى لدولة الروم هو المذهب الملكانى القائل بأن للسيد المسيح طبيعتان، بشرية وإلهيه، على حين اعتنق الغساسنة لمذهب المونوفيزيتى القائل بأن للسيد المسيح طبيعة واحدة إلهيه. ورأى الروم فى اعتناق الغساسنة للمذهب يخالف مذهبهم عنواناً على جنوح أمراء غسان للانفصال عن جسم دولة الروم. وانتهى الأمر بأن ألقت سلطات الروم القبض على بعض ملوك غسان لما أحاط بهم من شكوك. فكان المنذر بن الحارث، مثل أبيه، من أشد الناس تحمساً للمذهب المونوفيزيتى، مما حمل دولة الروم على إهمال أمره وإساءة معاملته. وأثارت تلك السياسة بنى غسان، وأعلنوا العصيان على دولة الروم نفسها. غير أن سلطات الروم فى الشام استطاعت القبض على المنذر غدراً أثناء احتفاله ببناء كنيسة حوران (بين دمشق وتدمر) ونفته إلى صقلية.

وانفرط عقد القبائل العربية فى شمال بلاد العرب بعد إنهيار سلطان الغساسنة، وأخذت كل قبيلة تسعى لتكوين مجد لها مثل قبيلة كلب التى سيطرت على الينابيع والواحات، وشرق حوران وجنوبها، كما امتدت فى دومة الجندل وتبوك ووادى القرى. ولكن هذا لم يحل دون الاضطراب، الذى لم يلبث أن امتد من أرض الغساسنة إلى قبائل الحيرة كذلك، بسبب أعمال الوشاية التى سعى بها زعماء الحيرة بين بعضهم بعضاً لدى أكاسرة فارس. وكانت دولة الفرس قد بدأت تتشكك فى اللخميين، الذين اعتنقوا المسيحية إذ ذاك، فقد رأت تلك الدولة فى انتشار المسيحية بين اللخميين سبيلا يقرب بينهم وبين عدوتهم دولة الروم. ولذا انتهز كسرى أبرويز سعاية عدانية قام بها زيد بن عدى ضد النعمان الثالث ملك الحيرة (٥٨٠ - ٦١٢) وألقى القبض عليه، وزج به فى السجن حتى مات.

وهكذا أنتهى مجد القبائل العربية التى استقرت على أطراف الهلال الخصيب، كما أنتهى سلطان عرب الجنوب من قبل. ولكن تراث كل من عرب الشمال والجنوب قد أخذ يسلك سبله إلى بلاد الحجاز، التى قدر لها أن تحافظ على كيان العرب وتصبح مصدر وحدتهم وعزتهم.

الحجاز فى العصر الجاهلى

الحياة القبلية :

فى الوقت الذى مزقت فيه أطماع الروم سلطان الممالك العربية قبل الإسلام فى بلاد اليمن وعلى أطراف الهلال الخصيب عاش عرب الحجاز فى جاهليتهم بعيداً عن أن تمتد إليهم يد البطش الأجنبية. وكلمة الجاهلية لاتعنى الجهل نقيض العلم، أو السفه والغضب كما يتبادر إلى الذهن، لأن المجتمع العربى سواء فى الشمال أو الجنوب كانت له نظمه الراقية ومظاهره الحضارية. ولكن يقصد بالجاهلية، والتى شاعت بعد ظهور الإسلام، العصر الذى لم يكن لبلاد العرب فيه كتاب منزل ولا رسول موحى إليه. ولايمكن كذلك تحديد عصر الجاهلية بزمن معين، ولكن معناه الضيق يشمل حياة عرب الحجاز، الذين لم يظهروا على مسرح الشئون الدولية إلا بعد أن بسط الإسلام نفوذه عليهم، وجعلهم رسله فى توحيد بلاد العرب كلها، ونشر تعاليمه خارج تلك البلاد كذلك، فى سائر أنحاء العالم المعروف إذ ذاك.

وأول شىء جعل عرب الحجاز يحبون حياتهم الجاهلية بالطريقة التى رسموها لأنفسهم هو جغرافية بلادهم، التى أمعنت فى تحويل أبصار طمع الروم وغيرهم من القوى السياسية الكبرى عن تلك البلاد، فأرض الحجاز التى اشتقت أسمها من الجبال التى تحجز بين التهائم - وهى الوديان التى يسقط عليها المطر - وبين الصحراء، تمتد فى منطقة تقع بين ساحل البحر الأحمر وهضبة نجد، بحيث صار الوصول إليها أمراً شاقاً عسيراً على القوى الكبرى المحيطة ببلاد العرب ولايغرى أى طامع على أن يتوسع إليها. ومن ثم لم يأبه جيران الحجاز من القوى الكبرى بشئونه، وكان ماشاع عن أولئك السكان أنهم أهل إغارات وأحقاد وتراث ونزاع.

غير أن عرب الحجاز وضعوا لهم من النظم الاجتماعية والاقتصادية ما جعلهم خير مادة تنهض بأعباء الدين الإسلامى فيما بعد، دون أن يفطن إلى ذلك أصحاب المطامع من الروم، الذين نشبوا مخالبهم فى عرب الجنوب وقبائل

عرب الشمال التى نزلت على أطراف الهلال الخصيب. فعرب الحجاز لم يكونوا، كما توهم الروم، مجرد بدو يجوبون الآفاق حباً فى التجوال، وإنما كانوا يتخيرون البقاع التى ينتجعونها على أساس خصوبتها، ووفق أوقات معينة من السنة. ثم أن أولئك البدو إذا وجدوا أرضاً صالحة للزراعة وسط المروج الكبيرة أو عين ماء يتلاقى عندها الرعاة ورجال القوافل، استقروا فى تلك الأماكن، مؤسسين بذلك قرى، وأحياناً بعض المدن.

وإلى جانب تلك الظاهرة أدرك البدوى برغم حبه للحرية الفردية المطلقة أنه لايستطيع أن يعيش بمفرده فى البيئة الصحراوية القاسية التى تحيط به ومن ثم وجد أن خير نظام يكفل له الحماية هو التجمع فى وحدات، كان أشهرها مايعرف باسم «القبيلة» ويعتبر نظام القبيلة أصل البدوى، فكل خيمة من الخيام تسكنها أسرة بدوية، وكل عدد من الخيام تجمعها روابط أسرية تسمى «حياً» يطلق على أفراده كذلك اسم القوم ومن مجموعة الأقوام القريبة النسب تتكون القبيلة واقتضى نظام القبيلة بدوره اختيار أفرادها لواحد منهم، يتولى رئاستها، وعرف باسم «الشيخ» غالباً. وكان شيخ القبيلة ينتخب لكبر سنه وقوة شخصيته وشجاعته فى الدفاع عن أقرانه، فضلا عن كرمه وما يتمتع به من حلم، وكذلك الثراء إذا توافر.

ولكن ظلت صلة الدم لا الخضوع للشيخ هى العامل الهام فى الاحتفاظ بوحدة القبيلة، إذ اعتبر البدوى كل غريب عن قبيلته ذليلا، ومن يحرم من حمايتها (خليعاً). وخلق هذا الافراط فى التمسك بصلة الدم نوعاً من «العصبية» كانت الروح التى تسرى فى جسد القبيلة، وتحافظ على تماسكها. وتجلت مظاهر تلك «العصبية القبلية» فى عادة «الثأر»، بحيث إذا لحق أذى فرد من أفراد القبيلة هب الجميع لنصرته ظالماً كان أم مظلوماً. وكان العرف السائد أن الدم لايغسله إلا بالدم، وأن أقرب الناس إلى القاتل هو الذى يتحمل المسئولية الأولى. وعلى الرغم من مساوىء تلك العادة فإن الثأر كان القانون الوحيد الذى يستطيع أن يحد فى البادية من فوضى القتل: لأن أهل القتيل لم يقبلوا الدية إلا فى حالات نادرة جداً.

أيام العرب:

ووجدت عادة الثأر متنفساً لها فى الوقائع التى نشبت دائماً بين البدو، والتى تعرف باسم «أيام العرب». وقد صارت تلك المنازعات البدوية المرآه التى أنعكست عليها حياة العرب الاجتماعية والاقتصادية كذلك. فكان أهم أسباب الصراع هو النزاع على الماشية واراضى المراعى وعيون الماء، فضلا عن أن زعماء القبائل المتخاصمة وجدوا فى تلك الوقائع مجالا لإظهار البطولة الفردية وأعمال الفروسية. وكانت المنازعات تبدأ غالباً باصطدام يقع بين الأفراد إثر خلاف على انتهاك حرمة حمى بعض القبائل، أو لإهانة تلحق أحد الفريقين. ولاتلبث هذه الخصومة الفردية أن تتحول إلى نزاع عام يشمل جميع رجال القبيلة.

ويلاحظ أن تلك المنازعات على كثرتها لم ترق فيها دماء كثيرة، لأن البدوى لم يكن يرمى إلى سفك الدماء دون مبرر، كما لم يكن هدفه التخريب التام، فأيام العرب التى سجلها التاريخ لم تحدث فيها ضحايا هائلة على نحو مايتوهم القارىء لأخبار تلك الحروب القبلية وكانت تخمد نيران المنازعات بعد أن يطول أمدها نتيجة توسط قبيلة محايدة. ويدفع الجانب صاحب القتلى القليلة دية عن العدد الزائد على قتلى الفريق الآخر. غير أن ذكرى النزاع لاتموت بانتهاء الحروب، وإنما تبقى فى قصائد الشعراء، التى تثير دائماً مخيلة الأقوام.

وكان لقصائد الشعراء دور هام أثناء الصراع نفسه. فلسان الشاعر لايقل أهمية عن بسالة قومه فى ميدان القتال، إذ تدفع قصائده أفراد القبيلة للغزو والثأر وتثير العصبية فى النفوس. وجعلت تلك المهام للشاعر مكانة كبرى فى القبيلة، التى اعتبرته حكيمها ومرشدها، والنائب المتكلم باسمها. وصار شرف القبيلة وتوفقها يقام على أربعة أمور منها عظمة شعرانها، إلى جانب الثلاث الأخرى، وهى القوة الحربية التى يمثلها الفرسان وكثرة عدد أفرادها وطيب أفعالها.

ولم تقتصر مهمة الشاعر فى المنازعات عند إثارة الحماسة فحسب، بل قام بتوجيه أفراد قبليته إلى ما فيه صلاحهم المادى والأدبى كذلك. فالشاعر باعتباره مؤرخ القبيلة يعرف مالها من الحقوق فى المراعى وخطوط تخومها بما لايدع لأعدائها نهب تلك الحقوق. ثم إنه بصفته عالماً بمواطن الضعف النفسى فى القبائل الأخرى. ونقائضها التاريخية يستطيع أن يشهر بالقبائل المناوئة لبنى قومه ويجعلها موضع هزء وسخرية.

ومن أقدم الحروب البدوية التى خلدتها قصائد الشعراء حرب البسوس ويوم داحس والغبراء. ودارت رحى البسوس بين قبيلتى بكر وتغلب، أواخر القرن الخامس الميلادى، فى الشمال الشرقى من بلاد العرب. وكان مصدر الخلاف بينهما ان كليباً سيد بنى تغلب جرح ناقة البسوس عمة جساس بن مرة سيد قبيلة بكر، فقتل جساس كليباً غدراً انتقاماً للناقة. ومن ثم دارت الحرب بين الفريقين، واستغرقت زهاء أربعين سنة كما قال الرواة. واشتهر من أبطال قبيلة تغلب كليب بن ربيعة وأخوه الشاعر المهلهل (المتوفى سنة ٥٢١م) الذى خلد الكثير من أحداث النزاع فى قصائد رائعة. وانتهى النزاع سنة ٥٥٥م عندما توسط المنذر الثالث ملك الحيرة، وعقد صلحاً بين الفريقين.

أما يوم داحس، فقد دارت بين قبيلة عبس وأختها ذبيان فى أواسط جزيرة العرب. وسبب نشوب تلك الفتنة هو أن ذبيان أساءت إلى بنى عبس أثناء سباق بين جواد لسيد عبس اسمه داحس، وفرس لسيد ذبيان اسمها الغبراء، إذ كان داحس على وشك الفوز فى السباق عندما اعترضه رجل من ذبيان، وهيأ الفرصة لفوز الغبراء، واندلعت نيران الحرب بين الفريقين بسبب الرهان وتأجج أوارها فى النصف الثانى من القرن السادس، بعد انتهاء حرب البسوس بزمن قصير، ثم انتهت بتوسط بعض القبائل وأنتجت تلك الحرب عنترة بن شداد العبسى (٥٢٥-٦١٥م)، الذى كان شاعراً وبطلا محارباً كما ظهر فى هذه الأحداث كذلك شاعر آخر مشهور وهو زهير بن أبى سلمى الذى تعد قصيدته من روائع المعلقات.

ازدهار التجارة:

على أن المظهر الفريد فى تلك الحياة الجاهلية هو نشاط التبادل التجارى، وازدهار الحياة الاقتصادية فى الحجاز وسط «أيام العرب» وما حفلت به من منازعات وإغارات.ويرجع السبب فى ذلك إلى أن عرب الحجاز اهتدوا إلى وسيلة قللوا بها من شرور الوقائع البدوية، وما ترتب عليها من اختلال الأمن. فخصصوا أربعة أشهر حرم يقف فيها الاعتداء ويسودها السلام التام.

وجاءت ثلاثة من تلك الشهور متتالية، وهى ذو القعدة وذى الحجة والمحرم على حين يحل الشهر الرابع فى منتصف السنة، وهو رجب الفرد، الذى تقف فيه الحروب دفعة واحدة.

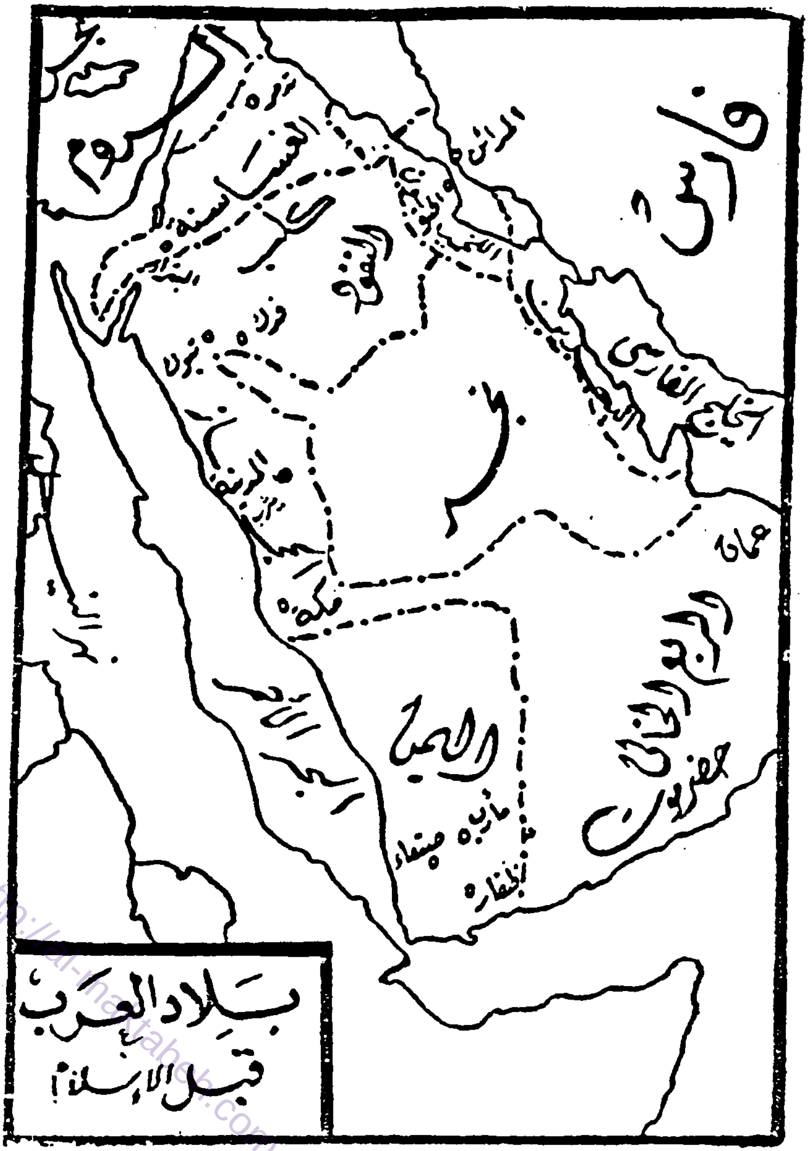
واستغل العرب الأشهر الثلاثه لاداء واجباتهم الدينية، حيث دأبوا على الذهاب من أجل ذلك إلى الحجاز. ولم تكن تلك البلاد نفسها أرضاً غنية، وإنما امتازت بأن الطرق إليها ميسرة سواء من الشمال أو الجنوب أو الغرب، مما جعل العرب يقبلون عليها لأداء فروضهم الدينية. على أن ذلك لايعنى أن البدو لم يعرفوا الأشياء المقدسة إلا فى الحجاز، إذا كانت فى أراضى كل قبيلة عدة أحجار أو ينابيع مقدسة تكفى لإشباع عواطف أهلها الدينية البسيطة. ولكن لما كانت الحجاز منذ القدم مركزاً تلتقى فيه كثير من القبائل فإن العرب جميعاً قدسوا أصنامها إلى جانب أصنامهم المحلية. ومن أجل ذلك أيضاً أخذت مكة تتبوأ مركز الصدارة على سائر مدن الحجاز، مما جلعها تلقب باسم «ام القرى» على ،رغم من وقوعها بواد غير ذى زرع. إذ كانت تضم أول بيت للعبادة وهو الكعبة، التى رفع سيدنا إبراهيم وابنه أسماعيل قواعدها. فصارت مكة بسبب بيتها العتيق مكاناً مقدساً يفد إليها قسم كبير من أهل العرب لتقديم الشعائر والطقوس الدينية هناك.

وأدى اجتماع الأعداد الكبيرة من الناس للحج إلى ازدهار التجارة فى الحجاز، كما صاحب تلك التجارة أعظم مظاهر الحج بهجة وهو انعقاد الأسواق، السنوية العامرة على مقربة من الحرم المقدس، منها عكاظ ومجنة

وسوق ذى المجاز الذى قام خلف جبل عرفات. وفى تلك الأسواق بلغت الحياة العربية نشاطها، ذلك أن العرب صنعوا نوعاً من النبيذ من التمر والعسل والقمح والشعير، على حين حمل اليهود والمسيحيون نبيذ العنب إلى تلك الأسواق وهناك جلس أبناء الصحراء يرتشفون النبيذ من اقداحهم وأكوابهم مضنين الى نغمات القيان المرحة اللاتى حضرن لمضاعفة سرورهم. وإلى جانب الملاهى والمتاجر، ظهر الشعراء، الذين اقبلوا إلى تلك الأسواق بقصائدهم لعرضها على الحكام، كما حضر كل راغب فى الشهرة إلى الحجاز لعرض مواهبة فى عكاظ ومجنة وذى المجاز.

وكانت عكاظ ومجنة وذو المجاز تفقد أهميتها بانتهاء الموسم، على حين أخذت مكة نفسها تتطور وتصبح «أم القرى» فى الحجاز. ويرجع السبب فى ذلك إلى تفوق سكان مكة على غيرهم من أهل الحجاز. إذ على الرغم من افتقار أهل مكة إلى نظام حكومى موحد، شأنهم فى ذلك شأن سائر القبائل الأخرى، إلا أنهم تحلوا بروح تعاونية، ونظر ثاقب فى الأمور التى تهم الصالح العام، وذلك بصورة لا نجد لها مثيلا فى أى مكان آخر من بلاد العرب. فقد وضعت كل اسرة فى مكة مصالح بلدتها فى المكان الأول وقبل كل شىء. حتى على تقاليدها القبلية. وأدت تلك الظاهرة إلى قيام نوع من السلطان فى مكة، صالح لإدارتها، وأثبت برغم بساطته وضيق حدوده أنه أحدث هام فى بلاد العرب فى العصر الجاهلى.

ويرجع الفضل فى خلق هذا السلطان الذى أكسب مكة مكانتها الممتازة إلى قصى، الجد الذى ينسب إليه اتحاد بطون قريش الضاربة فى شعاب مكة حول منتصف القرن الخامس الميلادى، إذ آلم قصى أن يرى قبيلته قريش خاضعة لخزاعة، التى كانت تسيطر على مكة وكافة السلطات بها منذ القرن الثالث الميلادى، ولا تترك لمن سواها إلا القليل من المناصب. واستطاع قصى أن يجلى خزاعة عن مكة، ويستولى على مقاليد الأمور فيها ولا سيما الاشراف على بيتها العتيق.


بلاد العرب
قبل الإسلام
فارس
الروم
الغساسنة
كلب
النفود
نجد
يثرب
الخليج الفارسي
عمان
مكة
الربع الخالي
اليمن
حضرموت
مأرب
صنعاء
ظفار

ثم قام قصى بعدة إصلاحات فى مكة كان لها أكبر الأثر فى تنمية تجارتها فى عهده، وعهد أحفاده من بعده. وأول تلك الأعمال الهامة هو أن قصى جمع أفراد قريش المبعثرين فى نواحى متعددة من الشعاب إلى وادى مكة، مما أظفره بلقب (المجمع)، وجعل لكل بطن من بطون قريش حياً خاصاً على مقربة من الكعبة، لتتعهدها بالحماية، ودفع الخطر عنها. وشيد قصى لنفسه كذلك داراً يؤدى بابها إلى الكعبة مباشرة، وسمى «دار الندوة». وذلك أن قريشاً إذا أرادت اتخاذ قرار هام أجتمعت فى تلك الدار للتشاور والاتفاق على الخطة الواجب القيام بها. وكان لايسمح بدخول هذه الدار إلا لمن بلغ الأربعين من العمر، أو من سلالة قصى نفسه، أو كان حكيماً ومفوها. وتولى قصى رئاسة الندوة دائماً.

وفرض قصى على قريش ضريبة سنوية تسمى الرفادة، تنفق على إطعام الحجاج الفقراء وغيرهم ممن يهبطون مكة. وفضلا عن ذلك نظم «السقاية» وهى تدبير الماء وحمله من آبار مكة المجاورة بالمزاود والقرب ووضعه فى أحواض لسقاية الحاج. واحتفظ قصى لنفسه كذلك بالحجابة أو السداجة، وهى حفظ مفاتيح الكعبة، لايفتحها إلا هو، ولا تقام شعائر دينية إلا بإذنه. وبذلك جمع قصى فى شخصه كل الوظائف الرئيسية فى مكة، دينية كانت أم مدينة، مما أعطى قريشاً مجداً وزعامة على سائر عرب الحجاز.

وبعد وفاة قصى سنة ٤٨٠م آلت السلطات التى تمتع بها فى مكة إلى أبنائه وأحفاده من بعده. فصارت الحجابة والندوة واللواء فى أيدى بنى عبدالدار، على حين آلت السقاية والرفادة إلى عبد شمس بن عبد مناف، ولما كانت المهام الأخيرة تحتاج إلى رجل موسر، لم يستطع عبد شمس أن ينهض بأعبائها لفقرة، فقد تنازل عما بيده من سلطات إلى أخيه هاشم الذى فاقه فى الثراء والغنى.

وكان هاشم يستمد ثروته من اشتغاله بالتجارة على الطريق التجارى بين اليمن والشام، الذى صار فى القرن السادس الميلادى الشريان الرئيسى لنقل

المتاجر الشرقية. ولذا أدرك هاشم من تجاربه ضرورة تسخير التطورات التى مرت بها بلاد العرب إذ ذاك لمنح مكة مركز الصدارة، وإضافة إصلاحات أخرى إلى ماسبق أن قام به قصى لرفع شأنها. وكان كل من ممالك عرب الجنوب وقبائل الشمال الضاربة على أطراف الهلال الخصيب قد تخلت بعد تدهور مجدها السياسى عن نشاطها التجارى على الطريق بين اليمن والشام.

ومن ثم لم يكن أمام عرب الحجاز من مزاحم فى نقل المتاجر الشرقية، ولا سيما أن متعة بلادهم وطبيعة تقاليدهم جعلتهم موضع هيبة القوى السياسية الكبرى لا محط أطماعها. فالبدوى معروف منذ أقدم العصور بالإقدام والشجاعة وحب، للنضال إذ دعا الداعى، أو حدث مايكرهه على أداء عمل لايرغب فيه، ولكن إذا كسب أحد صداقته وأخذ منه المواثيق على أداء عمل، أوفى بما عاهد عليه ولو ضحى فى ذلك بالمال والنفس، وانعكست تلك الصفات فى النشاط التجارى الذى أخذ يمتلىء به طريق قوافل الحجاز فى القرن السادس الميلادى، إذ كان اعتزاز العربى بكرامته وشجاعته حافزاً أدى إلى ضرورة نيل موافقته وأخذ وعده قبل أن تجتاز أيه قافله الأرض التى تسيطر عليها قبيلته. فاعتبر البدوى هذه الأرض ملكه المقدس الذى يجب أن يزود عنه ويحميه بأى ثمن. ولذا عندما تغيرت الأحوال فى جنوب بلاد العرب وشمالها رضى جيران عرب الحجاز أن يكلوا إليهم مهمة نقل المتاجر لدرايتهم بمسالك الصحراء ودروبها، ولجدارتهم على تدبير شئون القوافل أثناء ترحالها فى البيئة الصحراوية.

وكان هذا هو الوضع الذى صار عليه طريق الحجاز التجارى عندما ولى هاشم شئون مكة. وقد عرف هاشم كيف يستغل هذا الموقف لصالح مكة، حتى إنه يعد المؤسس الحقيقى لمجدها التجارى وواضع أساس نشاط قريش فى ميدان التجارة كذلك. فينسب إلى هاشم أنه أول من سن لقريش رحلة الشتاء إلى بلاد اليمن ورحلة الصيف إلى بلاد الشام، ويبدو أنه نظم رحلات قريش وأعطاها هذا المظهر الثنائى، لأن بعض أهل مكة اشتغل قبل هاشم بنقل التجارة

إلى اليمن والبعض الآخر إلى الشام. ولكن هاشم نظم رحلات الشتاء والصيف بما لايدع مجالا للتنافس أو الفوضى بين تجار قريش وأهلها. ثم دعم هاشم هذا النشاط التجارى الجديد على أسس ثابتة. إذ عقد مع الدول والممالك المجاورة للحجاز معاهدات ومحالفات حتى تضرب قوافل الحجاز فى أراضيها آمنه مطمئنة وتتجر بها فى هدوء ونشاط. فعقد هاشم بنفسه معاهدة مع الروم وعملائهم الغساسنة غدا بمقتضاها لقريش حق التجوال فى بلاد الشام.

ومن ثم ازدهرت حياة مكة التجارية فى عهد هاشم، وصارت مقاليد الأمور فيها لأوسع بيوتها نشاطاً فى الميدان التجارى. وتجلت تلك الحقيقة عندما أعيد توزيع الاختصاصات الإدارية فى مكة فى القرن السادس الميلادى بعد كشف عبدالمطلب لبئر زمزم مرة ثانية. إذ اكتفى أبناء هاشم بالشئون الدينية من تلك الإدارة مثل سقاية الحاج والإشراف على بئر زمزم، على حين اضطلع بنو أمية باللواء. الذى يعتبر صاحبه القائد الأعلى فى الأسفار سواء للتجارة أو الحرب. واستطاع بنو أمية بفضل زعامتهم التجارية تدعيم رحلات الصيف التى تخرج من مكة إلى الشام. فكانت دار الندوة بمكة تغص بعلية القوم حين يأتى ميعاد قافلة مكة إلى الشام. وخضعت إدارة دفة المجلس وتدبير شئون الأعمال التجارية لما يشير به بنو أمية. الذين اشتهروا بالخبرة الواسعة فى ميدان التجارة والمال. وكان يعهد إلى كبيرهم قيادة القافلة وإعدادها.

واشترك فى إعداد القافلة الغنى والفقير ولا سيما النساء، لأن حياة أهل مكة جميعاً توقفت على القوافل التجارية الذاهبة إلى الشام وما تدره عليهم من أرباح. فكان كل فرد منهم يقتصد من دينار إلى دينارين أو كل ما يستطيع أن يدخره من مال ليساهم به فى إعداد القافلة. وكان العبء الأكبر من إعداد القافلة، وتمويلها، على الرغم من المساهمات السالفة الذكر، يقع على كاهل بنى أمية وحدهم فهم يجمعون الأموال من كل راغب فى التجارة، ثم يزودون القافلة بما تحتاجه إلى جانب تلك المساهمات من مال، وكان هو القسط الأوفر غالباً. ومن أمثلة ذلك، المال الذى طلب لإعداد القافلة التى أدت إلى غزوة بدر. فقد

بلغ مقداره ٥٠٫٠٠٠ دينار قدمت بيوت بنو أمية منه، وكانت عبارة عن نقابة تجارية تستغل رأس مالها فى هذا النشاط، مبلغاً مقداره ٤٠٫٠٠٠ دينار، أى أمد بنو أمية قافلة بدر بأربعة أخماس المبلغ. وبلغ عدد الجمال التى خرجت فى تلك القافلة ٢٥٠٠ بعير فضلا عن عدد كبير من الحواس بلغ حوالى ٣٠٠ رجل بين دليل وخفير.

وبذلك كانت مكة القابضة على ناحية الميزان التجارى بين اليمن والشام فى الوقت الذى جهر فيه الرسول الكريم بدعوته، وأخذ يناضل فى سبيلها ولم تستطع دولة الروم على الرغم من وجود عملاء تجاريين لها فى مكة أن تبسط نفوذها السياسى هناك، لبعد الشقة عليها أولا، ولانشغالها بحرب فارس ثانية. وقبل أن تسترد قوات الروم أنفاسها بعد خروجها منهوكة القوى من حربها مع الفرس استطاع الرسول الكريم أن يجعل من بلاد العرب كلها نواة للدولة الإسلامية الفتية التى ملأت أحداثها صفحات رائعة من الجهاد ضد الروم.

الفصل الثانى
الإسلام وإمبراطورية الروم

انقلاب التوازن الدولى فى مطلع القرن السابع الميلادى

الحروب الفارسية:

استهل القرن السابع الميلادى سنواته الأولى بنشوب صراع عنيف بين أعظم قوتى العالم إذ ذاك، دولة الروم والفرس، وبلغ ذروته عندما تولى الإمبراطور هرقل عرش الروم سنة ٦١٠م. وسبب تلك المرحلة من الحروب ما جاش بأكاسرة الفرس من أطماع توسعيه، عاملين على الإفادة مما ساد دولة الروم من اضطراب وما تفشى فيها من حوادث القتل والدس والمؤامرات، التى هيأت لهرقل نفسه أعتلاء عرش الإمبراطورية. فجهد الفرس على تحقيق الحلم الذى طالما داعبهم وأرقهم أيضاً، وهو الحصول على منفذ يطل على البحر الأبيض المتوسط تكمل به لدولتهم سيطرتها التجارية.

وكان تيار التقدم الحربى فى جانب الفرس قبل اعتلاء هرقل العرش. فأوغلت جيوشهم فى بعض أقليم آسيا الصغرى حتى وصلت خالقدونيا قبالة القطسنطينية على الشاطىء الآسيوى، كما وصلت قوات فارسية أخرى الى بعض أرجاء الشام سنة ٦٠٧م(١). ولم يهدأ تيار الزحف الفارسى عندما تقلد هرقل أعنة دولة الروم. إذ استولى الفرس على أرمينية سنة ٦١١م وتقدمت جيوشهم إلى حمص بالشام، واستولت عليها فى تلك السنة أيضاً. ورأى هرقل أن الأمر يحتاج إلى إعداد وتطهير فى الأداة الحربية قبل مواجهة الفرس.

---

(1) Vasiliev, op. cit, I, 257.
Bury, op. cit, II, 147,148.

فأدخل تغييراً فى قادة جيوش الروم فى الميدان الفارسى، وأخذ يعد الجيوش لملاقاة الفرس فى جبهتين، إذ بعث جيشاً إلى أرمينية، على حين نصب نفسه قائداً عاماً لجيوش الميدان الثانى فى أرض الشام(١). على أن الجيوش الفارسية لم تقف ساكنة إبان تلك الفترة التى كان هرقل يعبىء فيها قواته للقتل. فتقدمت القوات الفارسية واستولت على أنطاكية وقيصرية ودمشق بالشام، واحتلت قليقية وطرسوس أيضاً بأطراف آسيا الصغرى. وفى سنة ٦١٤م أنزل الفرس بالروم، قادة العالم المسيحى لطمة قاسية باستيلائهم على بيت المقدس(٢) إذ أضحت تلك المدينة المرتبطة بأصول الديانة المسيحية فى أيدى الفرس الوثنيين، الذين أمعنوا فى الحط من هيبة بيزنطة أمام العالم المسيحى بنقلهم صليب الصلبوت من بيت المقدس وإرساله إلى عاصمة بلادهم. وفى سنة ٦١٩م غدا الفرس سادة بحر الشام وأكملوا سيطرتهم على مياه البحر الأبيض الشرقى باستيلائهم على مصر(٣). ولم يقف الجشع الفارسى عند هذا الحد، بل حملتهم جرأتهم على مهاجمة القسطنطينية التى أنقذتها منعتها الطبيعية وموقعها الجغرافى من التردى فى أيدى الفرس.

على أن اتساع الخطر الفارسى وابتلاعه ولايات الروم الكبرى وتهديده للقسطنطينية نفسها أثار شعور الروم وامتلأوا حماسة للدفاع عن كيانهم. ووقفت الكنيسة على رأس هذه الحركة تشد أزر الإمبراطور لتخليص الأراضى المقدسة، وأضفت على مشروعات هرقل الحربية صبغة دينية. وضربت الكنيسة مثلاً عملياً على تعضيدها للامبراطور هرقل بأن قدمت له كل ما لديها من ذهب وفضه ليسكها نقوداً على أن يتعهد بردها فيما بعد. وهكذا وقفت الكنيسة والدولة صفاً واداً فى سبيل تخليص بيت المقدس وصليب الصلبوت(٤). وانكب هرقل على إعداد خطته الحربية التى انتهى منها سنة ٦٢١م، وجاءت

(1) Bury, op. cit II, 221, 224, 225.
(2) I bid, 214, Va siliev. op. cit, I,258.
(3) Bury, op. cit. II,214.
(4) Bury. op. cit, 219. 220. 221.

خطة محكمة هيأت له فوزاً مظفراً. فبعث اسطوله من القسطنطينية فى ابريل سنة ٦٢٢م إلى مياه الشام. على حين تقدم على رأس جيوشه براً عبر آسيا الصغرى متجنباً الاصطدام بالجيوش الفارسية الضاربة فى تلك البلاد. ولما وصل إلى أطراف آسيا الصغرى من ناحية الشام قام بمناورة حربية معلناً أن هدفه الزحف على فارس. نفسها. فاضطر الجيش الفارسى إلى الجلاء عن آسيا الصغرى. وأسرع شرقاً ليقف فى طريق إمبراطور الروم ويحول دون تقدمه إلى الأراضى الفارسية وبذلك أنقذ هرقل آسيا الصغرى فى حركة حربية بارعة تشهد له بالمهارة وحبه للمغامرة(١). وفى إبريل سنة ٦٢٢م تجددت الحروب والمعارك بين هرقل وفارس. وهناك عند تخت سليمان فى الشمال الغربى من بحيرة أرومية انتقم هرقل لما أنزله الفرس من مذلة بدولة الروم باستيلائهم على بيت المقدس. فكانت مدينة تخت سليمان مركزاً من المراكز الدينية الفارسية شفى جند الروم فيها غلة حماسهم بتخريب معبد النار وإعمال التدمير فيها(٢).

وظل النصر يسير فى ركاب هرقل منذ بدأ حملاته على الفرس سنة ٦٢١م. ذلك أن حوادث تلك الحرب دلت على أن تيار الإنتصارات إذا اتخذ جانباً كان من الصعب على الجانب الآخر أن يحول ذلك التيار إلى جانبه. فباءت بالفشل جميع محاولات الفرس لاستعداء القبائل الضاربة على أطراف دولة الروم الشمالية على مهاجمة القسطنطينية وحمل هرقل على التخلى عن مهاجمة فارس. فصدت القسطنطينية سنة ٦٢٦م. غارة مفاجئة شنتها عناصر الأفار والبلغار والسلاف أثناء تفرغ هرقل لإعداد عدة جديدة للقضاء على فارس(٣). وفى تلك السنة أيضاً فرغ هرقل من إعداد العدة وتجنيد قواته فى أقاليم القوقاز. ثم سار من مدينة تفليس إلى طرابيزون ومنها وصل مدينة نينوى على نهر دجلة سنة ٦٢٧م. وهناك اشتبك مع الفرس فى معركة كبرى

---

(1) Bury, op, cit, 227, 228, 230.

(2) Ibid, 231, 232.

(3) Bury, op, cit, 239 228, 243.
Vasiliev, op. cit. 261.

خرج منها ظافراً، وتقدم بعدها جنوباً إلى مدينة دستاجــرد حيــث، انهارت مقاومة الفرس دائماً. وجلا كسرى عن تلك المدينة التى دخلها هرقل دون أن يلقى مقاومة كبيرة. ثم واصل هرقل زحفه صوب المدائن عاصمة الفرس وأصبح على مرحلة منها لا يفصله عنها سوى نهر صغير، لكن هرقل أحجم عن متابعة مغامراته لأن خطوط تموينه أصبحت طويلة فضلا عن رداءة الأحوال الجوية لاقتراب فصل الشتاء. فعول هرقل على التقهقر من المدائن وعاد إلى تخت سليمان فى فبراير سنة ٦٢٨م. قبل أن تسد الثلوج معابر الجبال(١).

وانحلت المسألة الفارسية فى تلك الفترة حلا سلمياً. إذ قامت ثورة فى المدائن زعيمها سراويز بن كسرى، خلع أباه وطلب من هرقل الدخول فى مفاوضات لعقد الصلح بين الدولتين. وقبل هرقل عقد صلح أبرم سنة ٦٢٨م، وجلت بمقتضاه قوات الروم عن الأراضى الفارسية إلى الروم صليب الصلبوت(٢). وهكذا اختتمت دولتا الروم والفرس فصلا من قصة حروبهما المتكررة اتسم بتبادل الطرفين اجتياح أراض واسعة، ووصول جيوشهما إلى مشارف كل من عاصمتى الدولتين، مبيدين الحرث والنسل ومثقلين كواهل من بقى على قيد الحياة بالسلب والنهب، فضلا عما استنزف من مواردهم للنهوض بالأعباء الحربية. وظلت كل من دولة الروم والفرس تئن من الخور والإنهاك، كما بقيت قصة حروبهما معلقة فصولها عند هذا الحد إلى أن أتم الإسلام فصلها الأخير. فأدخل فارس المثخنة الجراح فى حظيرته، واقتطع من دولة الروم أغنى أقاليمها فى حوض البحر الأبيض المتوسط وهى مصر والشام، اللتان ذاقتا صنوف العذاب وألوان الاضطهاد الدينى على أيدى الروم ولاسيما بعد انتهاء الحروب الفارسية.

---

(1) Bury, op, cit, 241, 242;
Vasiliev, op, cit 261.

(2) Ibid 261, 262;
Bury, op, cit, 244.

الاختلافات المذهبية فى اقاليم دولة الروم:

ذلك أن هرقل خرج من الحروب الفارسية شديد الاعتداد بنفسه، يؤمن بأنه قدير على حل المشاكل المذهبية المزمنة التى بلغت ذروة تعقدها فى عهده، مثلما أزال نهائياً شبح الفرس الجاثم على إمبراطوريته منذ زمن بعيد. فأقبل بكليته بعد انتصاره فى الحروب الفارسية على إنهاء الخلافات المذهبية التى تفشت فى اقاليم دولته، دون أن يعير اهتماماً لسحابة صغيرة كانت تحوم فى الأفق الجنوبى لإمبراطوريته، وتوشك أن تزحف عليها وتغير رقعتها، على حين تحمل للعالم خيراً عميماً. تلك السحابة هى الدعوة الإسلامية فى بلاد العرب. ففى فترة الخمس سنوات التى أعقبت نهاية الحروب الفارسية وبداية الفتوحات الإسلامية فى الشام (٦٢٨-٦٣٢م) كانت سياسة هرقل الدينية تؤتى نتائج عكسية فى أقاليم دولته فى شرق البحر الأبيض المتوسط، وتمهد الطريق لتقدم الإسلام. ذلك أن جيوش المسلمين غدت بفضل الدين الإسلامى الذى شب وترعرع فى تلك الفترة، قوة مظفره تختلف فى مبناها وأهدافها عن قوات فارس الى عجمت دولة الروم عودها زمناً طويلا، ويعزى فشل هرقل فى حل المسألة المذهبية إلى أنها كانت أكثر تعقيداً مما تصور، ونتاجاً لتطورات أصولها بعيدة الغور امتزجت فيها المجادلات الدينية بالتنافس بين المراكز المسيحية الكبرى الأولى. وغدت أخيراً فى عهده قناعاً أخفى حركات قومية استهدفت الإنفصال عن جسم دولة الروم.

ففى الأيام الأولى للمسيحية كان مقر الكنائس الكبرى الرئيسية للعالم المسيحى فى عواصم البلاد الرومانية المطلة على البحر الأبيض المتوسط الشرقى، وهى روما والإسكندرية وأنطاكية. وكانت هناك أسقفيات فى البلاد الأخرى تتناسب مراكزها مع أهمية المدن التى توجد فيها(١). وكانت القاعدة المعترف بها فى تقديم الكنائس بعضها على بعض هو النظر فى قدر التديس الذى أسس تلك الكنيسة ومدى تمتعه بالشهرة. فادعت روما لنفسها الرئاسة لأن

---

(1) Runciman, op. cit. 109.

القديس بطرس مؤسس كنيستها، ونافستها الاسكندرية لأن القديس مرقس منشىء كنيستها، وهكذا. على أن ميدان التنافس لم يلبث أن شاهد دخول مبارز جديد هو مدينة القسطنطينية التى غدت العاصمة الجديدة لدولة الروم. فكان ظهور تلك العاصمة الجديدة وتطور أسقفيتها من التبعية لمدينة هرقلة إلى بطريقية قائمة بذاتها مدعاة لإعادة النظر فى ترتيب أقدار الكنائس المسيحية الأولى وبيان درجاتها.

واستطاعت القسطنطينية أن تحتل المركز التالى لروما معتمدة على مكانتها فى الدولة. غير أن عوامل الغيرة أخذت تعمل عملها ورفضت الإسكندرية الإعتراف بمركز القطسنطينية الناشئة(١).

ولم تلبث عوامل الغيرة الكامنة أن انفجرت واتخذت متنفساً لها فى الجدل الدينى الذى اضطربت به المسيحية منذ قرونها الأولى كذلك، إذ قامت بعض نظريات وأقوال حول العقيدة المسيحية أدت إلى اختلاف المسيحيين فى تصوراتهم للسيد المسيح. فقام قس من الإسكندرية إسمه أريوس ونادى بأن المسيح وإن اتصف بالألوهية فهو مخلوق بأمر الاله الأب وهو لذلك مرتبة منه(٢). وجاء ذلك القول مخالفاً للرأى السائد والذى نادى به قس آخر من الإسكندرية أيضاً أسمه أثناسيوس، وهو أن المسيح أزلى كأزلية الله، وأن جميع ما حوله من صفات كالجسد والجوهر أزليه كأزلية الله لاستمدادها من الأزلية العليا(٣). فهذان القولان هما مشكلة المسيحية الأولى فى القرن الرابع الميلادى. وجهدت المراكز المسيحية الأولى على جمع القساوسه ليحددوا أراءهم عن السيد المسيح. فانتهز الإمبراطور قسطنطين الكبير هذه الفرصة. وعول على أن يتدخل فى هذا الجدل كى يظهر بمظهر المهتم بشئون المسيحية، ويبين قدرته على توجيهها، معطياً بذلك لبطريقيه عاصمته عصا الزعامة الدينية.

(1) Ibid, 109.110.

(٢) فشر، تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (ترجمة الدكتور زيادة)، ص١٧، ١٨.

(3) Vasilev; op. cit. 169. Bury, op. cit. 187.

وكانت الآراء التى تصدرها تلك المجامع (مجمع Concilium) تعتبر عالمية (Catholicus)(١) والخروج عليها هرطقة وجريمة ضد الدولة.

فأى مجمع عام، وهو اجتماع برئاسة الإمبراطور، ويمثل فيه كل أفراد الكنيسة المسيحية، يعتبر هيئة تصدر قراراتها عن إلهام روحى، وتلزم المسيحيين جميعاً باتباعها، وفى مخالفتها هرطقة تعتبر رسمياً خروجاً على القوانين. ولذا كانت السلطات المدنية لا الكهنونية هى التى تقوم بالتدابير العقابية(٢).

وعقد أول مجمع مسكونى عام بدعوة من الإمبراطور قسطنطين الكبير سنة ٣٢٥م فى بلدة نيقية بالشاطىء الأسيوى قبالة القسطنطينية (موضعها الآن بلدة إسنك)، وكان يضم جميع أساقفة المسيحية الأولى. وقرر هذا المجمع أن أقوال أريوس والعقيدة الأريوسية فاسدة، وأن العقيدة الأثناسيوسية هى الصحيحة وأصدر قراراً هو المعروف باسم المذهب (النيقى) والذى قامت على أساسه الديانة الكاثوليكية(٣).

على أن هذا المجمع لم ينجح فى إفهام العقول، ولاسيما العقل اليونانى، عقيدة التجسد، ولذا تطور الجدل من جزئية المسيح أو كليته من حيث ألوهيته، إلى القول بالطبيعة المزدوجة للمسيح - بشرية وإلهه - وبالطبيعة الواحدة، أو المونوفيزيتية(٤).

وتولى إنعقاد المجامع لتقرير هذا الرأى أو ذاك، وكانت تصدر آراءها معضدة رأى الأسقف الذى يتمكن من إدارة دقة المناقشات، وهنا كانت المنافسات بين المراكز الكنسية تلعب دورها. فعندما جاهر أسقف القسطنطينية برايه فى

---

(1) Bury, op. cit. 148,185.

(2) Ronciman, op, cit, 114.

(3) Vasiliev, op, cit, 68. 69.

(4) Bury, op. cit.. 188-190.

فشر، نفس المرجع السابق. ص٥٥.

القول بأن للمسيح طبيعتين. استغل بطريق المجتمع الكنسى الثالث فى أفيسوس سنة ٤٣١م قراره ضد القسطنطينية. على أن القسطنطينية ثارت لنفسها واستردت مكانتها، حينما نادى بطريق الإسكندرية بالطبيعة الواحدة للمسيح فى المجتمع الكنسى الرابع فى خلقدونية ٤٥١م، إذ خشيت روما ازدياد نفوذ الإسكندرية وعارضت قول بطريقها وانضمت إليها القسطنطينية فزعاً من علو شأن الاسكندرية. واتخذ المجمع قراراً اعتبر المونوفيزيتية هرطقة، ورعاياها يجب عقابهم وتعذيبهم(١).

إن الآراء اللاهوتيه حول الطبيعة الواحدة للمسيح «المونوفيزيتية» والطبيعة المزدوجة للمسيح (التى أطلق على أتباعها فيما بعد اسم الملكانيين)(٢) بسيطة غير معقدة، ولكن الأسس السياسية التى قامت عليها تلك الآراء هى العامل المحرك للمجادلات فى المجامع الكنسية العامة، فتطور الأمر من مجرد تنافس بين مراكز المسيحية الأولى على السيادة، إلى ارتباط المشكلة المذهبية بالحركات القومية فى البلاد التابعة لدولة الروم واتكاء الأقاليم المختلفة على تلك الخلافات الدينية للانفصال والاستقلال. وفى الحقيقة ما دامت تلك الأقاليم تحس نحو الدولة بوجوب الانفصال عنها، لم يكن هناك أمل فى حل المشكلة المذهبية، سيما وأن الحلول التى حاول الأباطرة اتخاذها كانت ترمى من وراء حل المشكلة المذهبية إلى إخماد الحركات القومية، وإزالة العوامل المساعدة التى كانت تعضد تلك الحركات، وأهمها العامل الدينى. وكان هذا هو كنه الموقف عندما اتجه هرقل بعد انتهائه من الحروب الفارسية لحل المشكلة المذهبية، مؤملا أن ينجح فيما فشل أسلافه عله يكتب له الفوز كما نجح فى

(1) Baynes, The Byzantine Empire, 81.

(٢) كان المذهب الملكانى هو المذهب الرسمى لدولة الروم وربما تؤدى هذه الكلمة إلى كلمة ملك، وإن كان القلقشندى يذكر فى كتابه "صبح الأعشى" أن الاسم مشتق من اسم الإمبراطور مارقيان (من تفسير الدكتور مصطفى زيادة).

القضاء على خطر فارس. واستقر رأى هرقل على ما عرف باسم «صورة التوفيق»، وهى تقضى بأن يمتنـع النـاس عن الكلام عن كنه المسيح وطبيعته، وعما إذا كانت له صفة واحدة أو صفتان، ولكن عليهم أن يشهدوا أن له إرادة واحدة وقضاء واحداً. ويعرف مذهب هرقل باسم مذهب «التوحيد أو المونوثلما»(١).

واعتقد هرقل أن تلك الخطوة التى أقدم عليها كفيله بحل المسألة الدينية المزمنة، التى عانت منها دولة الروم كثيراً. ثم أن الأمل داعبه فى قبول رعاياه لمذهبه الجديد لأنه محاولة للتوفيق وفيه من الآراء والعقائد ما يقبله كل من الفريقين المختلفين. وأخذ هرقل يدعو إلى «مذهب التوحيد»، وبعث رسله إلى سائر أقطار دولته لتفهيم الناس حقيقة الوضع الدينى الجديد، وحثهم على قبوله لما فيه هناءهم وسلامتهم.

غير أن المذهب جاء بنتيجة على غير ما يهوى هرقل. إذ قال المعاصرون سواء من الملكانيين أو من أصحاب الطبيعة الواحدة (الذين أطلق عليهم أيضاً اسم اليعاقبة، نسبة إلى زعيمهم يعقوب براديوس) أن الإمبراطور ماأراد بهذا المذهب إلا ليضل الكثيرين، ورفض كل منهما التخلى عن مذهبه، واتباع مذهب ثالث يعدونه زيفاً وبهتاناً. واشتدت المعارضة لهذا المذهب. ولاسيما فى مصر، حيث لجأ قيرس Cyrus (المقوقس) المبعوث الإمبراطورى هناك لحل المسألة المذهبية، إلى العنف وجميع وسائل التعذيب لحمل الناس على إتباع المذهب الجديد. فاضطر البطريق القبطى المونوفيزيتى (بنيامين) إلى الهرب والقيام بحركة مقاومة سرية(٢). وكانت تلك خطوة خطيرة من جانب البطريق المونوفيزيتى، إذ كان مطران الاسكندرية الملك الفعلى للعاصمة والفرعون الروحى للبلاد. وممثل الشعب، كلمته فيهم نافذة كالقانون، وعندما يصيح بأفراد الشعب لأداء أمر مايهرعون لتلبيته دون تردد أو فتور، ملتفين حوله جميعاً، رهباناً وأهالى، زراقات ووحداناً. وهكذا أصبح قرار البطريـــق

---

(1) Vasiliev, op. cit. 293. 294.
Bury, op. cit. 250,151.

(2) Butler. The Arab Conquest of Egypt. 176, 177.

القبطى إيذاناً باندلاع حركة مقاومة قومية فى البلاد، وغدا القبط يتمنون زوال الإمبراطورية والإمبراطور صاحب المذهب الجديد(١). فى وقت كان الرسول محمد «صلى الله عليه وسلم» ينشر دعوته فى بلاد العرب، داعياً سكانها إلى الدين الإسلامى، واتباع سنته وتعاليمه، وجاهداً على خلق روح الوحدة والأخاء بينهم.

ظهور الإسلام:

كان من المنتظر وقد اندلعت الحركات القومية فى بلاد الروم نتيجة تعسف هرقل فى نشر مذهبه الدينى، أن تلقى تلك البلاد بنفسها فى أحضان أية قوة تكفل لها الخلاص من العنت المذهبى، والانفصال عن الدولة التى جرعتها كأس التعذيب والإرهاق. وكان ذلك حال مصر والشام. وما جاش فى نفوس أهاليهما من آمال. عندما تلقى الرسول (صلعم) الرسالة وأخذ يدعو سكان بلاد العرب إلى إتباع الدين الجديد. واستطاع النبى الكريم بفضل رسالته أن يخرج العرب من جاهليتهم، التى جعلت دولة الروم تنظر إليهم دائماً على أنهم جنس قليل الخطورة، متخبط فى نظمه الجاهلية، بما فيها من أحقاد وتراث وغارات وطعان(١).

وإذا كانت دولة الروم لم تعر الحركة الإسلامية، التى أخذت تصوغ العرب فى قالب جديد، أى اهتمام، فإن أصداء الحوادث الكبرى التى أمتلأت بها تلك الدولة تردد صداها فى بلاد العرب. فكانت تلك البلاد بفضل جريان الطريق التجارى من اليمن إلى فلسطين وسوريا ومصر، تقف على أخبار دولة الروم(٢) وما يضطرب به جوفهما من صخب مذهبى، أو إعداد لشن حرب على فارس، ويبدو أن مكة ويثرب كانتا محطتى تردد أصداء تلك الحوادث ورواية أخبارها، باعتبارهما من محطات القوافل الهامة على الطريق التجارى، وموطن عدد كبير من التجار اليهود والمسيحيين(٣).

---

(1) Vasiliev, op. cit. 269, 278.

(٢) يشير القرآن الكريم إلى هذه الرحلات فى سورة قريش:"لإيلف قريش إيلفهم رحلة الشتاءوالصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف".

(3) Vasiliev, op. cit. 269, 278.

وهكذا كان الوسط الذى بعث فيه الرسول «صلعم» ينبض بالحياة، وإن خاة سكان الأقاليم المحيطة به ساكناً. يتجاوب فيه الكثير من أخبار جيرانه، ولايعرف جيرانه عما كان يتردد فى جنباته إلا نذراً يسيراً. فكانت أنباء حروب الروم ضد فارس مثار اهتمام أنصار الدين الإسلامى الجديد ومعارضيه فى بلاد العرب، يتتبع كل منهما أخبارها معلقين عليها بما يعن لهم من الأقوال لتأييد دعواهم. ففى العقد الثانى من القرن السابع الميلادى عندما جهر النبى «الكريم» برسالته. وأخذ يدعو إليها، كانت الجيوش الفارسية تطوى الشام وأرض مصر، من أقاليم الروم، وتهدد القسطنطينية نفسها بالدمار. فكان أعداء النبى صلى الله عليه وسلم يهللون لتلك الانتصارات الفارسية، معلنين أن «النبى» سوف يلقى مصيراً مشابهاً للروم، لأنه مثلهم صاحب كتاب. وأن عبدة النار استطاعوا أن يذلوا أتباع مقدس. فكان المسلمون يدفعون عن أنفسهم تلك الناحية من حرب الأعصاب بالتذرع بالصبر والتشيع للروم وأنهم المظفرون عما قريب(١).

وإذا كانت أنباء حروب الروم مثار اهتمام المسلمين فى فجر حياتهم، فيبدو أنهم وقفوا كذلك بعد هزيمة فارس وعودة الشام إلى حظيرة الروم، على حوادث الإضطهاد التى رزحت تحتها تلك البلاد من جراء مذهب هرقل الجديد. فكان التجار العرب دائبين على اتصالهم بمصر والشام، ينقلون متاجرهما كما ينقلون أخبارهما(٢). ولذا فليس ثمة شك فى أن المسلمين وقفوا على تفاصيل الخلاف بين أنصار الطبيعة الواحدة (المونوفيزيتين) فى مصر والشام وبين أنصار الطبيعتين (الملكانيين) من أتباع دولة الروم صاحبة السيادة ومحاولة هرقل حمل هؤلاء أولئك على اتباع مذهبه الجديد. وكانت الدعوة الإسلامية حينئذ قد أخذ يفوح شذاها بالكتب التى بعثها الرسول «صعلم» إلــى

---

(١) سورة الروم "ألم. غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله".

(٢) تشير الروايات التاريخية إلى أن عمرو بن العاص فاتح مصر زارها زمن الجاهلية

هرقل والمقوقس وغيرهما من قادة العالم(١). فلم تقدر دولة الروم تلك الدعوة التى وصلتها، ولم تدرك ما انطوت عليه من عقيدة جديدة سوف تزلزل أركانها وتدخل فى ميدانها الأقاليم التى سادها المذهب المونوفيزيتى. ذلك أن دولة الروم رأت فى العقيدة الإسلامية بحضها على وحدانية الله ضرباً من العقيدة الأريوسية التى قرر مجمع نيقيه الأول اعتبارها هرطقة فاسدة(٢). كذلك لم تعر موطن العقيدة الإسلامية اهتماماً لأنها لم تتصور أن بلاد العرب سوف تصبح بفضل تلك العقيدة الجديدة وحدة لها خطرها ونفوذها.

وهكذا جرت الأحداث على غير ماتشتهى دولة الروم، فأدى النبى الكريم رسالته وهى فى غفلة من جهاده ليتم الله أمره. وخلف سكان بلاد العرب مسلمين مشربه قلوبهم بعقيدة، جوهرها وحدانية الله، جعلتهم اقرب إلى نفوس أتباع الطبيعة الواحدة المسيحيين(٣) من الروم قادة العالم المسيحى المعتنقين لمذهب الطبيعتين. فكانت العقيدة الإسلامية النور الذى أضاء للجيوش الإسلامية سبيلها فى بلاد المونوفيزيتين، ونزلت على سكانها برداً وسلاماً وسط جحيم اضطهاد الروم الملكانيين(٤). ولذا وقفت دولة الروم مأخوذة أمام تيار الفتوحات الإسلامية التى بدأت تنثال رويداً من المدينة ثم قلبت أوضاعها سريعاً رأساً على عقب.

---

(١) ابن هشام، السيرة، ج٣، ص٤١٨، ٤١٩.
المسعودى، التنبيه والإشراف، ص ٢٢٥.
Bury, op. cit. 61. 92

(2) Vasiliev, op. cit. 274.
Bury, op. cit. 260.

(٣) إن الإسلام بدفاعه عن عيسى عليه السلام وتنزيهه له كان من الأمور المحببه لدى المونوفيزيتين، ويدل على ذلك حادثة نجاشى الحبشة مع مسلمى الحجاز الذين هاجروا إلى بلاده.

(٤) البلاذرى، فتوح البلدان، من ص١٤٤، فقد روى عن أهالى حمص عبارة تصور شعور أهالى الشام حيال الفاتحين المسلمين "لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه

استيلاء المسلمين على الشام ومصر

فتح الشام:

يعتبر الرسول «صلعم» القائد الأعلى الذى رسم بنفسه الخطة التمهيدية التى حملت الجيوش العربية على الاستيلاء على الشام وتأسيس أول ركن فى دولة الإسلام خارج بلادهم الأصلية، على شواطىء البحر الأبيض المتوسط الشرقى، ذلك أن الرسول إلى جانب قيامه بتبليغ الدعوة الإسلامية إلى قادة العالم فى وقته، كان قائداً ماهراً يقظاً، لايغض الطرف عن أى مظهر عدوانى قد يحط من شأن دعوته أو يعمل على النيل منها. فلم يقف النبى ساكناً إزاء استشهاد رسوله الذى بعثه إلى أمير الغساسنة فى بصرى(١)، وإنما عول على أتباع دعوته السلمية إلى الإسلام فى الجهات التى لم ترع حرمة مبعوثه بالقيام بمشروعات حربية كانت بطبيعتها محدودة. فأتباع الرسول فى ذلك الوقت، وهى الفترة السابقة لفتح مكة، لم يكونوا قد وصلوا إلى الأعداد العديدة التى أصبح عليها المسلمون فيما بعد. ففى سنة ٦٢٩م/٨هـ أرسل النبى أحد قادته المقربين إليه وهو زيد بن حارثه على رأس حمله عددها ٣٠٠٠ رجل إلى الجهات الشمالية الغربية من بلاد العرب يدفعه إلى ذلك واجب الأخذ بالثأر من قتل من أتباعه على الحدود العربية الشامية(٢). وهناك عند مؤتة الواقعة على حدود البلقاء إلى الشرق من الطرف الجنوبى للبحر الميت التقى المسلمون بقوات الروم. وتمكن الروم من دحر القوات الإسلامية. ولقى قائدها زيد نفسه حتفه فى المعركة. على أن خالد بن الوليد الذى اعتنق الإسلام قبل تلك الواقعة بزمن قليل، لم شمل الفلول الإسلامية وعاد بها إلى المدينة(١).

---

(١) قتل شرحبيل بن عمرو الغسانى الحارث بن عمير الأزدى رسول النبى إلى صاحب بصرى، ويلاحظ فى هذا الصدد أنه لم يقتل للنبى رسول غيره. ويروى كذلك أن خمسين مسلماً لقوا حتفهم على حدود بلاد العرب المطلة على الشام.

(٢) ابن هشام، ج٣، ص٢١١، ٢١٥؛

المسعودى: التنبيه والإشراف، ص٢٢٠، ٢٢١.

ومهما تكن الخاتمة التى لقيتها تلك الحملة فإن نتائجها وآثارها كانت بعيدة المدى. فبينما رأى الروم فى تلك الحملة إغارة من الأغارات التى اعتاد البدو شنها للسلب والنهب، كانت حملة زيد فى الحقيقة إغارة من نوع جديد لم تقدر دولة الروم أهميتها، فهى إغارة منظمة قامت لتؤدى مهمة خاصة. وغدت هزيمتها وقتل قائدها الباعث الذى جعل المسلمين يتطلعون بأعين واسعة إلى الشام. كذلك أضحى تحرق المسلمين للأخذ بثأرهم القوة التى دفعت الأداة الحربية الإسلامية فى انطلاقها السريع تطوى أرض تلك البلاد. ففى العام التالى أى سنة ٦٢٠م/٩هـ قاد النبى بنفسه حملة إلى تبوك، كانت أشبة بمناورات حربية فى منطقة الحدود بين أراضى الروم وشبه جزيرة العرب. ذلك أن هذه الحملة لم تشتبك مع آية قوات للروم. وآثر النبى الاكتفاء بإظهار قوته فى تلك الجهات وعاد إلى المدينة (١).

وبذلك بقيت هزيمة مؤتة تجذب أنظار المسلمين صوب الشام. وفى سنة ٦٣٢م/١١هـ أعد النبى جيشاً بقيادة أسامة بن زيد، ابن القائد الذى لقى حتفه فى مؤتة، لمهاجمة الروم. غير أن النبى توفى فى نوفمبر سنة ٦٢٢م/ربيع الأول ١١هـ قبل تحرك ذلك الجيش(٢). فترك لخلفائه خطة واضحة المعالم، وولى وجوههم شطر قبلة عينها لهم. وهكذا وقف الرسول بثاقب نظره على أن أشد الأخطار التى يمكن أن تحل ببلاد العرب وتناوىء دعوته إنما موطنها الشام جيشالروم وعمالهم الغساسنة. وأثبتت أحداث الفتوحات الإسلامية فى أراضى دولة الروم صدق هذه الإشارة السالفة. فكان الروم أشد المحاربين عناداً. كما وقف جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة إلى جانبهم فى معركة اليرموك، أحسم الوقائع الحربية وأشدها حرجاً بين المسلمين والروم.

وعمل أبوبكر خليفة الرسول على تحقيق أهداف النبى والسير قدماً نحو إنجازها. ففى السنة التى توفى فيها الرسول (٦٢٢م) بعث أبوبكر أسامة

---

(١) ابن هشام، ص٣٢٨، ٣٣٨؛ المسعودى، نفس المرجع، ص٢٣٥.

(٢) ابن هشام، ٤٥٢، ٤٥٣.

على رأس الجيش الذى أعده النبى من قبل إلى شمال بلاد العرب. فغزا أسامه بلدة يبنى بين عصقلان ويافا الحالية ثم قفل راجعاً. ويبدو أن أبابكر أراد بالعمليات الحربية التى قامت بها الجيوش الإسلامية إذ ذاك أن يسبر غور الروم ويعجم عودهم، فكانت تعليماته لقواده ألا يتجاوزوا الأراضى من أطراف دولة الروم شمال بلاد العرب. ففى سنة ٦٣٢م/١٢هـ أوغل أحد قادة جيوشه وهو خالد بن سعيد فى بلاد الشام حتى اقترب من دمشق، مخالفاً ما لديه من تعليمات. فكانت مغبة هذه الجرأة وخيمة، إذ انهزم خالد وقفل راجعاً(١). وبذلك استطاع أبوبكر أن يدرس الموقف الحربى فى الشام. واقتنع بأن الضرورة الحربية تقتضى غزو بلاد الشام غزواً صحيحاً منظماً. وهذا بينما دولة الروم غارقة فى أحلامها القديمة بأن القوات العربية التى التقت بها ليست طلائع لموجه جارفه، إنما عصابات صغيرة تبغى السلب والنهب فى أراضيها.

أعد أبوبكر بعد انتهائه من حرب الردة الجيوش الإسلامية لشن هجوماً فى الجنوب الشرقى فى بلاد الشام، وعقد لواءها لأربعة قادة مشاهير، ابوعبيدة بن الجراح، عمرو بن العاص، يزيد بن أبى سفيان، شرحبيل بن حسنة، وكلف كل واحد منهم مهاجمة مقاطعة معينة من أقليم الشام(٢). وفى نفس الوقت أحتفظ أبوبكر بقوات خالد بن الوليد،إ ذلك القائد الموهوب، فى ميدان أهدأ نسبياً، وهو الميدان الشرقى فى أرض فارس، إلى حين تدعو الحاجة إليه. وكان أبوبكر صائباً فى رسم خططه، إذ سرعان ما دعت الحاجه إلى خالد بن الوليد وقواته(٣). فقد لقيت الجيوش الإسلامية جهداً ونصباً رغم ما أصابته من فوز فى أعمالها المتفرقة فى مقاطعات الشام. فكانت تلك المقاطعات منذ تعديل النظام الإدارى لدولة الروم فى عهد جستنيان العظيم، مناطق إدارية

(١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، ج٤، ص٣٠.

(٢) الطبرى: نفس المرجع، ج٤، ص٢٨، ٣٢. كانت الجهات التى عينها أبوبكر لقواده هى: ابوعبيدة بن الجراح ووجهته حمص ومركز القيادة فى الجابية، عمرو بن العاص ووجهته فلسطين، يزيد بن أبى سفيان ووجهته دمشق، شرحبيل بن حسنة ووجهته وادى الأردن

(3) Hell, op. cip. 49.

حربية، يتولى تصريف شئونها حكام يجمعون بين السلطة المدنية والأداة الحربية(١). وكانت ميزة هذا النظام الجديد جعل المناطق الإدارية وحدات قائمة بنفسها قادرة على رد أى عدوان يقع عليها، أو إنهاك مهاجمها حتى يأتيها المدد من جهات أخرى تجاورها. فلاقت الجيوش الإسلامية نصباً لتفرقة جهودها فى الجهات التى هاجمتها، ووقف تيار زحفها، على حين كان هرقل يسرع فى إعادة تنظيم جيشة القوى بعد حرب فارس. وجعل هرقل أخاه تيودور قائداً لهذا الجيش الذى بعثه إلى جنوب الشام لملاقاة الزحف الإسلامى الجديد الذى أخذت سحبه تتكاثف هناك. فاضطرت القيادة الإسلامية إلى تعديل خطتها لمواجهة الوضع الجديد، إذ رأى أبوبكر ضرورة توحيد الجيوش الإسلامية وحركتها تحت لواء واحد. فاستدعى خالد من الميدان الشرقى حيث أخضع الحيرة إذ ذاك ليتولى قيادة الجيوش الإسلامية فى الشام(٢).

وهكذا أثمرت خطة أبى بكر فى الاحتفاظ بخالد وقواته إلى وقت الحاجة تليها، كما برهن على أنه خير خلف للرسول فى وضع الشام فى المكان الأول من اهتمامه، وتقديره لضرورة الاستيلاء عليها. وسرعان ما وصل خالد إلى ميدان الشام بعد اجتيازه صحراء موحشه بطريقة فذة مازالت مثار الدهشة والتساؤل حتى الآن. وهناك انضم إلى القوات الإسلامية التى تولى القيادة العليا لها.

---

(١) يعزى إلى الإمبراطور جستنيان الفضل فى إعادة تنظيم إمبراطورية الروم من الناحية الإدارية، وتبعه خلفاؤه فى تحسين النظم التى وضعها. وكان هدف جستنيان هو تقوية جهات إمبراطوريته المعرضة لأخطار خارجية، أو التى تضطرم بالفتن والثورات، فاقتضى ذلك منح حكام تلك الجهات سلطات حربية إلى جانب المهام الإدارية التى اضطلعوا بها. وكانت فرق من الجيش موزعه فى هذه الأقاليم خاصعة لإشراف الحاكم العام الذى لقب باسم "استراتيجى" (Srategus). وتطور هذا النظام فى عهد الإمبراطور هرقل، وغدا ركناً هاماً فى حياة الإمبراطورية التى هددتها الأخطار الفارسية وغيرها. فكانت بلاد الشام وغيرها من أقاليم دولة الروم ولاسيما آسيا الصغرى مقسمة إلى أقاليم حربية من هذا النوع أطلق عليها اسم البنود (Themes) وهى تسمية مشتقة من كلمة (Thema) أى فرقة عسكرية.

(٢) الطبرى: نفس المرجع، ج٤، ص٣١.

وعندئذ بدأت الحملات النظامية فى الشام. فافتتح خالد سلسلة انتصاراته بحادث تاريخى يعتبر تحقيقاً لأمنية الرسول وبداية للسير قدماً بهذه الأمنية. إذا استولى على بصرى(١) (٦٢٤-١٢هـ) التى كان استشهاد رسول النبى إليها قطب الرحى الذى دارت عليه سياسة الرسول الحربية. وكذلك سياسة خليفته ابى بكر، إزاء بلاد الشام، ثم توالت انتصارات المسلمين الحربية فسقطت دمشق، عاصمة إقليم الشام، ومحط رحال القوافل العربية منذ قديم الزمن بعد حصار دام ستة أشهر(٦٣٥م/١٤هـ). ولم تجد جهود الإمبراطور هرقل للقيام بهجوم مضاد يشل حركة الجيوش الإسلامية المظفرة. إذ استطاع خالد بن الوليد أن يقضى على جيش الروم الذى وصل إلى جنوب الشام فى ٥٠٠ر٠٠٠ رجلا فى معركة اليرموك الحاسمة. وتجلى فى الخطة الحربية التى رسمها خالد للقضاء على هذا الجيش ما تحلى به من عبقرية فذة ومواهب ممتازة فى إدارة دفة الجيوش الإسلامية. فجمع حوالى ٢٥ر٠٠٠ من جند المسلمين فى وادى اليرموك(٢)، حيث عسكر الروم إلى الشمال من ذلك النهر. وفطن خالد إلى ضعف موقف الروم، إذ كان النهر يدور فى الشمال على شكل نصف دائرة تقريباً، بحيث يحتضن جنوبى القوس سهلا له باب واحد من الجنوب، بينما بقية مدخله مغلق بخندق طبيعى. فسد خالد المدخل الجنوبى، على حين دار خلف جيش الروم وألقى عليه حلقة محكمة من الحصار، ثم شن هجوماً مرعباً على ذلك الجيش الذى لقى هزيمة فادحة، وسقط معظم جند الروم قتلى فى قاع النهر، وغدت فلولهم أشتاتاً مبعثرة تهيم على وجوهها لاتدرى لها مقراً(٣).

وتعتبر معركة اليرموك من أشد المعارك وأحسمها فى التاريخ. إذ قررت مصير الشام أجمل أقاليم دولة الروم، والتى حق لهرقل أن يودعها قائلا: «عليك ياسورية السلام ونعم البلد هذا العدو»(٤). وتلك العبــارة التــى ودع

---

(١) البلاذرى، نفس المرجع، ص١١٩، الطبرى، نفس المرجع، ج٤، ص٣٥.

(٢) اليرموك: نهر صغير ينبع من مرتفعات حوران، وينساب فى خالق ضيق متعرج ويتصل بنهر الأردن على بعد ستة كيلو مترات ونصف جنوبى بحيرة طبرية.

(٣) محمد أحمد حسنوه، الجغرافيا التاريخية، ص٣٢، ٣٣.

(٤) البلاذرى، نفس المرجع، ص١٤٣.

بها هرقل أرض الشام تحمل معانى واسعة أوجزها قائد محنك، خاض كثيراً من الحروب بنفسه وحول تيارها دائماً إلى جانب دولته. فأدرك هرقل، وعبر عن ذلك فى عباراته الختامية، أن الشام المفتاح الذى يسهل للمسلمين ولوج أبواب جديدة والاستيلاء على أقطار شاسعة تجعلهم سادة إمبراطورية عالية. وأدرك المسلمون من ناحيتهم أهمية ذلك الإقليم الجليل الذى وضع النبى أولى الخطط للاستيلاء عليه، حيث قام خليفته خير قيام للنهوض بالتركة التى خلفها له الرسول هناك. ثم جاء خليفة أبى بكر وهو عمر بن الخطاب ليتم البناء، فبعث الجيوش إلى شمال الشام حيث وصلت إلى حدوده الطبيعية وهى جبال طوروس، ولقيت من أهالى المدن الشامية ترحيباً وتقديراً صورتها تلك العبارة التى رويت عن سكان حمص: «لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم»(١). كذلك حضر الخليفة عمر بنفسه ليتولى تسليم بيت المقدس التى حاصرها عمرو بن العاص سنة ٦٣٦م، والتى أبى بطريقها إلا أن يسلمها للخليفة نفسه. فكتب عمر لبطريقها صفرنيوس عهد أمان، وانتهز كذلك فرصة وجوده بالشام، فقام بتنظيم إدارته وتعديل قيادة الجيوش الإسلامية به، فقسم إقليم الشام إلى مقاطعات صارت تعرف باسم الأجناد لوجود فرق خاصة من الجند بكل منها تدافع عنها إذا ما داهمتها الأخطار. وكان هذا النظام تطبيقاً يتفق مع أصول التقسيمات الإدارية التى اتبعها الروم فى الشام أيام سيادتهم له، والذى عرف باسم «البنود»(٢) ثم قفل الخليفة عمر راجعاً إلى المدينة(٣).

على أن دولة الروم لم تكن لتترك المسلمين ينعمون بالاستقرار فى بلاد الشام، إذ داعبت الآمال هرقل على شن هجوم قوى يجلى به المسلمين عن الشام عله يعيد قصة انتصاراته على الفرس. وبدا أن الفوز حليف هرقل فى تلك المحاولة(٤)، إذ كانت القبائل العربية الضاربة فى أرض الجزيرة، قرب

(١) البلاذرى، نفس المرجع، ص١٤٤.

(٢) انظر الحاشية: رقم ٢، ص   من هذا الكتاب.

(٣) الطبرى، نفس المرجع، ج٤، ص١٥٨، ١٥٩.

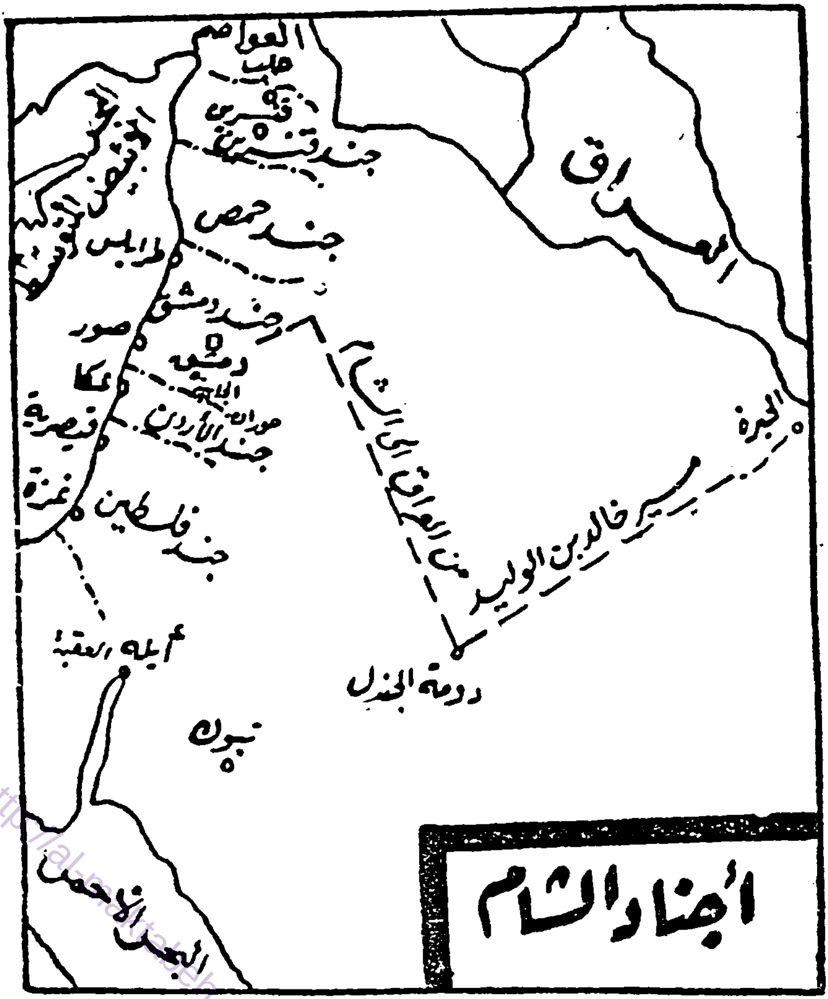
(4) Bury, op. cit. II. 298.

Sir Wiliam Muir, The Caliphate, its Rise Decline and Falb 140.

شمال الشام، لاتزال على ديناتها المسيحية وتمردها، تبغى القضاء على سلطان الجيوش الإسلامية التى استقرت فى العراق والشام، خشية أن يمتد إليها بأسها ونفوذها. فراسلت هرقل تطلب منه العون على مهاجمة المسلمين. وهنا يتضح أول خطر ملح هدد كيان المسلمين فى الشام بالزوال. فإلى ذلك الوقت كان المسلمون يلقون ترحيباً من أهالى البلاد حباً فى التخلص من الاضطهادات المذهبية التى قامت بها دولة الروم، كما كانوا عاملا فى تسهيل فتح البلاد للمسلمين. ولكن رأى هرقل فى تأليب القبائل العربية النصرانية فرصة مواتية كفيلة أن تزلزل أركان المسلمين بالشام. فراسل تلك القبائل وحضها على التجمع استعداداً لتلقى مدد يأتى إليها بحر، من مصر. وأقبل هرقل يعد الجيوش مرة أخرى بعد أن قضى سنة مستجماً بعيداً عن ميدان القتال فى الشام، وجدد عنده الأمل أن معظم ثغور الشام على البحر الأبيض لا زالت تقاوم المسلمين. كما أن البحر ما زال طريقاً مفتوحاً أمامه آمناً يمكن أن ينقل عبره قواته. وأبحرت جيوش الروم سنة ٦٣٨م من الاسكندرية بقيادة قسطنطين بن هرقل نفسه، مما يدل على الأهمية الكبرى التى علقها هرقل على تلك الحملة مرساها فى أنطاكية التى أستولى عليها الروم وانضمت إلى القبائل العربية المتمردة.

ولم يلبث أن ثارت أقاليم الشام الشمالية وألقى أبوعبيدة نفسه محصوراً فى حمص على حين يسير أعداؤه لمحاربته من البر والبحر. فكتب إلى الخليفة بالحجاز يستنجده، كما عقد مؤتمراً حربياً من القادة المسلمين للتشاور فى الوضع الحربى. وكان الأمر خطيراً والموقف حرجاً. إذ استقر رأى المؤتمر الحربى على إلتزام خطة التريث والدفاع، وعارض القادة لأول مره رأى خالد بن الوليد القائل بالمبادرة إلى مهاجمة العدو.

وفى نفس الوقت أمر الخليفة القعقاع، أحد قادة المسلمين فى العراق، أن يتوجه باسرع ما يمكن لمساعدة أبى عبيدة. على حين جمع النجدات من الحجاز وسار بنفسه على رأسها متجهاً إلى الشام. وكانت خطة المسلمين ترمى


أجناد الشام
العراق
العواصم
حلب
قنسرين
جند قنسرين
جند حمص
طرابلس
جند دمشق
صور
دمشق
عكا
قيسارية
جند الأردن
غزة
جند فلسطين
أيلة العقبة
تبوك
دومة الجندل
من العراق الى الشام
مسير خالد بن الوليد
الحيرة
البحر الأحمر

إلى إخراج القبائل المتمردة من دائرة جيش الروم وملاقاته على حده. فانطلق سهيل بن على وعبدالله بن عتبان للقيام بحركة إلتفاف حول أرض الجزيرة العربية ومهاجمة قبائلها. وكان لإسراع المسلمين فى إرسال النجدات وجدية حركاتهم اثراً فى إلقاء الرعب فى نفوس القبائل التى تخلت عن الروم، وقفلت راجعة إلى مضاربها مؤثرة السلامة(١). وكان نجاح هذا الشطر من خطة المسلمين بإخراج القبائل من نطاق الروم مدعاة للمبادرة باستئناف القتال. وأظهر الروم برغم شدة هجوم المسلمين بأساً وصلداً وكانا كفيلين بصد المسلمين لو أن القبائل العربية ظلت على تعضيدها ومساعدتها. على أن مقاومة الروم إنهارت قبل أن تصل إمدادات القعقاع ونجدات الخليفة. وانسحبت قوات الروم بحراً إلى الإسكندرية والقسطنطينية.

وبذلك ثبتت اقدام المسلمين فى الشام، وجنت جيوشهم المظفرة أولى ثمار جهودهم التى جاءت نتيجة اضطراب أحوال دولة الروم فى تلك البلاد. لكن خرج المسلمون من أحداث حروبهم فى الشام بدرس واسع المجال أفقهم الحربى، إذ أدركوا أن استقرارهم فى الشام الذى يعتبر حجز الزاوية لفتوحاتهم الجديدة رهن بالإستيلاء على مصر.

فتح مصر:

رأى المسلمون فى مقاومة الروم لهم فى الشام خطة منظمة، تعمل على عرقلة حركاتهم وتقويض دعائم سلطتهم فى تلك البلاد إذ سنحت الفرصة وجاءت حركة الإمبراطور هرقل الأخيرة حافزاً قوياً حمل قادة الجيش الإسلامى على أن يتدبروا موقفهم فى الشام على ضوء الحوادث والأمر الواقع. وينسب إلى عمرو بن العاص، قائد الميدان الجنوبى فى الشام، الفضل فى إدراك كنة الموقف الحربى، وبيان الدور الذى أسهمت به مصر فيما يعانيه المسلمون

---

(١) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج٢، ص٢٢٤.

من متاعب في الشام(١). فمصر كانت القاعدة التي انسحب إليها الأرطبون (Areteon) داهي الحرب في الشام(٢). فقد رأى هذا القائد أن الاحتفاظ بالشام أو الدفاع عنها مضيعة لقوى الروم ومهلكه لها، وأن الأجدى التجمع في منطقة آمنه يشن منها هجوماً مضاداً على القوات الإسلامية في الشام. وقد تقهقر هذا القائد بقواته من فلسطين دون أن يدفع عن بيت المقدس ودخل مصر.

ويظهر أن مفاوضة البطريق صفرنيوس للمسلمين وإصراره على حضور الخليفة عمر بنفسه للاستيلاء على بيت المقدس كان كسباً للوقت، ليتمكن قائد الروم من سحب جنوده من تلك المدينة والوصول إلى مصر آمناً. ولعل تلك الأحداث جرت على اتفاق سابق بين البطريق والأرطبون، كما يعمل لما فيه الصالح العام. الأول يحافظ على مدينته والآخر يدعى جنوده وقواته. ومهما يكن من الأمر ذلك فقد ظهرت أهمية مصر للمسلمين وخطر تجمع قوات الروم بها حين بعث هرقل حملته البحرية من الإسكندرية واستولت على أنطاكية، وكادت أن تزعزع الفتوحات الإسلامية بالشام، فما لاشك فيه أن قوة تلك الحملة وما بعثته في قلوب قادة المسلمين من فزع جعلهم لايغضون الطرف عن ذلك الإقليم الذي انبعثت منه الحملة، وأنهم إذا كانوا قد انتصروا على قوات الروم، فإنهم لم يأمنوا أن تتكرر تلك المحاولة ولايرغبون في بقائهم في حالة ترقب وخوف.

---

(١) لم تتناول المراجع الأصلية سواء عند العرب أو الروم الأسباب التي حملت المسلمين على فتح مصر بشيء من الإيضاح. ويستشف القارىء للروايات التي تداولتها تلك المراجع على أن فتح مصر جاء وليد مغامرة القائد عمرو بن العاص الذي رغب في إظهار مواهبه في هذا الميدان الجديد. ولكن المدقق في تمحيص الروايات العديدة يلمس أن الدور الذي لعبه عمرو - وإن كان هاماً - ليس الدافع الرئيسي أو الأهم على فتح مصر. فلا يقلل أن يعقل أن يقدم المسلمون وعلى رأسهم إذ ذاك خليفة حذر، لايندفع وراء أمور عارضة، وهو عمر بن الخطاب، على فتح مصر دون أسباب لها خطرها، مثل المذكور أكثرها في العرض المدون في هذا الفصل.

(٢) الطبري، نفس المرجع، ج٤، ص١٥٩. وقد تحدث الطبري عن الأرطبون قائلا: "كان الأرطبون أدهى الروم وأبعدها غورا وأنكلها فعالا، وقد وضع بالرملة جندا عظيما وبأيلياء جندا عظيما، وكتب عمرو إلى عمر بالخبر، فلما جاءه كتاب عمر قال: قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب" أنظر الطبري، ج٤، ص١٥٧.

وربما قوى تلك المخاوف عندهم أن البحر ما زال فى أيدى الروم تسير فيه سفنهم حاملة الجيوش لاسترداد الثغور البحرية التس استولى عليها المسلمون، وتمد الموانى التى لم تسقط بعد بالعدة والعتاد. فأنطاكية فتحت أبوابها بسرعة لقوات هرقل البحرية وغدت مركز الثورة ضد المسلمين فى الشام. وقيسارية فى الجنوب ظل عمرو يحاصرها بعد سقوط بيت المقدس دون أن يمسها بشىء لأبراجها المنيعه وأسوارها الحصينة وجانبها المطل على البحر الذى يلقى الامدادات. ومن الجلى أن أقرب قاعدة زودت قيسارية وغيرها من الموانىء هى مصر(١)، التى غدت محور ارتكاز القوات الحربية لدولة الروم فى حضو البحر الأبيض المتوسط الشرقى. فهذه الأسباب المباشرة هى التى حملت الخليفة عمر على عقد مؤتمر الجابية بعد استراداد شمال الشام لدراسة الموقف الحربى، واتخاذ الخطوات اللازمة لتأمين الفتوحات الإسلامية هناك. ولم يكن مستغرباً أن ينفرد القائد عمرو بإدارة المناقشات فى هذا المؤتمر مبيناً العراقيل التى تضعها مصر فى طريق فتوحات المسلمين فى الشام. فعمرو هو قائد المنطقة الجنوبية (أى فلسطين) الذى راى جيوش الروم تتجنب الاحتكاك بقواته وتنسحب إلى مصر؛ وأن مصر هى التى تبعث الإمدادات إلى الشام مما جعله يقف مكتوب الأيدى أمام قيسارية(٢).

ولابد أن هناك عوامل أخرى جعلت مؤتمر الحابية يقرر غزو مصر إلى جانب الأسباب السابقة التى لم تكن إلا حدثاً مباشراً جذب أنظار المسلمين إلى مصر. فالعرب منذ قديم الزمن يقدرون أهمية مصر مركزها فى دولة الروم. فهى المخزن الذى يمد الدولة بالغلال ويهىء لها رغداً من العيش.

---

(1) M.De Goeje, Memoire sur la conquete de la Syrie, 167;
Ameer Ali, A short history of the saracens, 40.

(٢) وكان عمرو بن العاص يعلم عناد الأرطبون ودأبه على الحرب منذ أن التقى معه فى حروب الشام. وكانت سياسة الأرطبون التأثير على روح عمرو المعنوية. فمن ذلك ما رواه الطبرى: "كتب أرطبون إلى عمرو بأنك صديقى ونظيرى أنت فى قومك مثلى فى قومى، والله لاتفتح من فلسطين شيئاً بعد إجنادين، فارجع ولا تغر فتلقى ما لقى الذين قبلك من الهزيمة". انظر الطبرى، ج٤، ص١٥٨.

والاستيلاء عليها كفيل بكسر شوكة مقاومة الروم وإزهاق دولتهم نفسها. وحرمانها من أهم الشرايين التى تبعث فيها ماء الحياة(١). كذلك من المحتمل أن قادة المسلمين، وقد اتسع أفق تفكيرهم الحربى نتيجة للحملات المنظمة التى قاموا بها، وأدركوا أن مصر ليست قاعدة يمكن أن تقضى على فتوحاتهم فى الشام فحسب، بل هى ذات مركز إستراتيجى يهىء له موقعه الجغرافى شن حملة أنتقاميه على بلاد العرب نفسها حين يفيق الروم إلى أنفسهم(٢). ولعل قادة ذلك المؤتمر الرومانى جايوس جالوس زمن الإمبراطور أكتافيوس، إذ ابحر هذا القائد من ميناء القلزم على البحر الأحمر على رأس حملة القت مرساها فى بلاد الحجاز، وتابعت السير لمواجهة الحميريين فى اليمن. فربما يكرر الروم هذا الدور ذد الحجاز، ذلك المنبع الذى أخذ يقلق راحتهم ويقض مضجعهم. وأخيراً رأوا فى الاستيلاء على مصر حرماناً لأسطول الروم من ايه قاعدة يستطيع أن يعمل منها ضد المسلمين سواء فى مياه البحر البيض المتوسط الشرقى قرب سواحل الشام أو فى مياه البحر الأحمر قبلة الحجاز(٣).

ولذلك كانت الدوافع التى حملت الخليفة عمر على أن يمنح عمراً فى مؤتمر الجابية الحربى سلطة فتح مصر أسباباً لها قيمتها الجوهرية، كما كان رأياً. ثاقباً جاء وليد البحث والاستقصاء، فضلا عن مواجهة متقضيات الظروف. فالمعروف عن الخليفة عمر ولاسيما فى تلك الحروب التى جرت فى

---

(1) Cambridge Medineval II, 349.

(2) Ibid, 349.

(٣) لا زالت مسألة فتح مصر تحتاج إلى دراسات تفصيلية. ويعتبر كتاب بتلر (فتح العرب لمصر) من الدرجة الأولى فى وصف سير الحملة الإسلامية ومناقشة حوادث سقوط المدن المصرية واحدة بعد الأخرى فى أيدى المسلمين. ولكن بتلر لم يناقش فى اسهاب الدوافع التى حملت المسلمين على توجيه اهتمامهم إلى مصر. فى هذه المرحلة المبكرة من فتوحاتهم. وكذلك مسألة خطاب الخليفة عمر إلى عمرو بن العاص وهو فى طريقه إلى فتح مصر تحتاج إلى مناقشة لايتسع المجال هنا لترديدها. وقد اكتفيت بسرد ما يمكن استخلاصه من الآراء مذكورة فى هذا الفصل.

عهده، حبه فى التأنى وكبح جماح السرعة الحربية التى جرت على عجلة الحروب، وعدم تعريض قواته للخطر، ودأبه على العمل على سلامتها وتأمين مراكزها قبل أية مغامرة جديدة. ولذا كان إرسال الخليفة عمر الجيوش لفتح مصر وليد إلحاح ضرورة حربية استدعت تأمين قواته وفتوحاته فى الشام. وهذا يحملنا على النظر فى أمر الخطاب الذى قيل إن الخليفة عمر أرسله إلى قائده عمرو وهو فى طريقه لفتح مصر، إذ ما تذكره الروايات عن مضمون هذا الكتاب وهو حمل عمرو على العودة إن لم يكن قد بلغ أرض مصر، أو السير قدماً فى وجهته إن هو دخل أرضها حين استلامه الكتاب. فهذا قول لاتشجع الحوادث أو كياسة الخليفة عمر على التسليم به على علاته. أضف إلى ذلك أن مثل تلك الخطوة كفيلة - إذا قفل عمرو راجعاً دون فتح مصر - بأن تحط من هيبة القوات الإسلامية التى ملأت انتصاراتها الآفاق، وأن تظهر المسلمين بمظهر أناس يرتجلون خططهم، وهذا ما لا تؤيده حوادث حروبهم. وعلى الجملة فإن وقوع الاختيار على عمرو، الخبير بشئون مصر ومسالكها لمتاجرته فيها زمن الجاهلية، دليل قاطع على أن الحملة التى وجهت لفتح مصر سارت لتحقيق هدف خاص هام لايخالطه التردد أو الريب.

وقصة فتح عمرو لمصر تدل على أن اضطراب أحوال دولة الروم كان السبب الرئيسى فى ضياع ذلك الإقليم، فجيوش الروم كانت عديدة وقوية فى مصر، وفى استطاعتها صد قوات عمر الضنيلة. غير أن قيادة تلك الجيوش كانت مفككة، ولارابط بين قوادها أو تعاون(١).كذلك أضحى هرقل رجلاً مسناً أخذ الضعف يدب فى أوصاله، وبرغم محاولاته المتكررة لصد العرب، وتكليف أبنائه وأقاربه قيادة الجيوش للقيام بذلك الغرض، وفشل فى صد تيار عمرو الجارف. وأخذ هذا القائد المسلم يجنى فى مصر ثمار سياسة الاضطهاد الدينى

(1) Vasiliev, op. cit, 277,, 278.

J. Maspero, Organisation Militaire de l'Bgypte Byzantione.

انظر الباب الرابع من هذا الكتاب الذى وضعه ماسبيرو لتوضيح الإشارة السالفة، من ص ١١٤ إلى ١٣٢.

التى اتبعهتا سلطات الروم هناك، فاستولى عمرو على الفرما (٦٤٠/١٩هـ) الذى جعله سيد مصر الوسطى والدلتا. واتجه عمرو بعد ذلك إلى الإسكندرية التى كانت العاصمة إذ ذاك، فاستولى على نيقيوس فى الطريق إليها، ثم ألقى الحصار على الإسكندرية التى كان بها قوة تبلغ ٥٠,٠٠٠ رجل ويشد أزرها أسطول الروم. وحاول هرقل أن ينقذ تلك المدينة، فأخذ يعد العدة لذلك، وصمم على أن يخرج بنفسه على رأس الجيش الذاهب إلى الإسكندرية. على أن مجهودات هرقل كانت كصحوة الموت، إذ لم يلبث أن توفى فى فبراير سنة ٦٤١م قبل سقوط الإسكندرية التى أستولى عليها المسلمون فى سبتمبر سنة (٦٤٢/٢١هـ)(١). وبذلك غدا المسلمون سادة مصر إلى جانب سيادتهم للشام، وأضحوا يتطلعون إلى البحر الأبيض المتوسط الشرقى الذى امتدت سواحل ممتلكاتهم عليه. يعملون على دفع غائلة الروم وإقصاء سلطانهم عنه.

وتجلى إهتمام المسلمين فى المحافظة على هذين القطرين الهامين فى اتجاههم منذ زمن مبكر إلى العناية بالشئون البحرية. فأقبلوا أولا على تحصين سواحلهما المطلة على البحر الأبيض المتوسط وتقويتها بالحاميات الدائمة (الرباط)، التى كان يختار أفرادها دائماً من أولى البأس والقوة. ثم لم يلبث المسلمون أن أنشأوا السفن الحربية وغدت أساطيلهم تمخر عباب المياه، تصد أساطيل الروم، وتوقع بها الهزائم قبل أن تقترب من الشواطىء الإسلامية(٢).

---

(١) ابن عبدالحكم، فتوح مصر، ص٥٨، ٧٢؛ السيوطى، حسن المحاضرة، ج١، ص٥٢.
Butler, op. 295, 300.

(٢) العدوى، الأساطيل العربية، ص٧.

التنافس بين المسلمين والروم
فى البحر الأبيض المتوسط الشرقى

فشل الروم فى استعادة مصر والشام:

كانت السنوات الأخيرة من عهد هرقل فترة اضطراب ومتناقضات فى دولة الروم. فذلك الإمبراطور الذى قضى زهرة حياته فى إعادة النظام والسلام إلى الدولة، وقضى على عدوها اللدود دولة الفرس العتيدة، شاهد فى السنوات الختامية من حياته اقتطاع الشام ومصر من إمبراطوريته مرة أخرى. كذلك لم ينعم طويلا بالاحتفالات التى حضرها فى الشام لإعادة صليب الصلبوت إلى بيت المقدس بعد استرداده من الفرس. والظاهر أن طاقة هرقل الجسمانية ضعفت الدرجة أقعدته عن تولى قيادة جيوش الروم بنفسه لمقاتلة القوات الإسلامية. فكان يعهد إلى أولاده والأخصاء من أقاربه قيادة الجيوش، غير أن الفوضى شملت أرجاء بلاط الروم وقتئذ. وقنع هرقل ذلك الإمبراطور المعتد برأيه أن يسلم بمطالب زوجته مارتينا الجميلة الطموح. فترك وصية تنص على أن يتولى شئون الدولة من بعده إبنه الأكبر قسطنطين ويشاركه هيرقلوناس بن مارتينا وزوجته مارتينا كذلك(١). ولذا كان بلاط الروم فى الأيام الأخيرة من عهد هرقل، ولاسيما إبان توغل الجيوش الإسلامية فى أرض مصر، مسرحاً للدس والمؤامرات، تقودها الإمبراطورة مراتينا بغية تهيئة الجو لأنفرادها ومعها ابنها بالحكم فانقسم قواد الروم شيعاً كل يؤيد حزباً من الأحزاب، كما عزل البعض منهم أو أطلق سراح الآخرين حسبما تهوى السلطات العليا فى القسطنطينية (٢).

وانعكست صورة هذه الفوضى التى سادت العسكريين فى تفكك قيادة جيوش الروم المدافعة عن مصر، وغدا الاستبسال فى الدفاع عن البلاد المصرية ضد الجيوش الإسلامية الغازية حركات فردية يقوم بها هذا القائد أو ذاك. فمن

---

(1) Bury, op. cit, 282.

(2) Bury, op cit, 283.

قواد الروم الذين قاوموا الجيوش الإسلامية مقاومة عنيفة القائد مانويل الذى صمد لحصار عمرو بن العاص للإسكندرية، كاد يبعث الضجر فى نفوس المحاصرين العرب. ولكن ما أن توفى هرقل حتى عم الاضطراب فى القسطنطينية، ويأس مانويل من وصول إمدادات تشد أزره فى الدفاع عن الإسكندرية وانسحب منها بحراً. وكانت مارتينا صاحبة النفوذ الأعلى إذ ذاك فى دولة الروم قد منحت قيرس (المقوقس) سلطة مقاومة العرب فى مصر(١).

على أن هيمنة مارتينا على شئون الدولة لم تطل كثيراً، إذ توفى قسطنطين الإبن الأكبر لهرقل، وسرت الإشاعات أن مارتينا هى التى سبب وفاته، وتمحض شعور الإستياء عن إقصاء مارتينا وإبنها عن الحكم وتولية إبن قسطنطين المتوفى وهو قنسطانز الثانى (ConstanasII)(٢) وفى عهد هذا الإمبراطور أخذت دولة الروم تعدل سياسيتها لمواجهة الحالة التى خلقها العرب لهم فى البحر البيض المتوسط الشرقى. فعمل قنسطانز أولا على استرداد مصر والشام من المسلمين معتمداً على قوته البحرية وأرسل فى نهاية سنة ٦٤٥م/٢٥هـ ثلثمائة سفينة تحمل العدة والعتاد لاسترداد مصر. وكانت تلك الحملة تحت قيادة مانويل، ذلك القائد الذى دافع عن الإسكندرية فى حصارها الأول دفاعاً مجيداً. وجاءت الحملة مفاجأة للسلمين فى مصر، حيث سلمت الإسكندرية سريعاً واتخذها مانويل قاعدة للتوغل فى الأراضى(٣). وتقدمت جيوش الروم فعلا حتى كادت تقترب من حصن بابليون. واضطربت القيادة العليا فى الحجاز من أنباء هذه الحملة مما حملها إلى إيفاد عمرو بن العاص فاتح مصر، ليصد عدوان الروم، فكانت إعادة الخليفة عثمان قيادة الجيوش فى مصر إلى عمرو بن العاص عملا هاماً وخطوة موفقة. إذ التقى فاتح مصر

(1) Bury, op. cit, 271, 288.

Butler. op. cit 304. 319, 320.

(2) Bury, op. cit. II, 248, 285, 286.

(٣) ابن عبدالحكم: نفس المرجع، ص١٥٧،

Bury, op. cit, II, 288.

الأول والخبير بشئونها بالقائد مانويل العنيد الذى أراد أن يعيد مجد دولته فى مصر. ورغماً عن استماته مانويل فى الحروب فإنه لقى هزيمة عند نيقيوس وعاد إلى الإسكندرية حيث تحصن بها ونصب المجانيق على أسوارها(١)

وهناك وقف عمرو، الذى تابع انتصاراته، مشدوها مرة أخرى أمام أسوار الإسكندرية، وفاض به الحنق لوقوفها فى وجهه، وأقسم لئن استولى على المدينة ليهدم أسوارها ويجعلها كبيت الزانية يؤتى من كل مكان(٢). وذهبت مجهودات مانويل فى التحصن داخل الإسكندرية أدراج الرياح، إذ تمكن عمرو من دخول المدينة فى أوائل سنة ٦٤٦م عن طريق استمالة أخذ حراسها وأعمل الذبح والتقتيل فى حامية الروم التى خر قائدها مانويل نفسه قتيلا فى الميدان(٣).

وكانت حملة مانويل على مصر شعبة لحركة مزدوجة، اتجه طرفها الآخر براً فى نفس تلك الفترة (حوالى عام ٦٤٦م) لمهاجمة الشام. على أن هذه الحملة الأخيرة منيت بدورها بهزيمة فادحة على يد معاوية والى الشام(٤)، الذى أتم بذلك القضاء على مشروع قنسطانز لمحاولة إعادة سلطان الروم فى مصر والشام. وغدا المسلمون سادة أهم شواطىء البحر الأبيض المتوسط الشرقى، ورأوا أن تدعيم تلك السيادة يستلزم إنشاء الأساطيل لرد أى عدوان تشنه دولة الروم. وكان اتجاه المسلمين لركوب البحر مشكلة اضطروا لمواجهتها بعد تلك الإغارات البحرية المتكررة التى شنها الروم على فتوحاتهم الجديدة. وبرهن العرب على حسن إدارة مصر والشام واستخدام أهاليهما فى سياستهم البحرية، حتى غدا لهم أسطول كانت مصر نفسها عموده وعصب حياته.

---

(١) ابن عبدالحكم، نفس المرجع، ص٣٥٨؛ أبوالمحاسن، النجوم الزاهرة، ج١، ص٦٥،٦٦.

(٢) المقريزى: الواعظ، ج١، ص١٦٧.

(٣) المقريزى، نفس المرجع، ج١، ص١٦٧.

(4) Bury, op. cit. II, 288.

إعادة تنظيم إمبراطورية الروم فى القرن السابع الميلادى:

وسار النصر فى ركاب الأسطول الإسلامى منذ بدأ حركاته الأولى ضد الروم فى مياه البحر الأبيض المتوسط الشرقى(١). فاستهل المسلمون نشاطهم البحر بالإستيلاء على قبرص (٦٤٩م/٢٨هـ) لحماية شواطىء الشام وتأمينها من إغارات الروم(٢). كذلك أحرز الأسطول الإسلامى نصراً فى مياه البحر الأبيض المتوسط الشرقى. ففى سنة (٦٥٥م/٣٤هـ) أبحر الإمبراطور قنسطانز على رأس عمارة بحرية كبيرة لعرقلة الإستعدادات البحرية التى كان المسلمون يعدونها فى موانىء الشام لشن إغارة على القسطنطينية. وأسفرت المعركة البحرية التى نشبت عند فوينكس (Phoeniz) قرب شواطىء ليكيا - بآسيا الصغرى - عن انتصار المسلمين واندحار الروم الذين كاد إمبراطورهم نفسه يقع أسيراً فى قبضة المسلمين(٣).

وتعتبر تلك الواقعة البحرية التى يسميها المؤرخون العرب معركة ذات الصوارى، لكثرة صوارى السفن التى اشتبكت فى القتال، حداً فاصلا فى سياسة الروم إزاء المسلمين. فقد أفاق الإمبراطور قنسطانز بعدها إلى نفسه، وأدرك أن إعداد أية حملات برية أو بحرية لاسترداد مصر أو الشام مجهود فاشل ضائع ومحاولات فات أوانها. ورأى من الأجدى أن ينظم دولته وسياستها على أساس الأمر الواقع للاحتفاظ بالبقية الباقية من ممتلكاتها، ويقوى أداتها الحربية لصد هجوم المسلمين الذى يتطلع إلى القسطنطينية نفسها. وكان هذا الاتجاه سليماً دل على حصافة رأى الإمبراطور قنسطانز. واستطاع خلفاؤه على ضوء هذه السياسة أن يوقفوا تيار الفتوحات الإسلامية عند أطراف آسيا الصغرى الجنوبية. ومما ساعد أباطرة الروم على الدفاع عن كيانهم أن الفتوحات الإسلامية حملت لدولتهم نتائج حسنة جاءت عن غير قصد. ذلك أن سقوط

---

(1) Vasiliev, op. cit. 281.

(٢) ابن الأثير، نفس المرجع، ج٣، ص٤٠. لم يكن احتلال المسلمين لقبرص دائماً وإنما إلى الأخذ والرد على هذه الجزيرة بين المسلمين والروم.

(٣) ابن عبدالحكم، نفس المرجع، ص١٩٠، ١٩١.

مصر والشام فى أيدى المسلمين اقتطع رقعة أقلقت دولة الروم كثيراً وأجهدتها زمناً طويلا وصرفت إهتمام أباطرتها إلى ميدان لاطائل من ورائه، وهو محاولة حل المشكلة المذهبية. وغدت أراضى الروم باستثناء بعض الجهات التى ظلت تابعة للدولة، فى شمال إفريقية وإيطاليا، وحدة يسودها سكان إغريق يتكلمون لغة واحدة ويدينون بعقيدة واحدة ومذهب واحد، ويكونون كتلة متماسكة موالية للإمبراطور. فأضحت بذلك المشاكل التى تواجهها دولة الروم كثيرا وأجهدتها زمنا طويلا وصرفت اهتمام أباطرتها الي ميدان لاطائل من ورائه، وهو محاولة حل المشكلة المذهبية وغدت اراضي الروم باستثناء بعض الجهات التي ظلت تابعة للدولة، فى شمال أفريقيا وإيطاليا ،وحدة يسوها سكان اغريق يتكلمون لغةواحدة ويدينون يعقيدة ومذهب واحد، ويكونون كتلة متماسكة موالية للإمبراطور. فأضحت بذلك المشاكل التي تواجهها دولة الروم محددة بسيطة . وصح لاحد المورخين القول بأن الفتوحات الاسلاميه خففت الاعباء الثقيلة التي ناءت بها دولة الروم ،تركتها تجتاز فترة نقاهة تسترد فيها قوتها.

ويلاحظ أن المسلمين لم يتمكنوا من السير قدما للاستفادة من نتائج النصر الذي أحرزه في موقعه ذات الصواري. اذتلا هذه المعركة مقتل عثمان بن عفان (٦٥٦/٣٥هـ) ومن ثم بدأت فترة نزاع حول الخلافة بين علي بن ابي طالب وبين غيره من الطامعين فيها وأبرزها معاويه بن أبي سفيان فانتهز الامبراطور قنسطانز فترة الهدوء التي سادت العلاقات الحربية بين دولته والمسلمين وعول علي تدعيم إمبراطوريته. ورأي ان ينقل مقر حكمه من القسطنطينية الي صقلية حيث يستطيع من هذا المقر الذييربط دولة الروم بالبقية الباقية لها في شمال أفريقيا، أن يصد الزحف الاسلامي المتدفق منن مصر عن هذه البقية ويحفظ ممتلكاته في الغرب. لكن قنسطانز اغتيل في سيراكوز (٦٨٨م) وقبر معه مشروع تقويه الجبهة الغربية من الامبراطورية.

الأمويون والقسطنطينية:

وبينما هذه الأحداث تجري في إمبراطوريه الروم انتهت الاضطرابات الداخلية التي جرت في الدولة الإسلامية بعد مقتل الخليفة عثمان باستتاب الأمر لمعاويه بن أبي سفيان والي الشام سنة ٦٦١/٤١هـ وبذلك دبت الحياة مرة أخري في حركه الفتوحات الإسلامية، إذ تطلع معاوية - أول الخلفاء الامويين - إلي اكماله السياسة الحربية التي بدأها الخلفاء الراشدون من المدينة. فاندفعت العجلة الحربية الاسلامية تطوي أراضي الروم في شمال افريقيا حتي وصلت في النهاية - في عهد خلفائه - إلي المحيط الأطلنطي علي أن معاوية تطلع الي تحقيق تلك الرغبة التي جاشت في نفسه أيام أن كان واليا علي الشام ،هي الاستيلاء علي القسطنطينية. فالآن وهو خليفة، أصبح طليق اليد في اعداد العدة للاستيلاء علي عاصمة الروم وتتويج الفتوحات الاسلامية - التي طوت المدائن من قبل - بهذه العاصمة الجديدة. وشجع معاوية علي الاقدام علي تلك المحاولة الجريئة اعتلاء الامخبراطور قسطنطين الرابر(٦٦٨-٦٨٥م) الصغير السن عرش دولة الروم بعيد مقتل أبيه قنسطانز الثاني.

اتجهت الحملة الإسلامية، التي أعدها معاوية، شطر القسطنطينية في نهاية سنة ٦٧٢م، واشتبكت في عمليات حربية مع أساطيل الروم في مياه القسطنطينية مدي سبع سنوات (٦٧٤ - ٦٨٠/٥٤ - ٦٠هـ). علي أن تلك الفتره كلها لم تكن مسرحا لحروب متصلة. فكانت خطة المسلمين قضاء الشتاء في جزيرة كيزيكوس (وهي أرواد في المراجع العربية)، وفي الربيع يحاصرون القسطنطينية برا وبحرا حتي يقبل الخريف فيعودون ادراجهم الي مقرهم الشتوي في كيزيكوس. وظل المسلمون يجاهدون علي هذا المنوال دون أن تتمكن أساطيلهم أوجيوشهم من الاستيلاء علي المدينة. فالقسطنطينية لم تكن اذ ذاك مدينة شبيهة بتلك المدن التي أخذها المسلمون عنوه في الشام ، وانما كانت عاصمة لاقليم اداري حربي (وهي مايسمى Theme) يستطيع أن

يصمد لاى هجوم برى بحرى ، اذ به مؤنة وزاده ، وتأتي إليه الإمدادات بحرا من المناطق المجاورة له. واستخدم الروم للمرة الأولي إبان ذلك الحصار ضربا من الفنون الحربية، عرقل حركات الأساطيل والجيوش الاسلامية. وذلك أن الروم استخدموا جندهم غير النظامي الذي كان يقيم في مرتفعات جبال جطوروس وبصفة خاصة في حصون اللكام (Amauns) في القيام بهجوم مضاد علي بلاد الشام نفسها. ذلك ان بلاد الشام غدت بعد سقوطها في أيدي المسلمين القاعدة التي اجتمعت فيها القوات البرية والأساطيل الاسلامية لشن اغاراتها أوالقيام بحملاتها ضد دولة الروم. وكان هدف الروم شطر أجناد الشام البرية عن الاجناد الساحلية .ومنع التعاون بينهم وشل جركاتهما. وكان أولنك الجند الذين اضطلعوا بهذا الهجوم ضد المسلمين عنصرا متمردا عنيدا يحيا حياة شبه مستقلة ملوءها المغامرة. فأدوا الي سادتهم خدمات شبيهة بأعمال فرق الموت أو الصاعقة.

وكان من عادة أولنك الجند حمل قضبان حديدية جعلت الروم يلقبونهم باسم (Apoblitoi) علي انهم اشتهروا بالاسم الذي اطلقه عليهم العرب وهو المردة ، أي الثوار الخارجون علي القانون ، اذ أنهم أبو الاذغان للمسلمين وتراجعوا امام تقدم الجيوش الاسلامية - زمن الفتوحات الاولي - واستقروا في جبال طوروس تابعين للروم.

ولكن معاوية قضي علي حركات المردة ، واستطاع أسطوله محاصرة القسطنطينية حصارا قاسيا. برغم النار البحرية التي اخترعها الروم في أحداث ذلك الحصار واستخدمها ضد المسلمين. ولم يلجأ معاويه إلي رفع الحصار إلا حين أحس دنو أجله. وأن الحكمة تقتضي وجود القوات الحربية للمحافظة علي سلامة البيت الأموي خشية الفوضي والاضطراب.

وبعد عودة القوات الاسلامية من حصارها للقسطنطينية ، تحققت مخاوف معاوية، إذ توفي بعد ذلك بقليل سنة (٦٨٠م/٦٠هـ)، تاركا الدولة الاسلامية تجتاز مرحلة أخرى من الاضطراب الداخلى والنزاع على الخلافة

نفسها بين أبنائه وبين كبار رجالات الدولة الاسلامية اذ ذاك . فقد ظلت الخلافة الأمويه منذ عهد يزيد بن معاوية إلي أيام عبدالملك بن مروان (٦٨-٦٩٢م/٦-٧٢هـ) في شغل بالقضاء علي المطالبين بالخلافة، الذين كان الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير من بعده أبرز رجالاتهم . فكانت تلك فترة ثمينة هيات لدولة الروم السكينة التنعم بثمار انتصارها في الدفاع عن عاصمتها القسطنطينية.

ومكنت حالة القلاقل التي سادت الدولة الاسلامية الامبراطور قنسطنطين الرابع من شن إغارات علي الشام نفسها، قام بها أولئك المردة مكان اللكام في شمال الشام. وبقي خطر المردة أو الجراجمة، كما سموا أحيانا، جاثما حتي أيام الخليفة (٦٨٥-٧٠٥م/٦٥-٨٦هـ). فقد عقد هذا الخليفة مع امبراطور الروم جستنتان الثاني (٦٨٥-٦٩٥م) معاهدة من شروطها وقف خطر الجراحمة ونقل غالبيتهم الي بعض جهات امبراطوريته الفقيرة في سكانها، مثل رومانيا وتراقيا. وبذلك حطم جستنتان هذا (الحائط النحاسي) علي حد قول أحد المؤرخين، والذي كان سدا منيعا عرقل تيار الفتوحات الاسلامية عن التوغل في آسيا الصغري.

علي أن الدولة الاسلامية لم تكن تخلت بعد عن مطمحها في الاستيلاء علي القسطنطينية، اذاشتدت الحركة الذاتية في الفتوحات الاسلامية الثانية في عهد بن الملك (٧٠٥-٧١٥م/٨٦-٩٦هـ). وأخذ هذا الخليفة الذي اقترن عهده بفتوحات واسعه يعد العدة لمهاجمة القسطنطينية. وإذا كان الوليد قد توفي قبل خروج الحملة إلى القسطنطينية فقد كلأ خليفه سليمان (٧١٥-٧١٧/٩٦-٩٩هـ) المشروع بعناية وحماسة جعلته يعتقد أنه سليمان الذي قالت النبوءات عنه فاتح القسطنطينية.

وتجلت حماسة الخليفة، والدولة الإسلامية من ورائه، في اعداد جيشص واسطول عظيمين، واعطاء مسلمه أخي الخليفة نفسه القيادة العليا لهذه الحملة. وفي ١٥ أغسطس منه ٧١٧م/٩٨هـ وقفت الجيوش البرية أمام

أسطول القسطنطينية علي حين وصل الاسطول الاسلامي بقيادة أمير البحر سليمان الي مياه القسطنطينية في أول سبتمبر سنه ٧١٧م /٩٩هـ

كان إتمام حصار القسطنطينية وضمان الاستيلاء عليها رهنا بنجاح الأسطول الاسلامي في التعاون مع القوات البرية في اكمال الحصار وفرض حلقة منيعه من البحر. ولذا كان أول هدف أمام البحر الاسلامي هو قطع المواصلات البحريه بين القسطنطينية وبين البحر الاسلامي وبينها وبين بحر مرمره وبحر اتجه جنوبا. ولكن عندما انتهز فرصه هبوب رياح مواتيه وبعث قسما من اسطوله لاحتلال مدخل البحر الأسود وقعت كارثه قلبت الخطط الاسلامية رأسا علي عقب، اذ كانت هذه المنطقة صعبه الملاحة بسبب انحدار تيار مائي من البحر الاسود عبر البسفور الي بحر مرمرة، وفضلاعن ذلك لانستطيع السفن الصاعدة ضد الاتيار الاعتماد علي تسخير الرياح فيجانبها زمنا طويلا. وهذا ماحدث للسفن الاسلامية من جراء التيارات المائية ، ثم لم تلبث الرياح أن غيرت اتجاها، فوقع الاضطراب بين السفن التي ارتطمت ببعضها البعض وفقدت توازنها. وفي هذه الاثناء بعث الروم سفنا محملة بالنار الاغريقية أتمت حلقة الاضطراب في الاسطول الاسلامي وقضت علي خطة أمير البحر سليمان وينسب الفضل في حسن الدفاع عن عاصمة الروم الي أحد أباطرتها وهو ليو الثالث الذي تولي العرش في هذه الظروف الحرجة وأنقذ الدولة في الوقت المناسب ولم يلبث الشتاء أن دهم المسلمين المحاصرين للقسطنطينية ، فعانوا من ذلك كثيرا الي جانب ركود حركاتهم الحربية.

وبمطلع الربيع تجدد الأمل عند المسيلمين ، اذوصلتهم وحدات بحرية جديجدة من مصر وشمال افريقيا. ولكن هذه السفن بدورها لم تستطع انجاز الخطة التي رسمها أمير البحر المتوفي سليمان ، خشية ان يلقي نفس المصير الذي ردي فيه الأسطول الاسلامي من قبل . ولذا بقي حصار القسطنطينية ناقصا غير كامل ، مما جعل مهمة المسلمين عسيره شاقة.

وفي ١٥ أغسطس سنة ٧١٨م/٩٩هـ بعد حصار دام إثني عشر شهراً

أمر الخليفة الأموي الجديد عمر بن عبدالعزيز الجيوش الإسلامية برفع الحصار والعوده إلي الشام بعد أن وجد ألا طائل من متابعة القتال.

وتعتبر النتائج العامة لمعركة القسطنطينية حدثا من الأحداث الكبري في تاريخ العصور الوسطي، اذ جعلت كلا من الدولة الاسلامية وإمبراطورية الروم تتطلع أحداهما إلي الأخري بمنظار جديد قوامه أن الدولتين لابد وأن يعيشيا جنبا الي جنب لاغني لاحداهما عن الأخري في التعاون علي قضاء مصالحهما العامة، وأن الجشع في الاستنثار ببعض الفوائد المادية مثار لحروب لاجدوي من ورائها.

الفصل الثالث

ميزان القوة السياسية بين المسلمين والروم

صدى المشاكل الداخلية فى تطور العلاقات بين الدولتين

الخلافة العباسية

يعتبر ارتداد المسلمين عن القسطنطينية سنه ٧١٨م خط تقسيم وضح فى قصة العلاقات بين الدوله الإسلامية وإمبراطورية الروم، ونقطة تحول فى نظم الدولتين الداخلية، آثارها فى المجرى العام لتلك العلاقات. ذلك أن جهود الدولتين انصرفت إلى معالجة المشاكل الداخلية التى انبثق خطرها بعد وقعه القسطنطينية وجاءت فى بعض مظاهرها نتاجا لما تخلف عن هذه المعركة من آثار وأحداث فانغمست الدولة الإسلامية فى غمار حركة سريه ترمى الى القضاء على الخلافة الأموية صاحبة السلطان والكلمة العليا فى الدولة . وأثبت التاريخ أن هذه الحركة التى نبتت جذورها بعد معركة القسطنطينية كانت مؤذنا بانتهاء عصر الشام الزاهر ، ومجد دمشق القائم على تحدى القسطنطينية وازهاق ممتلكاتها . وبشيرا بقيام الدوله العباسية التى عملت على اتخاذ عاصمه لها - فى بغداد - تباعد بينها وبين عاصمه الروم . واختلفت فى مطامعها وأحلامها عن أهداف دمشق وعزمها على الاستيلاء على القسطنطينية

وبدأت تظهر أعمال العداء ضد الدولة الأموية بعد وفاة الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (٧٤٢م/١٢٥هـ). إذ تربع من بعده على عرشَ الخلافة أشخاص اضعاف الهمة والعزيمة، أضاعوا الحكم بسبب انصرافهم الى الملذات والشهوات. ولذلك لم يكن مستغربا أن تنطلق من معاقلها العوامل الهدامة الكامنة فى جسم الدولة الأموية وتندفع للتشفى من قادة الدولة التى آن أفول نجمها. وكانت أولى تلك العوامل استيقاظ روح العصبية والنخوة القبلية بين عرب الجنوب والشمال ، وهى الروح التى كبح جماحها خلفاء بنى امية الأول الذين اشتهروا بقوه الشكيمة واليقظه فى الاداره. فلما ضعفت سيطرة الخلفاء استعرت روح العصبية فى جهات عديدة من أرض الدولة الإسلامية، وغدت بقاعاً كثيرة منها مسرحا للاصطدام بين القبائل المختلفة، على ضفاف السند وشواطىء صقلية وفى أرض خراسان وفى منطقه دمشق نفسها. انحطت هيبة الخلفاء المتأخرين أنفسهم لمناصرتهم هذا المعسكر القبلى أو ذاك، وأضحوا ممثلين للفروع القبلية المختلفة على حسب أنسابهم لاخلفاء للدولة الاسلامية الكبرى(١).

ومما ضاعف فى خطورة تلك الانقسامات نشاط أعداء البيت الأموى لاستغلال الفرقة، والاطاحة بذلك البيت الحاكم. وكان مسلمو فارس من أشد المتذمرين وأكثرهم سخطا على الامويين الذين تمسكوا «بالعنجهية العربية»، والتى اعتبرت الفرس موالى لايصح مساواتهم بالمسلمين العرب فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية(٢). فكان الفرس يحقدون على العرب تلك المكانة

---

(1) Hitti, op. cit, 528, 529.

(2) Nicholson, Literary History of the Arabs, 280, 281.

السامية التى نالوها بعد ظهور الاسلام، مع انهم لم يكونوا شيئا مذكورا بالنسبة لفارس وحضارتها وعلو مكانها السياسى والحربى بين أمم العالم العظمى قبل ظهور الإسلام. وبلغت عصبيه الفرس لوطنهم اشدها فى اقليم خراسان بالشمال الشرقى من فارس، حيث كانت منطقة الغنى والاتساع، وأهلها على جانب كبير من التقدم الثقافى(١).

ووجد الفرس متنفسا لحقدهم على البيت الاموى فى الحركات السرية التى قام بها الشيعة بعد مقتل الحسين بن على بن ابى طالب فى وقعه كربلاء على يد أحد قاده الخليفة الأموى يزيد بن معاوية. إذ تفرق شيعة الحسين فى سائر أرجاء فارس، واتخذوا من خراسان مقراً لنشر دعوتهم ضد الامويين(٢) وزاد فى قوه تشيع الفرس لابناء الحسين بن على بن أبى طالب تزوج بشهر بانوه ابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك الفرس الساسانيين، وأن أبناء الحسين بذلك صاروا يجمعون بين اشرف دم عربى وأشرف دم فارسى، يؤهلهم وحدهم للخلافة.

وظل أئمة الشيعة يتوارثون العداء لبنى أمية، ويدعون لأنفسهم سراً حتى عهد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك. إذ وقع حادث أدى الى ظهور قوة أخرى، عرفت كيف تستفيد من السخط المنتشر على البيت الآموى لصالحها. ذلك ان زعيم الشيعة فى ذلك الوقت هو أبو هاشم بن محمد بن الحنفيه بن على بن أبى طالب أدرك بعد احدى زياراته للخليفه الأموى سليمان عبدالملك أن أمره صار معروفاً لديه لأن الخليفه دس له السم فى الطعام. ولما

---

(١) أحمد أمين، ضحى الإسلام، ج١، ص٣٢.

(2) Browne, A Literary History of Persia, 130, 131.

شعر أبو هاشم بدنو أجله وهو فى الطريق قصد «الحميمة»، وهى قريه صغيرة فى أرض الشراه بين الشام والحجاز، حيث اقام بها إذ ذاك أحد أحفاد العباس عم الرسول، وهو محمد بن على بن عبدالله بن العباس. وهناك أفضى أبوهاشم بأسرار الدعوه لمحمد بن على العباسى، ونزل له عن حقه فى الإمامة، وأمده بأسماء دعاته فى الكوفه وفارس، كما سلمه رسائل يقدمها لهم.

ولم يكن فى تلك الحادثه اذذاك ماينبىء عن الانقلاب الخطير الذى سيتولد عنها فى مسائر الدوله الإسلامية، ذلك أن أئمة الشيعه من بيت على بن أبي طالب وسلالة العباس عم النبى يضمهم بيت واحد هو بيت هاشم، أعظم شخصيات قريش بعد زعيمها قصى كلاب وأن أبناء على من دون العباس هم أصحاب الحق فى الخلافة التى يتقلدها الأمويون. ولكن محمد بن على العباسى رأى أن يستغل تلك الحادثة لنفسه ولا بيته العباسيين، وأخذ يعمل على تحويل الخلافة من العلويين إلى العباسيين.

وأثبت الإمام العباسى الجديد مهاره وكياسة شهدت له بعلو كعب البيت العباسى فى ميدان السياسة، وهى الصفة التى تحلى بها رأس بيتهم نفسه العباس عم النبى، منذ صدر الدعوه الإسلامية(١). فقد وجه محمد بن على العباسى الدعاه إلى الكوفة موطن الشيعه فى العراق، وإلى خراسان مقر التشيع لابناء على بن ابى طالب فى فارس، وأوصاهم ببث الدعوة سرأ دون أن يذكروا اسم الشخص الذى يدعون له، وإنما يتظاهرون بنشرها «لآل البيت» عامه أى بيت

---

(١) اشتهر العباس عم النبى بحصافة الرأى وبعد النظر فى معالجة المسائل السياسية، حتى أن الرسول الكريم استخدمه فى كثير من الأغراض الخاصة بخدمة الدعوة الإسلامية لدى أهل قريش. وأثبت العباس قدرة عظيمة على فهم المواقف الغامضة، واستنباط حنيفة أمرها.

رسول الله صلى الله عليه وسلم، وامعانا فى الإخفاء عن بنى أمية، وتسكيناً للعلويين حتى لاتثير الدعوه له الشكوك فى نفوسهم. وبدأت الدعوة الجديدة بذلك من بلده الحميمه، متخذه لنفسها شعارا هو «الرضا من آل محمد» لانه يجمع بين ابناء العباس(١).

واستطاع العباسيون بذلك الشعار الجديد أن يخلقوا اتحادا بينهم وبين الشيعة فى العراق وفارس، ووحدوا الجهود لضرب بنى أمية. ثم وجه الدعاه العباسيون ضرباتهم للبيت الاموى، مستغلين نغمة جديدة أخرى، وهى أن بنى امية خرجوا على «تعاليم الدين الحق» التى تهدف إلى المساواة بين سائر أتباع هذا الدين، ويجب من أجل ذلك اسقاطهم وهكذا غدا العباسيون أبطال المعارضه للبيت الاموى وقاعه حركه المقاومة، التى تألفت من العلويين والفرس.

وبعد وفاة الإمام محمد بن على العباسى سنة ٧٤٢م/١٢٥هـ تولى أبنه إبراهيم الإمامه من بعده. وفى عهد الامام الجديد انتقلت الدعوه «لآل البيت» من دور اعداد الاذهان ضد البيت الأموى إلى دور التخلص الفعلى من سلطان الأمويين. ويرجع الفضل فى ذلك الى شخصيتين فارسيتين، الأولى هى شخصيه «أبى سلمه الخلال» الذى كان كبير الدعاه فى الكوفة، والذى لقب لتفانيه فى نشر تلك الدعوه ((بوزير آل محمد)) والثانيه هى شخصية «أبى مسلم الخراسانى» الذى قاد أول جيوش العباسيين ضد الدوله الأموية. إذ نشر أبو مسلم فى خراسان علم العباسيين الأسود سنه ٧٤٧م، وضم اليه فلاحى الفرس هناك، وقبيله الازد اليمنية المقيمه فى تلك الجهات ، معلنا بذلك الثوره على الأمويين.

---

(1) Nichilson, op, cit, 250.

وبادر عامل الامويين فى خراسان، وهو نصر بن سيار بطلب النجدات من الخليفة الأموى مروان الثانى (٧٧٤-٧٥٠م) ولكن مروان لم يستطع برغم شجاعته والقائه القبض على الإمام إبراهيم وقتله انقاذ الموقف فى خراسان لانشغاله باخماد الفتن القبليه التى ثارت بالشام من فلسطين إلى حمص. واستطاع أبو مسلم الخراسانى بذلك الاستيلاء على مرو عاصمة خراسان سنة ٧٤٧م، ثم تلا ذلك سقوط الكوفة. أهم مدن العراق سنه ٧٤٩م. وفى أكتوبر من نفس السنة أخذت البيعة العامه في مسجد الكوفة. لأبى العباس، الذى اضطلع بالدعوة بعد مقتل أخيه الإمام إبراهيم على يد الخليفة الأموى مروان الثانى.

واستطاعت قوات العباسيين أن تنتصر على جيوش الخليفة الأموى مروان الثانى عند الضفة اليسرى للزاب الكبير ، أحد فروع دجله ، وأن تستولى على اقليم الشام دون مقاومه. وأنتهى الأمر بالقاء القبض على الخليفة الأموى نفسه فى بلدة بوصير بمصر، وأعدم فى أغسطس سنه ٧٥٠م/ذى الحجة ١٣٢هـ وصار هذا التاريخ بدء قيام الخلافة العباسية على عرش الدوله الإسلامية

جدول يمثل قيام الخلافة العباسية

العباس

عبدالله

على

عبدالله — محمد

السفاح (أول الخلفاء العباسيين) — المنصور (ثانى الخلفاء العباسيين)

مطامع الفرس:

ولم تكد الدولة العباسية تتخلص من مناواة الأمويين حتى واجهت خطرين داهمين صرفا جهدها فى مشاكل داخلية. وحالا بينها وبين تكريس كل قواها ضد الروم حتى عهد خلافة هارون الرشيد. أولهما أطماع الفرس، الذين كانوا العمود الفقرى للجيوش العباسية والعامل الهام فى نجاح قضيتها. إذ تطلع الفرس إلى منافسة العباسين فى السلطان، وأدركوا أن البيت العباسى لن يحقق لهم ماتصبوا اليه نفوسهم من مجد سياسى(١). وكشف عن طلائع تلك النوايا الفارسية أبو سلمة الخلال نفسه، والملقب «بوزير آل محمد» وذلك قبل نجاح الدعوة العباسيه نفسها نجاحا تاما. فقد راسل أبو سلمه كبار رجال الشيعة يعرض عليهم الخلافة من دون العباسيين ولكن زعماء الشيعة كانوا يعتقدون أن الدعوة «لآل البيت» يقصد بها العلويون لا العباسيون، وآثروا السلامة وعدم الاهتمام بدعوة أبى سلمة الخلال حتى ضاع الأمر من يدهم إلى العباسيين.

---

(١) ظهرت فى العصر العباسى الأول حركات رد فعل لتمسك الأمويين بالعنجهية العربية، وتذهب إلى أن العرب يقفون مع غيرهم من الشعوب على قدم المساواة. وكان الفرس من أشد الناس تمسكاً بتلك النزعة التى أطلق عليها اسم "الشعوبية". لأنها تهدف إلى رفع الشعوب الأخرى إلى مصاف العرب المسلمين، وبدأ دعاة الشعوبية نداءهم مستندين إلى تعاليم الإسلام نفسه، التى لاتفضل بين شعب وآخر. ولكن سرعان ما صارت الشعوبية حركة سياسية تحارب أرستقراطية العرب. ولا سيما بعد أن اختلطت مع النزعات الوطنية عند الفرس وغيرهم من رعايا الدولة العباسية.

وبلغت الشعوبية أوجها فى القرن الثالث الهجرى، ولاسيما بعد أن استخدم الخلفاء العباسيون كثيراً من الفرس وغيرهم فى مناصب الوزارة. وقد وجد الفرس فى الشعر متنفسا لشعوبيتهم التى تجاوزت الحدود فى بعض الأحيان إلى الحط من شأن العرب. ومن ذلك قول أحد شعراء الفرس يعتز بتاريخ وطنه:

فلست بتارك إيوان كسرى لتوضح أو لحومل فالدخول

ولما تم الامر لأبى العباس، وبويع بالخلافة اتخذ أبا سلمة وزيرا له، على كره منه، وخوفا من الخراسانيين، الذين صاروا عضدا للدولة الجديدة. ولكنه لم يهنأ بسبب مخاوفه من أبى سلمة، وأخذ يراسل الزعيم الخراسانى الآخر وهو أبو مسلم، يشرح له محاولات أبى سلمة لتحويل الخلافة الى العلويين، وترك له أمر معاقبته حتى تصبح المسأله نزاع داخلى بين الخراسانيين وقد استجاب أبو مسلم الخراسانى لآراء الخليفة العباسى، وبعث نفرأ من رجاله، تخلصوا من أبى سلمه بالقتل، لآن فى ذلك سبيل لانفراده بالأمر.

ولكن دور أبى مسلم الخراسانى نفسه جاء فى عهد خليفة أبى العباس وهو أبوجعفر المنصور. ذلك أن أبا مسلم الخراسانى صار شديد الاعتداء بنفسه بعد زوال شخصية أبى سلمه، وصار يظهر التعالى والعظمة على سائر أبناء البيت العباسى، ومنهم ولى العهد إذ ذاك أبو جعفر المنصور. وأحس أبو جعفر خطورة أبى مسلم. وحث الخليفة أبا العباس على قتله خوفأ من خروجه على الدولة العباسية قائلا (أطعنى واقتل أبا مسلم، فوللہ إن فى رأسه لغدره) ولكن أبا العباس آثر عدم اثاره الفرس، ولا سيما بعد مقتل أبى سلمة.

ولما بويع أبو جعفر المنصور بالخلافه اخذت مظاهر العداء تشتد بينه وبين أبى مسلم الخراسانى. ولا سيما بعد أن أنتصر هذا القائد الفارسى فى حروبه على أعداء البيت العباسى الجديد. إذ اختلف أبو مسلم مع الخليفة حول احصاء الغنائم ، وهم بالعوده الى وطنه خراسان. وقد اوجس المنصور خيفة من تلك الخطوه التى صمم عليها أبومسلم، وبعث اليه خطابا يطلب منه العوده إلى مقر الخلافة. وأجاب أبو مسلم بخطاب آخر. كشف فيه عن تآثره بالتعاليم الفارسية

القديمة، حيث قال «إنه لم يبق لأمير المؤمنين أكرمه الله، عدو إلا أمكنه الله منه.

وقد كنا نروى عن ملوك آل ساسان، أن أخوف مايكون الوزراء اذا سكنت الدهماء فنحن نافرون من قربك، حريصون على الوفاء بعهدك ماوفيت، حريون بالسمع والطاعه، غير أنها من بعيد حيث تقارنها السلامة» .ولكن ابا جعفر المنصور تحايل وتلاطف مع أبى مسلم حتى اغراه على المجىء إلى العاصمة(١). وهناك أثناء المقابله دبر الخليفة مقتل أبى مسلم، الذى زالت به أخطر شخصية فارسية هددت سلطان البيت العباسى الناشىء..

غير أن مقتل أبى الخراسانى أثار الفرس، ودفعهم إلى اتخاذ أشكال شتى مقنعة لمناوأة البيت العباسى. وكانت أولى تلك الحركات قيام الراوندية(٢)، وهم جماعة من غلاة الفرس عمدوا إلى المناداه بتألية أبى جعفر المنصور ودس سموم التعاليم الدينية القديمة فى فارس فى المجتمع الإسلامى. ولكن أبا جعفر عاملهم بمنتهى القسوة لانهم من أتباع أبى مسلم الذين أمعنوا فى التستر تحت مبادىء الفرس القديمه لأسقاط البيت العباسى. فاعمل فيهم القتل، وقضى على آمالهم(٣).

---

(١) الطبرى، نفس المرجع السالف، ص٢٥١.

(٢) نسبة إلى مدينة راوند، القريبة من أسفهان، حيث مهد تلك الدعوة.

(٣) حاول زعماء الفرس استخدام مبادىء دينهم القديم وصبغها بصبغة إسلامية حتى يتمكنوا من تقريب أغراضهم السياسية إلى عقول العامة، وضمهم إلى صفوفهم ضد العباسيين. وكان أخطر تلك التعاليم وهو نظرية تناسخ الأرواح القديمة عند الفرس، والتى تقول بانتقال روح الاله من شخص إلى آخر، إمعاناً فى إضفاء مظهر التقديس عليه. وطبقت تكل النظرية تطبيقاً واسعاً فى حادثة مقتل أبى مسلم الخراسانى.

وقد تابع الفرس نشاطهم الهدام عن طريق بث تعاليمهم القديمة الفاسدة فظهر بعد الراونديه جماعة المقنعية في عهد الخليفة المهدى بن المنصور. إذ قام رجل قبيح الخلقة من أهل مرو بخراسان واتخذ لنفسه وجها من ذهب حتى لايرى الناس وجهه، وادعى الألوهية. فقال ان روح الاله انتقلت منه الى نوح ثم الى سائر الأنبياء حتى حلت أخيرا فى روح أبى مسلم، وانتقلت إلى المقنع نفسه وقال ان أبا جعفر المنصور لم يقتل أبا مسلم ،وانما قتل شيطانا على صورته واستطاع المهدى القضاء على تلك الحركة بعدجهد بسبب فساد تعاليمها ولاتصالها بمقتل أبى مسلم.

وشاع فى عهد المهدى كذلك لون اخر من محاولات الفرس لتحويل الملك اليهم عن طريق التستر وراء معتقداتهم القديمة ، فاشاعوا الزندقة التى صارت تعنى من يتاثر بالفرس فى عاداتهم وحضارتهم ويسرف فى العبث والمجون. وتعقب المهدى أنصار هذه التعاليم الجديدة وأنشا لمحاربتهم ديوانا اطلق على صاحبه اسم ((صاحب الزنادقة)) ومهمته القضاء عليهم وعلى تعاليمهم. وكان الخليفة المهدى يقتل ولو على الظنة كل من رمى عنده باالزندقة ، مما جعل سموم الفرس تقف عند حد، ويتيح للدوله العباسية التفرغ لمشاكلها الخارجية ضد الروم.

ثورة العلويين:

واجه أبو جعفر المنصور كذلك الخطر الثانى الذى تهدد الخلافه العباسية الناشئة. وتمثل الخطر الجديد فى حقد العلويين على العباسيين لاستنثارهم بالخلافة من دونهم. ذلك أن نفرا كبيرا من الشيعة اعتبر تنازل أبى هاشم بن محمد بن الحنيفه عن الامامة الى محمد بن على العباسى أمرأ باطلا.

لايكسب العباسيين حق الخلافه، وأن الدعوة (للرضا من آل البيت) يقصد بها العلويون فقط من أبناء البيت. وتزعم أولئك العلويون أحد أحفاد الحسن بن على بن أبى طالب، المعروف باسم (محمد النفس الذكية) لاشتهاره بالتقوى والورع.

على بن أبى طالب

محمد بن الحنفية — الحسين — الحسن

أبوهاشم

محمد — الحسن

عبدالله

محمد النفس الذكية — إبراهيم

وأظهر محمد النفس الذكية العداء للبيت العباسى حين ولى أبو جعفر المنصور السلطة، إذا امتنع عن مبايعته بالخلافة، واتخذ الحجاز مقرأ للدعوة الى نفسه وقد أدرك المنصور خطورة هذا الزعيم العلوى، وأنه لن تقوم لخلافته منه قائمة الا اذا تخلص منه كما تخلص من أبى مسلم الخراسانى. وفى سنه ١٥٤هـ/٧٦٦م جهر محمد النفس الذكية بدعوته إلى الخلافة، وبايعه الناس فى مكه والمدينة، ولاسيما بعد أن ساعده على ذلك افتاء الإمام مالك بنقض بيعه أهل المدينة للمنصور، حيث قال لهم ((إنما بايعتم مكرهين، وليس على مكره يمين»(١)

وبعث محمد النفس الذكية بأخيه ابراهيم الى العراق ليدعو له بالخلافة بين الشيعه هناك ويجعل البصره مقرا له. واستطاع ابراهيم الاستيلاء على دار

---

(١) الطبرى، نفس المرجع، ج٩، ص١٤٣.

الامارة فى البصرة وهزيمه القوات العباسية، بعد أن اشدت أزره طوائف الشيعه المختلفة. وبذلك اشتد الحرج بابى جعفر المنصور. حيث صار سلطانه مهددا من الحجاز والعراق فى نفس الوقت ومن ثم عمد الخليفه العباسى إلى الحيله للقضاء على هذا الخطر الداهم. فراسل محمد النفس الذكية يلاطفه، ويمنه بالوعود الخلابه، ولكن الزعيم العلوى لم يتاثر بتلك الوعود الزائفة . وبعث يذكر المنصور بغدره بأبى مسلم الخراسانى(١).

وأدرك الخليفة العباسى بعد تلك المراسلات ضرورة الاعتماد على القوة الحربية واستغلال نقط الضعف عند العلويين. ذلك أن محمد النفس الذكية أرتكب خطأ باتخاذه الحجاز مقرا له، وأن الموقف الحربى كان يقتضى منه الاعتماد على قطر أكثر غنى وأوسع استعدادا. وأحس الزعيم العلوى بالخطأ الذى وقع فيه حين زحف جيش المنصور على المدينه، مقر الدعوه العلوية. فقد أشار بعض أصحاب محمد النفس الذكية بترك الحجاز والذهاب إلى مصر قائلين له «ألست تعلم أنك بأقل بلاد الله فرساً وطعاماً وسلاحاً وأضعفها رجالا؟..». فالرأى أن تسير بمن معك حتى تأتى مصر ... فتقاتل الرجل بمثل سلاحه)(٢).

---

(١) كتب أبوجعفر المنصور إلى محمد النفس الذكية: "ولك على عهد الله وميثاقه إن تبت ورجعت من قبل، أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك".

فأجاب محمد النفس الذكية على المنصور: "إنا بنو أم رسول الله، صعلم، فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية، وبنو بنته فاطمة فى الإسلام دونكم إن الله أختارنا أو إختار لنا.. وأنا أولى بالأمر منك... فأى الأمانات تعطينى؟ أمان ابن هبيرة، أم أمان عمك عبدالله أم أمان أبى مسلم؟".

وأجاب المنصور مرة أخرى قائلا: "قرأت كتابك، فإذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء...وأما قولكم إنكم بنو رسول الله صعلم فهى قرابة قريبة ولكنها لاتحوز الميراث، ولا تراث الولاية، ولاتجوز لها الإمامة، فكيف تورث بها".

(٢) الطبرى، نفس المرجع السابق، ج٩، ص٢١٨.

ولكن هذا الرأى لم يلق هوي عند كثير من العلويين ، واضطر محمد النفس الذكية الى البقاء فى المدينة. وبذلك أتيحت الفرصه لجيش العباسيين أن يهزم جند محمد النفس الذكية الذى وقع هو نفسه قتيلا سنه ١٤٥هـ. وبذلك لم يبق أمام جعفر المنصور غير ابراهيم الذى كان يتزعم البصرة والعراق اذ ذاك بتفويض من محمد النفس الذكية. وقد وقع هذا الزعيم العلوى كذلك فى خطأ آخر وهو بقاؤه ساكنا، لايحرك جيوشه الابعد أن بلغه مقتل أخيه. اذ أضاع بتلك الفرصة السبيل للايقاع بالعباسيين، وترك لهم الانفراد بالموقف. وسرعان مابعث المنصور بجيوشه الى العراق، ونال النصر التام على ابراهيم ، الذى سقط قتيل سهم أصابه فى حلقه.

غير ان العلويين لم يستسلموا تماما بعد تلك الهزيمة التى نالتهم ، وانما عمدوا الى انتهاز الفرص المواتيه للقيام بالثورات ، والمطالبه بالخلافة . ذلك أن العباسيين عهدوا الى عمالهم على الحجاز بمراقبه العلويين بمكة والمدينة مراقبه تامة ، ومنعهم من الثورة. وتمادى ولاة الحجاز العباسيين فى الإستهانة بأبناء كبار العلويين، وأخذوا يشهرون بهم ليقللوا من شأنهم فى نظر الناس. ومن ذلك مافعله عامل الخليفة الهادى على المدينه بالعلويين ومنهم الحسن بن محمد النفس الذكية ، اذ اتهم العامل العباسى العلويين بشرب النبيذ . وقبض

عليهم وشهر بهم(١).

ولكن أحد أحفاد الحسن بن على بن أبى طالب ، وهو الحسين بن على ثار على العامل العباسى، واتهمه بالعمل على تشويه سمعه آل البيت . وانضم عدد كبير الى الحسين بن على ، وحطموا دار الإمارة وأخرجوا من سجنها العلويين المقبوض عليهم. وبعد أحد عشر يوما من تلك الحادثه قصد الحسين بن على مكه . ولكن لقيه جيش العباسيين عند مكان يسمى «فخ» وهو واد فى طريق مكة يبعد عنها بستة أميال وفى هذا المكان نال العلويون هزيمه فادحة ، وقتل الحسين بن على ومعه عدد كبير من آل بيته، حتى قيل «لم تكن مصيبه بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ»(٢).

وبانتصار الخليفه الهادى العباسى على الحسين بن على أمنت الدوله العباسية شر العلويين كما أمنت شر الفرس من قبل، أذ كانت الحركات التى قام بها العلويون أو الفرس بعد ذلك أعمال فرديه بسيطة اذا قيست بمناهضة محمد

---

(١) أدت المهاترات بين العلويين والعباسيين إلى نوع من الجهاد النظرى، حاول فيه كل فريق أن يدعم حقه فى الخلافة عن طريق الشعراء واصطناع أساليب الدعاية. ومن ذلك قول أحد الشعراء العباسيين يؤيد دعواهم فى الخلافة وأنهم أحق بها لأنهم من سلالة العباس، أى من سلالة الذكور أقرباء النبى، على حين ينتسب العلويون إلى فاطمة بنت النبى، أى أنهم من سلالة النساء. فقال ذلك الشاعر العباسى مخاطباً أحد الخلفاء العباسيين:

يابن الذى ورث النبى محمداً ... دون الأقارب من ذوى الأرحام
ما للنساء مع الرجال فريضة ... نزلت بذلك سورة الأنعـــام
أنى يكون وليس ذاك بكائن ... لبنى البنات وراثة الأعمـــام

غير أن شعراء العلويين أجابوا على ذلك بقولهم:

لم لا يكون، وأن ذاك لكائن ... لبنى البنات وراثة الأعمام
للبنت نصف كامل من ماله ... والعم متروك بغير سهـــام

(٢) أدت الكوارث التى لحقت بالعلويين إلى دفع زعمائهم إلى إتخاذ أساليب خفية.

النفس الذكية أو أبى مسلم الخراسانى لسلطان العباسيين. وترك الهادي العباسي لخلفائه من بعده دوله ثابته الأركان استطاعت على عهد الخليفه هارون الرشيد أن تستأنف الجهاد ضد الروم على نطاق واسع، ولكن له صبغه جديدة، تتفق والوضع الذى وصلت اليه الدوله الاسلامية بعد اعتلاء العباسيين عرش الخلافة.

الروم والحركة اللاإيقونية:

وفى الوقت نفسه الذى انشغلت فيه الدولة الاسلامية عقب ارتداد قواتها عن القسطنطينية بسقوط الأمويين وقيام العباسيين، الذين انصرفت جهود خلفائهم الأول للقضاء على الخطرين الفارسى والعلوى، انغمست إمبراطورية الروم بدورها فى حركة دينيه خطيره جاءت نتيجة دفاعها عن العاصمة، وشغلت السلطات فيها عن الافادة مما ساد الدولة الاسلامية من المشاكل الداخلية السالفة. وذلك أن الامبراطور ليوالايسورى، الذى ينسب اليه الدفاع عن القسطنطينية أثناء حصار الأمويين لها، شن عقب ارتداد القوات الإسلامية حملة شعواء على عبادة الايقونات فى امبراطوريته وهى عباده الصور المقدسة والتماثيل التى تصور العذراء والقديسين. وتعرف سياسه هذا الامبراطور فى تاريخ الروم باسم الحركة الدينية وتطهيرها من الماديات.

على أن أصول تلك الحركه الدينية، التى انفجر بركانها عقب ارتداد المسلمين عن القسطنطينية، ترجع الى اشباه تلك الحوادث التى أحاطت بإمبراطورية الروم وعاصمتها. إذ نجت الامبراطورية من أزمات وكوارث حربية تجاه أشبه بالمعجزات، مما حمل الناس، وهم على جانب عظيم من التدين فى تلك العصور الوسطى الأولى على الأعتقاد بأن قوى سماوية هى التى

أنقذت الدوله من هذه الأخطار المتكررة. فالحرب الفارسيه التى حطت من سمعة دولة الروم وألحقت بها كثيرا من الأضرار، انتهت بانتصارات عظيمة رائعة، هدد بها هرقل المدائن نفسها عاصمة الفرس، واعاد صليب الصلبوت إلى حوزة الروم. كذلك لم تستطع الجيوش الاسلامية، برغم محاولاتها العديده ونجاحها فى التهام بقاع شاسعة من ممتلكات دولة الروم وكان ذلك لمناعه العاصمة واستماته الناس فى الدفاع عنها، ولكن الناس لم يعتقدوا فى مناعه الاسوار وشجاعه الرجال، وانما نسبوا الفضل فى ذلك الى المعجزات والبركات. ولما كانت الصور والايقونات المقدسة عنصرا هاما فى الحياة الدينية فى دوله الروم، فقد زاد اعتقاد الناس فى تلك الصور وفى بركتها، وأنها هى التى أنقذت العاصمة مما حاق بها من أخطار. ولذا غدت قبور القديسين وصورهم مزار الناس، ومقصد طلاب الحاجات.

وفى الحقيقة كانت الايقونات عاملا هاما فى الديانه المسيحيه، اذ اعتمدت المسيحية منذ قيامها فى تزبين دورها وكنائسها على الصور والايقونات المقدسه، واتخذتها وسيلة لتقريب قواعد الدين وتاريخ المسيحية لعقول الناس. فكانت صور المسيح والعذراء والقديسين شيئاً عادياً فى الكنائس والأديره، وعلى الامتعه والملابس(١)، كما كان أمراً عادياً سجود بعض الناس أمام تلك الايقونات المقدسة وإيقاد الشموع ووضع باقات الزهور عليها، أو تقديم القرابين المختلفة من الذهب والفضة عند أقداسها.

وإذا كانت هناك عوامل عدة غير الوازع الدينى والاغراق فى التقوى شجعت على تقديس الصور والايقونات بشكل حمل الإمبراطور ليو على

(1) Vasiliev, op.cit, 339, 340.

مناهضتها، فإن عوامل أخرى بدورها دفعت الإمبرطور على السير قدما فى حركته اللاايقونيه. فقد رأى فى الأديره والبيوت الدينية أهم معاقل الايقونيه ، والرهبان والديارون دعاتها ووسائل نشرها، وأن هذه البيوت الدينية أضحت واسعة الانتشار فى ارجاء دولة الروم فى القرن الثامن الميلادى. ويتمتع أهلها بأمتيازات واعفاءات مالية حتى أثر كل ذلك فى خزانة الدولة. فضلا عما أحدثته كثره الرهبان والديارين من أضرار بحركه التجنيد والشئون الزراعيه فى الدولة(١). لذلك اتجهت سياسة الإمبراطور ليو الثالث الايسورى وخلفائه من بعده إلى الاديره والرهبان لوضع حد لحركه عباده الايقونات ومانجم عنها من متاعب للدولة.

وفى سنة ٧٢٦م أصدر الامبراطور ليو الثالث مرسوما يطلب فيه من القائمين على شئون البيوت الدينيه والاديره رفع الصور المقدسة الى اماكن عاليه حتى يقلع الناس تدرجيا عن الوقوف والركوع أمامها خاشعين مبتهلين(٢). وأدى هذا المرسوم المعتدل إلى فتنة شديدة للقسطنطينية، مما يدل على أن الايقونات كانت تحتل ركنا أساسيا من اعتقادات الناس. غير أن الامبراطور المعتد بنفسه وصاحب اليد الطولى فى انقاذ العاصمه من حصار المسلمين، رأى عدم التخاذل أمام ثوره شعبيه لاتقوم على اساس وانما زادته الفتنة عزما، اذ أعقب مرسومه الأول بمرسوم آخر أزيلت بمقتضاه التماثيل والصور الموجوده فى الكنائس وغيرها(٣).

على أن تطبيق هذا المرسوم أثار ضجه عاليه فى القسطنطينية امتدت

---

(1) Vasiliev, op. cit, 340. 341.

(2) Vasiliev, op. cit, 342.

(3) Vasiliev, op. cit, 342 343.

آثارها العاصمه، وكان ذلك ايذانا باندلاع الحركة اللاإيقونية التى لستنفذت قوى دوله الروم معظم القرن الثامن الميلادى، ونفرعت عنها مشاكل لم تكن فى الحسبان. إذ ناهض معظم رجال الدين سياسة الإمبراطور متذرعين بأن بقاء الصور والتماثيل وسيلة لتقريب الدين إلى اذهان الناس. وتطور الموقف فيما بين الإمبراطور ورجال الدين إلى نضال بين الدولة والكنيسة، وانضمت البابوية - التى رأت رأى رجال الدين فى الصور والتماثيل المقدسة - إلى حركة المناهضة للسياسة اللاإيقونيه، مما جعل إمبراطورية الروم على معاداة البابوية. وبذلك تطورت المساله كلها أواخر عهد الإمبراطور ليو الثالث من مسأله دينية غلبت عليها النزعة السياسية، فأجاب الإمبراطور على عداء البابوية لحركته بفضل ممتلكات الروم في قلوريه وصقلية والليريا عن سلطان البابوية المهيمن عليها اذ ذاك، ووضعها تحت سيطرة بطريقية القسطنطينية. وبذلك كان علي ليو الثالث وخلفانه من بعده مواجهه قوي داخلية وخارجية. ولكن سار الإمبراطور قسطنطين الخامس بالحركة اللاإيقونيه قدما مكملا ماتم في عهد أبيه ليو الثالث ، ودون أن يأبه بما ناله من ألقاب السخريه مثل الاصطبلي الصارخه(١). (Caballinous) التى أعدقها عليه العامة الذين رغبوا فى تشويه سمعته والحط من قوانين اللاإيقونية.

وبذلك ظل أباطره دوله الروم في شغل بالحركه اللاايقونيه حتي توفي ليو الرابع بن قسطنطين الخامس، وخلفه ابنه القاصر قسطنطين السادس وأمه الوصيه الإمبراطوره إيرين. ففي تلك الفتره (٧٧٦م - ٧٩٧م) تجلي مبلغ انغماس دوله الروم في المشكله الدينية واضطرار الدوله الي الدفاع عن نفسها بشراء السلم عن طريق المال، وتحصين الحدود من إغارات هارون

---

(1) Vasiliev, op. cit, 343 ,348.

Bury, op, cit, 343, 348.

الرشيد الذي تولي مقاليد الحكم حينئذ (٧٨٦م/-١٧٠هـ) في الدوله الاسلامية(١)

تحصين العواصم والثغور:

اتسمت الفتره التى انصرف فيها جهود الدوله الاسلامية وامبراطوريه الروم الي حل مشاكلهما الداخليه بوقوع بعض المصادمات الحربيه علي منطقه الحدود بين الدولتين واتخذت في كثير من الاحيان طابع الأغارات المحدده الأثر. ولم يكن منتظرا من الدولتين أن تقوما بأكثر من ذلك النشاط في ميدان العمليات الحربية ، ولاسيما أن مركز القوة الاسلامية انتقل الي بغداد وأضحي بعيدا عن عاصمه امبراطورية الروم. ولذا كانت الاغارات التي شنها الطرفان عندما سمحت لهما الظروف تهدف الي السلب والنهب، وتخريب ماتستطيع تخريبه من المدن والحصون دون أن تترامي بها الآمال الي القيام بمشروعات حربية واسعه، شبيهه بما أعدته الخلافه الأموية. فكان من الطبيعي أن يهتم المسلمون والروم بتحصين مناطق الحدود بينهما للحد من نشاط الأغارات.

وكان خط الحدود يتكون من سلسلتي جبال طوروس بمعاقلها وحصونها ذات المكانة الحربيه الاستراتيجية الممتازة لوقوعها عند تقاطع الطرق التي تخترق تلك السلسلة الجبلية، ولتحكمها كذلك في الممرات الجبلية الضيقة. وحرص كل من المسلمين والروم علي السيطرة علي تلك الحصون والمعابر والممرات الهامة للهجوم أو الدفاع. فوضع الروم منطقة الأطراف التي واجهت أراضي الدوله الاسلامية والتي سميت باسم منطقة الممرات أو الثغور تحت إشراف رجال حربيين لقبوا بحكام الثغور (Kleisuriarchs)(٢). ولما ازدادت.

---

(1) Bury, op, cit, 393.

(2) Byzantium, 299.

يلاحظ أن المراجع العربية عربت كلمة Kleisuriarch إلى كيلرج.

حدة الإغارات الإسلامية في القرن الثامن الميلادي دعموا تلك المنطقة بحاميات أطلق عليها حراس الحدود (Akritoi) ومهمتها مساعده حكام منطقة الثغور(١).

وكان هذا الخط الدفاعي يسير علي امتداد جبال طوروس من الفرات الاعلي الي حدود قيلقيا، وينقسم قسمين الاول يمتد من مطيله الي عين زربه ، وكان مخصصا لدفع الإغارات الإسلامية الآتيه من شمال العراق. وأهم حصون ذلك القسم ملطيه التي تقع عند ملتقى الطرق الرئيسية المؤدية من سبيسطه (Sebastea) أو سيواس (Sivas) وقيصرية إلى أرمينيا وشمال العراق. ويمر هذا الطريق من ملطية إلى مرعش .(Germanica) عبر جبال طورس بقلعه زبطرة (Zapetra) أما القسم الثاني من خط دفاع الروم فكان يواجه الشام ومهمته الدفاع عن أراضي الروم ضد الحملات الشامية(٢).

وقامت الدولة الاسلامية زمن العباسيين بمثل ماقامت به دوله الروم لتحصين حدودها: فأقبل خلفاؤها على ترميم المعاقل والحصون فى منطقة الحدود المطلة على أراضى الروم. ولكن المعروف أن الخليفة هارون الرشيد هو صاحب الخطوة الهامة فى تأمين الحدود الاسلامية. فقد أسس اقليما مشابها لاقليم الأطراف عند الروم علي حدود البلاد الاسلامية الشمالية، وسماه اقليم العواصم والثغور، وعاصمته أنطاكيه، وجعل عليه ابنه المعتصم. وكان الاقليم الجديد قسما من أرض قنسرين فصله هارون عنها تماما، وشمل حلب ومنبج وأنطاكية غربا الي الساحل(٣) علي أنه يقصد بلفظ العواصم سلسله الحصون الداخلية الجنوبية بطرقها الحربية، لأنها تعصم الحدود وتعينها علي صد غارات الروم، وفي نفس الوقت للتميز بينها وبين الحصون الشمالية الخارجـــه

---

(1) Bvzantium, 299.

(2) Bury, History of The Easiern Empire, 244, 264.

Ruociman, The Emperor Romanus Lecapenus, 121, 122.

Anderson, The Road System of Eastern Asia Minor. 34.

(٣) ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص١٦: ج٦، ص٢٣٧.

الملاصقه لحدود الروم(١) وهي الحصون التي سميت باقليم الثغور لمواجهتها للثغرات أو المنافذ في أرض العدو. وكان أقليم الثغور ينقسم قسمين أحدهما في الشمال الشرقي ويسمي بالثغور الجزريه التي تدافع عن شمال العراق ، ومن حصونها الهامة زبطره وحصن منصور والحدث، والقسم الثاني يسمي بالثغور الشامية في الجنوب الغربي حيث يقترب من ساحل خليج الأسكندرية، ومن أهم حصون ذلك القسم المصيصة وأدنة وطرسوس(٢).

وأهم الممرات في هذه المنطقة الممر القديم المعروف باسم أبواب قليقيه (Cilician Gates)، ثم الممر الذي يسير فيه الطريق من مرعش الي البستان أو الأبلستين (Arabissos) فالطريق الأول ترجع شهرته إلي العصور القديمة والعصور الوسطي كذلك. ويبلغ طوله سبعه أميال حيث يبدأ من سفح هضبة آسيا الصغري جنوبي طوانه (Tyana) ويمتد الي حيث يطل سفح جبال طوروس علي سهل قبادوقيا. وعند أقصي الطرف الشمالي للممر تقع قمة منعزله شديدة الارتفاع، تبلغ حوالي ألف قدم تقريبا وتتحكم في منتطقة واسعه من سهول قبادوقيا الجنوبية وسفوح طوروس الشمالية. وعلي هذه القمة المنيعه بنيت قلعة اللؤلؤة، التى ظلت مضرب الأمثال فى المناعه، وتبادلها المسلمون والروم بوسائل الدس والخيانة مرات عديدة، وكانت تلك القلعة مفتاح

---

(١) كانت حالة الحصون والمعاقل الإسلامية تدعو إلى الرثاء فى عهد الخليفة المهدى العباسى. ففى سنة ١٦٢هـ غزا الحسن بن قحطبة الطائى بلاد دولة الروم ونزل فى مرج طرسوس وشاهد خراب المدينة وقلة سكانها. فقدم تقريراً بذلك إلى الخليفة المهدى بعد عودته من الغزو، وأشار بإعادة بنائها وترميمها وشحنها بالمقاتلة لما فى ذلك من حماية أرض الإسلام وزجر العدو عن شن الإغارات. فأمر المهدى ببناء طرسوس على أن يبدأ بمدينة الحدث. فلما كانت سنة ١٧١هـ ترامت الأنباء إلى الخليفة هارون الرشيد أن الروم يبيتون النية للاستيلاء على طرسوس، فأسرع بتنفيذ وصية الخليفة المهدى وبعث هرثمة بن أعين فى نفس السنة لشن غارة على أرض العدو وتعمير طرسوس. وقام بمهمة البناء والتعمير فرج بن سليم الخادم، الذى بعث إلى طرسوس، بعد تحصينها، ثلاثة آلاف رجل من أهل خراسان، ثم أتبعهم بألفى رجل من أهل المصيصة والف رجل من أهل أنطاكية، وزاد فى أعطياتهم.
(انظر البلاذرى: فتوح البلدان - مصر ١٩٠٠م - ص١٧٦.)

(2) G. Le Srange, The lands of the Bastern Caliphate. 128.

الممر المعروف بأبواب قليقية. إلى أيدى المسلمين لم يجرؤ جيش الروم علي المخاطره لاجتياز ذلك الممر. ومما أضاف الي اهميه قلعه اللؤلؤة أن الطريق الشمالي المؤدي الي طوانه والطريق الغربي الي هرقلة يتقابلان قربها مما جعلها تتحكم في عدة ممرات هامة.

وتصف المراجع ذلك الممر بانه ينحني صوب الشرق بعد بدايته ، ثم يتجه جنوبا حيث يطل علي وادي البذندون البيضاوي الشكل ويطلق عليه اسم معسكر قورش لأن قورش الصغير عسكر فيه أثناء سيره لمحاربه أخيه ، ثم يسير الممر في اتجاه مرتفع عبر وديان ضيقة شديدة الانحدار حتي يصل إلي نهايته. وعلى الجانب الشرقي من نهاية الممر قلعه حصينه مبنية من الحجر الأسود علي قمه تل مرتفع وتتحكم في مدخله ويطلق عليها اسم حصن الصقالبه (أو قلعة السلاف). ومن قمة ذلك التل المعروف الآن باسم تكير يؤدي ممر منزلق طوله ثلاثه أميال تقريبا الي منحني صخري يعرف باسم أبواب قليقيه . وهو الاسم الذي اطلق علي الممر باجمعه وطول ذلك الممر المنزلق مائه يارده تقريبا ، وعرضه بضع ياردات فقط . وتحيط به جدران عاليه في ارتفاع عمودي ، مما جعل القلعه المعروفه باسم حصن الصقالبة تستطيع بحاميتها الصغيره ايقاف جيش كبير العدد(١).

وأقام الروم من قلعة اللؤلؤة (عندما كانت في أيديهم - أو بالقرب منها في حالة وقوعها فى يد العرب) عبر آسيا الصغرى إلي القسطنطينية سلسلة من المنارات، استخدمت في إرسال الأنباء بواسطة إشعال النار. فكانت النار التى توقد علي تل حصن اللؤلؤة أو على مقربة منها، يراها الحراس المقيمون على قمة جبل أرجايوس (Argaios) المطل على بحيرة تاتا (Tatta) وهذا الجبل يختلف عن جبل ارجايوس المطل علي قيصرية. ومن جبل أرجايوس المطل علي بحيره تاتا تنتقل الاشاره الى تل إيزاموس (Isamos) ومنه الي مرتفع أيجيلوس (Aigilos) ثم إلى معسكر دور اليوم الكبير. الذي يقع علـــى

(1) Bury, The Eastern Empire, 246.

تمبريس (Tembris) على بعد ثلاثين ميلا من أيجيلوس، ثم تحمل الاشارة إلى محطة ماماس (Mamas)، ثم إلي موكيلوس (Mokilos)، حيث تعبر الأشارة خليج بيثينيا (Bythnian Gulf) إلي آخر منارة على جبل القديس أوكزينتيوس (Auxention) ومن هذه المنارة تنقل الأشارة إلي حراس القصر الكبير الذين يوقدون منارته دلالة علي وصول برقية من طرف آسيا الصغري(١).

وهذه الوسيلة من المواصلات ترجع الي العصور القديمة حيث استخدمها الرومان في جهات عديدة من إمبراطوريتهم. على أن استخدام الروم لتلك الوسيلة في آسيا الصغري في القرن الثامن الميلادي اقتصر علي ارسال اشارة واحدة تحمل قيام إغارة إسلامية. ولكن سرعان ماأدخل ليو الرياضي، أحد العلماء الروم المتضلعين في علم الهندسة في عهد الأمبراطور ثيوفيل (٨٢٩-٨٤٢م) تحسبا جديدا علي ذلك النظام، واستخدمه الامبراطور ثيوفيل في طرق البريد بآسيا الصغري. وهذا التحسين الجديد يتلخص في اعداد ساعتين تسيران في زمن واحد، توضع إحدهما في القصر الإمبراطوري والأخري في قلعه الروم القريبه من حدود قليقيا، ثم تتفق السلطتان المقيمتان في القصر والقلعه علي اثنتي عشرة حادثة، ويرمزون لكل حادثه بساعه معينه من الساعات الاثني عشرة وتكتب كل حادثه امام العدد المخصص لها علي واجهه الساعه. فاذا حدث ان احس حاكم قلعه اللؤلؤة في الساعه الرابعه مثلا أن العدو علي أهبه عبور الحدود، انتظر الي الساعه السادسة حتي يتبين حركات العدو ثم يشعل النار، وعناما تنتقل تلك الاشاره عبر المحطات السالفة الذكر حتي تصل الي القصر الأمبراطوري ينظر الحراس إلى الساعه، فيعلمون متى اشعلت النار في قلعه اللؤلؤة. ويقفون بذلك علي معني هذه الأشارة، أي أن العدو اخذ مثلا يحرك ركابه للهجوم، والاشارة التي يعرف حراس القصر أنها أشعلت في الساعة السابعه تدل على أن الحرب وقعت بين الطرفين، وتلك التي اشعلت في الساعه الثامنه تدل علي أن العدو أعمل الحرائق وهكذا(٢)

(1) Bury. op. cit, 245, 246.
(2) Bury. op. cit, 248.

وكانت حملات الروم على العراق تتبع غالباً طريق البستان - مرعش حيث تجتمع قوات البنود الأسيوية الشرقية مع قوات البنود الغربية عند قيصرية ، ومن ثم تسير في ذلك الطريق مخترقة جبال طورس الي البستان عبر ممر كورو - خاى (Kuru - Chai)(١).

واستخدم المسلمون فى حملاتهم واتصالاتهم بآسيا الصغرى نفس الممرين الرئيسيين اللذين عرفهما الروم. فأطلقوا على الممر الذى يصل مرعش بالبستان درب الحدث. وترجع هذه التسمية إلى مالقيه العرب عند ذلك الممر من هزائم متكررة زمن الفتوحات الإسلامية الإولى وكان لها حدث سيىء فى النفوس(٢).

أما الممر الثانى فكان الطريق الذى يسمى قليقية، وكان مستخدماً للبريد والسفارات المتبادلة بين الخلفاء والآباطره، وربما كان هذا الاستخدام السلمي هو الذي جعل المسلمين يطلقون علي الجزء الجنوبى من ذلك الممر اسم درب السلامه(٣).

وكانت الدولة الإسلامية تنفق بسخاء علي أقليم الثغور، إذا كان خراجها قليلا لايقوم بأود الدفاع عنها. فكان يجيء من الثغور الشامية بما فيها طرسوس وأدنه ألف دينار، كانت تنفق جميعها على المرافق العامة لتلك المناطق، من دفع أجور الجواسيس والبريد ومسالح الدروب الجبليه وتقوية مخاضات(٤) الأنهر هناك. أما نفقات الغزوات التى كانت تشن من هذه المناطق، صيفاً وشتاءً، فكانت الدولة الإسلامية تتكفل بها أحيانا، وبلغت مائتى ألف أو ثلثمائه ألف دينار(٥) أما ثغور الجزيرة بما فيها مرعش والحدث وملطيه وبعض بلاد أخري فكان خراجها سبعين الف دينار ينفق منها أربعون الفا على مرافقها العامة ويخصص الباقى وقدره ثلاثون ألفا لدفع أعطيات الجند.

(1) IBID, 248.

(2) Le Strange, op- cit, 198.

(3) Le strange, op. cit, 134.

(٤) المخاضات هى الأماكن الضليلة الغور فى الأنهار ويمكن العبور منها بسهولة.

(٥) قدامة بن جعفر. نبذة من كتاب الخراج ص٢٥٣.

التى كانت الدوله تساهم سنويا بها فوق المبلغ سالف الذكر بمقدار مائه وعشرين الفا أو مائه وسبعين الف دينار. هذا عدا النفقات على الحملات التى كانت تتكفل بها الدوله، وكانت تتراوح بين الكثره والقلة حسب أهمية الغزوة وعدد المشتركين فيها(١).

وهكذا كانت الدولة الاسلامية وإمبراطورية الروم تعنبان كل العناية بتقوية مناطق الحدود بينهما، والانفاق عليها بسخاء لتكون دائما علي أهبة الاستعداد والدفاع. ولعل الأموال الطائلة التي انفقتها الدولة الإسلامية على مناطق الثغور تشير جليا الى مدى حرصها على حمل الناس على الإقامة فى تلك الجهات وتعميرها.

النشاط البرى والبحرى

الصوائف والشواتى البرية :-

تعتبر قصة العلاقات بين المسلمين والروم من منتصف القرن الثامن الى منتصف القرن التاسع الميلادى تأريخاً زمنيا لاغارات تبادلها الطرفان لم تتوغل كثيراً، اللهم الا نادراً، فى أراضى الدولتين.

وكانت الصفة البارزة لتلك الإغارات الاستيلاء علي معاقل جبال طوروس والتخلى عنها حسب مد الحرب وجزرها، وان تمخضت بعض الإغارات الكبرى منها عن تخريب كثير من المدن الهامة.

وكان للمسلمين أوقات معينه يغيرون فيها علي أراضى دوله الروم. بعض الإغارات تحدث في فصل الصيف وتسمي الصوائف، وأخري في الشتاء وتسمي الشواتى. فغزو الربيع يبدأ من منتصف مايو حين تكون الخيول قد سمنت وقويت من رعيها فى كلا الربيع ومراعيه، ويستمر الغزو ثلاثين يوما أى منتصف الشهر التالي. وفى هذه الإغارات تجد الخيول غذاء وفيرا فى

(١) قدامه بن جعفر، نفس المرجع ، ص٢٥٤.

مراعى الروم التى تمر بها. ثم يجنح المسلمون إلى السكينة ويريحون خيولهم من منتصف يونيو الى منتصف يوليو حيث تبدأ إغارات الصيف، وكانت هذه الحملات تستغرق ستين يوما. أما إغارات الشتاء فلم يقدم المسلمون عليها إلا فى حالات الضرورة القصوى، دون أن يمعنوا فى التوغل داخل أراضى الروم. فلم تستغرق الشواتي أكثر من عشرين يوما يأخذ فيها الجند مؤنهم الضرورية التي تقوم بأودهم خلال هذه الأسابيع الثلاثة. وكانت تلك الشواتى تقع عادة فى الفتره مابين أواخر فبراير والنصف الأول من مارس(١).

وتحتفظ المراجع العربية بسجل واف دقيق لهذه الإغارات أكثر مما دونته مراجع الروم. على أن استعراض هذه الإغارات تفصيليا يؤدى إلى التكرار الذى لا طائل من ورائه. ومن ثم يجدر الاقتصار على وصف الجو العام لحوادث الإغارات وذكر إغارتين يمكن اعتبارهما نموذجاً لأحداث ذلك العصر، مع العلم بأن هاتين الإغارتين بالذات قد ارتبطتا بما كان يموج في جوف الدولتين من حركات. فمنذ أيام الخليفة هارون الرشيد تكاد تكون إغارات المسلمين منتظمة سنوياً فى أراضى دولة الروم(٢)، عدا تلك الفترات التى انشغلت فيها السلطات الإسلامية بإخماد بعض الفتن الداخلية والقلاقل. وقد شجعت الأحوال الداخلية فى دوله الروم هارون الرشيد علي التوغل في إقليم آسيا الصغرى وحصوله على كثير من الغنائم. فكان القائم على شئون دولة الروم الإمبراطورية أيرين (Irene) الأم الوصيه على إبنها القاصر قنسطنطين السادس (٧٨٠-٧٩٧م). وكانت تلك المرأة من النسوه القلائل اللائي عرفهن التاريخ في مختلف العصور والبلاد بما اجتمع فيهن من أطماع واسعه وصفات فذه.

غير أن الأطماع السياسية والكبرياء والطموح الذي ملأ نفسه الوصيه أيرين دفعها إلى التخبط فى شئون الدولة، ذلك أنها لم تطق صبرا أن ترى إبنها قنسطنطين يبلغ سن الرشد فى الثامنه عشره من عمره وأن أصبح بذلك كفئا لتولي العرش الإمبراطورى.

---

(١) قدامه بن جعفر، الخراج، ص٢٥٩. انظر الملاحق فى آخر الكتاب، ملحق ٢.
(٢) انظر ملحق (٢).

ولم يطلق الابن الشاب بدوره أن يرى أمه تهيمن عليه وعلى الإمبراطورية، حتى غدا الاصطدام بينهما أمراً محتوما(١). فلجأت الإمبراطورة إلى تهيئة الجو لها بمسالمة الخلافة العباسية سنه ٧٨٢م، ووافقت على أن تدفع للخلافة العباسية جزية سنوية مقابل المحافظة على السلام. غير أن جيش الروم لم يرض عن هذه السياسة الخارجية التى انتهجتها الإمبراطورة أيرين، ولاسيما بعد سلسلة الحملات التي أنقذها هارون الرشيد سنه ٧٧٩م/١٧٢هـ. وساد الاعتقاد في دوائر جيش الروم بأن الكوارث الخارجية ناشئه من وجود إمرأة على رأس الدولة. فأعلنت فرق الجنود فى الأقاليم العصيان، وطلبت تنصيب قنسطنطين السادس إمبراطورا والغاء الوصاية. فاضطرت الإمبراطورة إلي التنازل مكرهة عن العرش، وظلت تنصب لابنها الشراك حتى نجحت أخيراً فى القبض عليه وهو باحدى مدن آسيا الصغرى وأمرت بسمل عينيه وكتبت عليه حياه يقضيها في الظلام(٢).

على أن ذلك لم يكن معناه استقرار الأمر لأيرين، واذ غدا العرش الإمبراطورى محط أنظار الوزراء. وانتهى الامر بأن أصبحت مسائل الدولة الخارجية مهمله، واتسع مجال المؤامرات حول الإمبراطورة حتى نجحت واحده منها علي يد تقفور ،الذي أعلن نفسه إمبراطوراً في غياب أيرين عن القسطنطينية. ونفاها سنه ٨٠٢ م(٣).

ويشتهر هذا الإمبراطور فى التاريخ الإسلامي «بكلب الروم» وهو اللقب الذى أغدقه عليه هارون الرشيد في إحدى كتبه التى بعثها اليه ردا علي تهديده للخلافة الاسلامية ومطالبته الرشيد برد مادفعته أيرين له(٤) وأهم

---

(1) Bury, op. cit, II, 433.

(2) Bury, op, cit, 285, 488.

ويلاحظ أن أيرين ظلت وصية على ابنها من سنة ٧٨٠ إلى سنة ٧٩٧م، ثم استأثرت بالسلطة من سنة ٧٩٧م إلى ٨٠٣م.

(3) Bury, Hist. of the Eastern Empire, 490.

(٤) القلقشندى، صبح الأعشى، ج١، ص١٩٢.

كتب نقفور إلى الرشيد: "أما بعد، فإن هذه المرأة وضعتك موضع الرخ، ووضعت نفسها موضع الشاه.... فادى إلى ما كانت المرأة تؤدى إليك!". فأجاب الرشيد: "بسم الله الرحمن الرحيم، من عبدالله هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، أما بعد فقد فهمت كتابك والجواب ماتراه لا ما تسمعه.

وأهم إغارات هارون الرشيد في عهد نقفور كانت فى صيف سنـــه ٨٠٦م / ١٩٠هـ عندما قاد الخليفة الجيوش الإسلامية بنفسه، ولبس قلنسوة كتب عليها «غازى حاج». وكان جيشه يبلغ ١٣٥٫٠٠٠ جندى عدا المتطوعين، واستولى على عدة معاقل هامه منها هرقله وطوانه شمال قلعه اللؤلؤة. واضطر الإمبراطور نقفور الي طلب الصلح ودفع ٥٠٫٠٠٠ دينار مقابل تخلى الخليفه هارون الرشيد عما بيده من أراضي الروم(١). ولعل فى هذا المثال مايدل على أن الخلافه العباسية لم ترسم لنفسها سياسه ثابته هدفها تقويض دعائم دوله الروم. ثم شغل هارون فى أواخر أيامه (٨٠٨ -٨٠٩م/١٩٢-١٩٣هـ) بثورات الاقاليم الشرقية من أرض الخلافة، كما تلا وفاته اضطراب الدوله الإسلامية بالخلاف بين ولديه الأمين والمأمون.

ولما استتب الأمر للمأمون بعد مقتل الأمين سنه ٨١٣م/١٩٨هـ كان عليه أن يواجه بعض الفتن العنيفة التى تجلت فى ثورة طائفة الخرمية(٢). ولكنه لم يصرف نظره تماماً عن دولة الروم. إذ انتهز إحدى الثورات الهامة التى أعلنها توماس الصقلى(٣) على الإمبراطور ميخائيل الثانى (٨٢٠-٨٢٩م) وعمل علي شد أزر هذا الثائر الإمبراطور. وكانت كل آسيا الصغري تقريبا تساعد توماس بسبب الأحوال الدينيه والاجتماعية التي سادت دوله الروم في ذلك الوقت. فقد أستانف الامبراطور ميخائيل اضطهاد عباد الصور والإيقونات مما دفع هولاء الناس، وكانوا كثيرين ولهم قادة متحمسون إلى تأييد توماس الذى ضمهم إليه باحتضان حركة المقاومه لسياسة الإمبرطور ميخائيل اللاإيقونيه(٤). ولذلك لم يكن المأمون ليغفل أمر تلك الثورة، ولم يتردد في أن يعقد حلفا مع توماس تعهد فيه بان يمده بجيش قوي يساعده علي مهاجمة

---

(١) الطبرى، نفس المرجع، ج١٠، ص٩٩.

(٢) انظر ص١٠٠، حاشية ٢.

(٣) كان توماس من أولئك الرجال الذين أمتلأت بأشباههم دولة الروم من خروج على الأباطرة ومنازعتهم السلطان. وأخذ صفة الصقلى من الجالية التى انتمى إليها والتى كانت فى آسيا الصغرى. ولكن توماس فى الحقيقة من أصل أرمنى.

(4) Vasiliev, Byzance et les Arabes, 23, 24.

القسطنطينيه. ثم اتخذ هذا الحلف صبغة شرعيه عندما توج بطرق انطاكية التابع للخلافه الاسلاميه توماس امبراطورا(١).

وعندما تحرك توماس بجيشه وأسطوله لمهاجمه القسطنطينيه لم يقدر الإمبراطور ميخائيل ما عليه منافسة من قوة وخطر. إذ أرسل جيشاً صغيراً سحقه توماس فى سهوله ويسر. على حين تقدم أسطوله آخذاً في ركابه سفن أقاليم الروم البحريه(٢).

ولم يلبث الإمبراطور ميخائيل أن أدرك منذ هزيمة جيشه خطوره توماس ولا سيما تزعمه حزب الايقونات - فجنح الي السلم مع أنصار الإيقونات ليضعف جبهة توماس، على حين ارتكب الاخير خطأ حربيا بتقدمه مباشره لحصار القسطنطينية، تاركا وراءه بقاعا فى آسيا الصغري أحتشدت فيها بعض الفرق الامبراطورية. وأخذ توماس في محاصره العاصمه براً وبحراً فى ديسمبر سنه ٨٢١م. وكان يتوقع أن تفتح له المدينه أبوابها بمجرد اقترابه منها، ولكن أمله لم يتحقق. إذ أخذ الإمبراطور تمام أهبته للدفاع عن عاصمة ملكه وفى ربيع سنه ٨٢٢م أخذ النصر يحالف الإمبراطور. فاستطاع أن يهزم جند توماس المحاصرين للمدينه برا وأنزل بأسطولهم خسارة فادحة(٣). كذلك استعان ميخائيل بالبلغار. فطاردوا فلول جيش توماس الذى ولى الأدبار لتطرق السأم والضجر بين أفراده بسبب طول الحصار وبعدهم عن وطنهم دون جدوى على أن توماس تحصن في مدينه اركاديوبوليس (لولو برجاس اليوم)، ولكن ثار أهل المدينة عليه وسلموه فى منتصف أكتوبر سنة ٨٦٣م إلى الإمبراطور ميخائيل الذى أمر بإعدامه(٤).

وبانتهاء ثورة توماس تلاشت آمال الخليفة المأمون فى إزهاق دولة الروم، على حين ظلت الخرمية تقلق باله. وكان أنصار هذه الثورة التى أعلنت فى سنة ٨١٦م/٢٠١هـ من سكان الإقليم الجبلى الواقع بين أذربيجان وبلاد

(1) Vasiliev, op, cit, 32.
(2) Ibid, 33.
(3) Ibid, 34, 35.
(4) Vasiliev, op, cit, 24, 34, 45.

وأهم إغارات هارون الرشيد في عهد نقفور كانت فى صيف سنه ٨٠٦م / ١٩٠هـ عندما قاد الخليفة الجيوش الإسلامية بنفسه، ولبس قلنسوة كتب عليها «غازى حاج». وكان جيشه يبلغ ١٢٥٫٠٠٠ جندى عدا المتطوعين، واستولى على عدة معاقل هامه منها هرقله وطوانه شمال قلعه اللؤلؤة. واضطر الإمبراطور نقفور الي طلب الصلح ودفع ٥٠٫٠٠٠ دينار مقابل تخلى الخليفه هارون الرشيد عما بيده من أراضي الروم(١). ولعل فى هذا المثال مايدل على أن الخلافه العباسية لم ترسم لنفسها سياسه ثابته هدفها تقويض دعائم دوله الروم. ثم شغل هارون فى أواخر أيامه (٨٠٨ -٨٠٩م/١٩٢-١٩٣هـ) بثورات الاقاليم الشرقية من أرض الخلافة، كما تلا وفاته اضطراب الدوله الإسلامية بالخلاف بين ولديه الأمين والمأمون.

ولما استتب الأمر للمأمون بعد مقتل الأمين سنه ٨١٣م/١٩٨هـ كان عليه أن يواجه بعض الفتن العنيفة التى تجلت فى ثورة طائفة الخرمية(٢). ولكنه لم يصرف نظره تماماً عن دولة الروم. إذ انتهز إحدى الثورات الهامة التى أعلنها توماس الصقلى(٣) على الإمبراطور ميخائيل الثانى (٨٢٠-٨٢٩م) وعمل علي شد أزر هذا الثائر الإمبراطور. وكانت كل آسيا الصغري تقريبا تساعد توماس بسبب الأحوال الدينيه والاجتماعية التي سادت دوله الروم في ذلك الوقت. فقد أستانف الامبراطور ميخائيل اضطهاد عباد الصور والإيقونات مما دفع هولاء الناس، وكانوا كثيرين ولهم قادة متحمسون إلى تأييد توماس الذى ضمهم إليه باحتضان حركة المقاومه لسياسة الإمبرطور ميخائيل اللاإيقونيه(٤). ولذلك لم يكن المأمون ليغفل أمر تلك الثورة، ولم يتردد في أن يعقد حلفا مع توماس تعهد فيه بان يمده بجيش قوي يساعده علي مهاجمة

(١) الطبرى، نفس المرجع، ج١٠، ص٩٩.

(٢) انظر ص١٠٠، حاشية٢.

(٣) كان توماس من أولئك الرجال الذين امتلأت بأشباههم دولة الروم من خروج على الأباطرة ومنازعتهم السلطان. وأخذ صفة الصقلى من الجالية التى انتمى إليها والتى كانت فى آسيا الصغرى. ولكن توماس فى الحقيقة من أصل أرمنى.

(4) Vasiliev, Byzance et les Arabes, 23, 24.

قوات المعتصم كلها مشغولة بحرب الخرمية. وكان بابك يرمى من وراء ذلك أن يضطر الخليفة المعتصم حين يعلم بغزو الروم لأراضيه إلى سحب جزء من جيشه لمواجهة ذلك الخطر، ويخف بذلك العبء عن الخرمية. ولبى الإمبراطور تيوفيل دعوة بابك، وأعد جيشاً بلغ ١٠٠ر٠٠٠ رجل اتجه به إلى حصن زبطره، الذى يقع فى ثغور الجزيرة قرب الحدود بين الدولتين الإسلامية والروم.

وكانت الخطة الرئيسية لحملة تيوفيل ترمى إلى الاتجاه إلى أعالى الفرات أملا فى الاتصال بثوار أرمينيا وأذربيجان. وتمخضت هذه الإغارة عن إشغال النار فى زبطرة سنة ٨٢٨م/٢٢٣هـ، وقتل الذكور من أهلها وأخذ كثير من نسائها وأطفالها أسرى، وقنع الإمبراطور بعد ذلك بالعودة إلى بلاده مظفراً.(١).

على أن المعتصم لم يعجل بالانتقام وآثر أولا القضاء على ثورة بابك. وضيق عليه الخناق حتى تمكن من القضاء عليه فى نهاية نفس السنة (٨٣٨م) التى خرب فيها الإمبراطور توفيل زبطره. وبذلك استطاع المعتصم أن يتفرغ لتنفيذ الخطة التى بيتها للانتقام، والتى هدفت إلى تخريب عمورية موطن الأسرة المالكة فى دولة الروم للحط من شأنها. فكانت عمورية يومئذ فى أعز أيامها إذ من المحتمل أن الإمبراطور ميخائيل الثانى جعلها أسقفية مستقلة بنفسها، ثم شيد لها فيما بعد حصن منيع.

أعد المعتصم سنة ٨٣٨م/٢٦٢هـ ثلاثة جيوش لغزو آسيا الصغرى، سار أحدها تحت قيادة الأفشين عبر جبال طوروس من درب الحديث، وزحف الجيشان الآخران تحت قيادة الخليفة نفسه وتقاند آشناس عبر أبواب قليتيا، واتخذت تلك الجيوش الثلاثة أنقره نقطة التلاقى قبل الزحف على عمورية(٢). على أن إمبراطور الروم علم بخطة المسلمين وأنهم يريدون

---

(١) ابن الأثير، نفس المرجع، ج٦، ص١٧٦.

(٢) الطبرى، نفس المرجع، ج١٠، ص٣٣٥.

(Bury, The Mutasim's March Through Capadocia, 120

الاستيلاء على أنقره. فجمع قواته عند نهر هاليس (Halys) حيث قدر أن المسلمين سوف يزحفون عن طريق ساندوس - بارناسوس (Soandos-Parnassos)، الذى يسير قرب ذلك النهر، وبذلك يستطيع قطع الطريق على الجيوش الإسلامية. وعلم الخليفة بدوره حركات الروم وعمل على استجلاء كنه موقفهم قبل التقدم صوب أنقرة. فأرسل إلى أشناس الذى كان يزحف بجيشه أمام قوات الخليفة يأمره بالوقوف وأن يحاول أسر بعض رجال العدو ليعرف منهم مكان معسكر الإمبراطور وجيشه، وكان آشناس إذ ذاك فى منطقة تسمى مرج الأسقف والخليفة فى إحدى جهات تلك المنطقة وتسمى المطامير. فبعث آشناس أحد رجاله ويسمى عمر الفرغانى فى قوة عددها مائتا فارس(١) لاستطلاع تلك المنطقة. واتجه عمر فى إلى قلعة قرة التى كانت مقراً لحاكم حدود إقليم قبادوقيا، معتقداً أن ذلك الحاكم وجنده لابد أن يكونوا على علم بموقع قوات الإمبراطور، لما تتمتع به قلعتهم من مكانة إستراتيجية هامة.

وتمكن عمر من أسر أحد فرسان الروم من منطقة قلعة قرة وقفل به راجعاً(٢). وعلم آشناس باستجواب الأسير أن الإمبراطور عسكر وراء الهاليس مدة ثلاثين يوماً يرقب عبور المعتصم للوثوب عليه، ولكن عندما وصلته الأنباء بدخول جند الأفشين أرض دولة الروم فى اتجاه منفرد اتجه للقضاء عليها فاسرع آشناس بإرسال الأنباء إلى الخليفة، ولكن لم يستطع إبلاغها إلى الأفشين الذى كان قد التقى بالإمبراطور وأوقع هزيمة فتحت الطريق لأنقرة. وسرعان ما استولى المسلمون على هذه المدينة واتجهوا بعدها إلى عمورية(٣). ووصلت جيوش المسلمين إليها بعد مسيرة سبعة ايام، واستطاعت اقتحام المدينة وأعملت فيها التخريب والقتل. وهناك شفى المعتصم غلة وانتقامه من زبطره

(١) الطبري، نفس المرجع، ج١٠، ص٣٣٦.
Bury, op, cit, 121, 123.

(٢) الطبرى، نفس المرجع، ج١٠، ص٣٣٦.
Vasiliev, op, cit, 164, 150.

(٣) الطبرى، نفس المرجع، ج١٠، ص٣٣٧.
Bury, op, cit, 125.



إقليم العواصم والثغور وبنود آسيا الصغرى

وأخذ منها كثيراً من الأسرى، ثم فكر فى متابعة انتصاراته بالزحف على القسطنطينية، لكنه اضطر إلى العودة إلى بلاد، إذ ترامت إليه أنباء مؤامرة تدبر لخلعه. ولم يلبث أن توفى سنة ٩٤٢م/٢٢٧هـ حيث تبعه فى نفس السنة الإمبراطور تيوفيل، الذى قضى نحبه مهموماً لفشل سياسته الخارجية.

والخلاصة أن حروب الصوائف والشواتى لم تتمخض عن نتائج ذات قيمة كبيرة سواء للمسلمين أو الروم. فقد ظل خط الحدود بينهما فى أخذ ورد دون أن يستطيع أحد الفريقين السيطرة التامة على معاقله ودروبه، كما أن نجاح إحدى الإغارات أو غيرها كان متوقفاً على الأحوال الداخلية عند الفريقين المتنازعين. ولكن إذا كانت الجهة الشرقية من ميدان الصراع بين المسلمين والروم لم تتغير تغيراً واضحاً نتيجة الحركات الحربية بينهما فإن أثر أحداث هذه الجبهة تردد صداه فى النشاط البحرى بين هذين الفريقين.

الإغارات البحرية:

شهدت الأيام الأولى من تولى العباسيين الخلافة مطلع نشاط بحرى قوامه شن إغارات ضيقة النطاق لم تلبث أن تطورت إلى حركات بحرية منظمة أختلفت آثارها عن نتائج الإغارات البرية على أرض دولة الروم. فمن ذلك أن القائد المسلم ثمامة بن وقاص، وهو باناكيس (Banaces) فى تاريخ تيوفانيز، قام بحملة برية بحرية سنة ٧٧٣م/١٥٧هـ على شواطىء إقليم إيسورة بآسيا الصغرى للإغارة على بعض المدن الساحلية. فأرسل الإمبراطور قسطنطين الخامس (٧٤٠-٧٧٥م) أوامره إلى الجيش والأسطول المقيم فى آسيا الصغرى بالتوجه إلى إقليم إيسورة وقطع خط الرجعة على ثمامة. واستطاعت سفن الروم احتلال المياه الإقليمية لشاطىء إيسورة عند مدينة سيس (Syce) وقطعت الأتصال بين ثمامة وبين سفن الشام التى أبحرت معه. على حين ألقى جيش الروم الحصار على قوات ثمامة البرية(١). وإذا كان ثمامة استطاع أن

(1) Theophanes, Chrongraphia, 375.

كان أسطول الروم ينقسم قسمين، الأول الأسطول الإمبراطورى ومقره مياه القسطنطينية ويعهد إليه بالدفاع عن العاصمة. والقسم الثانى هو أسطول القاليم. وكان الأخير يضم أسطول إقليم "كبيرا Kibyrrhaeot" فى غرب آسيا الصغرى، وأسطول جزر بحر إيجه، وهذه الأساطيل الأخيرة هى التى وقفت بالمرصاد لنشاط السفن الإسلامية واشتبكت معها مراراً.

يفلت من حلقة الحصار البرى والبحرى التى فرضت حوله فإن الجدير بالملاحظة هنا هو ظهور نشاط أساطيل المسلمين والروم لشد أزر الحركات البرية.

على أن الإغارات البحرية أخذت تظهر بصورة جلية منذ عهد الخليفة هارون الرشيد، فى الوقت الذى اشتدت فيه الإغارات الإسلامية البرية. وكانت خطط الفريقين البحرية تعتمد على مراقبة سواحلهما والانقضاض على أهدافها فجأة. فمن ذلك أن أسطول الروم الذى كان يراقب شواطىء البحر الأبيض المتوسط الشرقى التابعة للخلافة العباسية، أسر فى سنة ٧٩٠م بضع سفن إسلامية وهى فى طريقها من مصر إلى الشام(١). ولكن حدث فى تلك السنة نفسها أن أغار أسطول إسلامى على قبرص(٢). وربما كان أسطول الروم الذى أسر السفن المصرية السالفة الذكر يراقب حملة إسلامية بحرية مزمعاً قيامها على قبرص. على أن انشغال سفن الروم مكن الأسطول الإسلامى من إنزال قواته فى الجزيرة. ولما علمت الإمبراطورة أيرين بأنباء الحملة الإسلامية، أرسلت قسماً من أسطول الروم وصل سريعاً إلى مياه قبرص. غير أن أمير البحر على سفن الروم تعجل مهاجمة السفن الإسلامية، فلقى هزيمة منكرة ووقع فيها أسيراً فى قبضة المسلمين. وعاد المسلمون من إغارتهم ومعهم أمير البحر على سفن الروم، الذى أمر الخليفة هارون بقتله لرفضه التعاون مع المسلمين(٣).

وفى سنة ٨٠٦/١٩٠هـ، بعث هارون بحملة بحرية أخرى أغارت على قبرص وأعملت التخريب والتدمير فيها، وعادت بأسرى وغنائم وفيرة(٤)، وفى السنة التالية كذلك (٨٠٧م/١٩١هـ) قامت إغارة إسلامية أخرى على جزيرة رودس وعادت محملة بالغنائم والأسرى(٥). على أن إغارات المسلمين

(1) Brooks, The relation between Egtpt and the Empire, 385.

(2) Theophanes, op, cit, 392.

(3) Ibid, 3920

(٤) الطبرى، نفس المرجع، ج١٠، ص٩٨،٩٩.

(5) Cedenus, Annals, 493.

البحرية توقفت مثل إغاراتهم البرية على الحدود الشرقية بين دولتهم والروم إبان إنشغال هارون الرشيد فى أواخر أيامه بالفتن والقلاقل، وكذلك طول فترة الخلف بين ولديه الأمين والمأمون.

غير أن مجرى الأحداث أبى أن يجعل فترة الركود الأخيرة بداية لنشاط بحرى إسلامى حمل لواءه مهاجرون من بلاد الأندلس. ففى سنة (٨١٤م/١٩٩هـ) ثار أهل قرطبة على الخليفة الحكم الأموى. ولكن هذا الخليفة استطاع بدهائه أن يقضى على الثورة، إذ أشعل النار فى الحى الذى كان يقطنه معظم الثوار مما حملهم على الإسراع لنجدة نسائهم وأطفالهم. ثم انتهز الخليفة هذه الفرصة وهاجم الثوار وأوقع بهم هزيمة نكراء. ولم يكتف الحكم بذلك. وإنما قرر أن يدمر حى الثوار تدميراً تاماً، وأمر من بقى من سكانه على قيد الحياه أن يغادر أسبانيا خلال ثلاثة أيام. وأن يصلب من يوجد منهم بعد هذه المهلة. فجمع أولئك السكان نساءهم وأطفالهم وما استطاعوا حمله من المال والمتاع وأبحروا إلى شواطىء أفريقيا، على حين قصد قسم منهم يبلغ خمسة عشر ألفا أرض مصر(١). واستقروا فى ضواحى الإسكندرية سنة ٨١٤/٨١٥م(١٩٩هـ). ولكنهم سرعان ما أحتلوا المدينة سنة ٨١٦م/٢٠٠هـ منتهزين فرصة إنشغال المصريين بثورتهم ضد العباسيين، زمن الخليفة المأمون العباسى. ولما استتب الأمر للمأمون فى أقاليم الدولة الشرقية بعث قائده عبدالله ابن طاهر بن الحسين سنة (٨٢٥/٢٠٩هـ) إلى مصر حيث نجح فى إخماد القلاقل هناك. ثم أتجه إلى الإسكندرية وطلب من الأندلسيين مغادرتها. على أن ينزلوا إقليماً من أقاليم الروم غير خاضع لحركات الدولة الإسلامية البحرية. فقبلوا مغادرة الإسكندرية (يونيو٨٢٨م/ ربيع الأول ٢١٢هـ) إلى جزيرة كريت(٢). إحدى الجزر اليونانية الكبرى وأكثرها ثراء.

---

(١) الكندى، تاريخ الولاة والقضاه، ص١٦٣.

(٢) الكندى، نفس المرجع، ص١٨٠.

(٣) الطبرى، نفس المرجع، ج١٠، ص٢٧٥،٢٧٦.

ولم يكن ذلك الاختيار ارتجالياً، إذ أرسل الأندلسيون سنة ٨٢٦م/٢١١هـ من الإسكندرية عدة سفن أغارت على كريت وعادت محملة بالأسرى والغنائم والكثير من المعلومات عن تلك الجزيرة، ولم يلق الأندلسيون أية مقاومة عندما نزلوا فى كريت نهائياً سنة ٨٢٨م إذ كانت دولة الروم فى شغل بالجبهة الشرقية والقلاقل هناك(١). وكذلك لم يبد سكان الجزيرة معارضة لأنهم كانوا حانقين على إدارة الروم لاستعمالها القسوة والبطش فى الحركة اللاإيقونية. واتضح عزم أولئك المهاجرين على اتخاذ كريت وطناً مستقراً لهم حين شيدوا حصناً منيعاً لهم حاطوه بخندق عميق واتخذوه عاصمة لهم أو حاضره لملكهم على نهج السياسة الإسلامية العامة، التى سار عليها الفاتحون المسلمون فى الأقطار التى استولوا عليها. وسميت هذه العاصمة بالخندق نسبة إلى الخندق الذى أحاط بها(٢)، ولايزال إسم هذه المدينة حتى أيامنا الحاضرة معروف بذلك (Candia).

لكن دولة الروم سرعان ما تنبهت إلى خطورة إستقرار المسلمين فى جزيرة كريت. وعول الإمبراطور ميخائيل الثانى على انتزاعها من أيدى أولئك الأندلسيين. بيد أن الحوادث دلت على أن كريت غدت معقلا بحرياً إسلامياً منيعاً ضد إغارات الروم البحرية، ثم بعث أساطيله فيما بعد تنتقم من أراضى الروم وتعمل فيها السلب والتخريب. ففى سنة ٨٢٨م وقف قائد الروم فوتيناس (Photicas) عاجزاً عن مهاجمة كريت. وعندما أمده الإمبراطور بجيش كبير تحت قيادة دميان (Damian) وهاجم الجزيرة منى بهزيمة ساحقة جرح فيها داميان ووقع أسيراً، على حين لم ينج فوتنياس من الأسر إلا بصعوبة(٣). ولكن ميخائيل لم يستسلم، إذ أرسل إلى كريت حملة بحرية أخرى على جانب كبير من الأهبة وكمال العدة. وحارب الروم مسلمى كريت بشجاعة وبأس من

(1) Vasiliev, op, cit, 54.
(2) Cedrenus, op, cit, 418.
(3) Ibid. 418.

مطلع الشمس إلى مغربها، وانتهى الأمر بفرار المسلمين عند سدول الليل تاركين أسلحتهم. على أن الروم قنعوا بما نالوه من نصر، وأجلوا متابعة الأعمال الحربية إلى الغد اعتماداً على إنهيار المسلمين، لكن غافل المسلمون جند الروم وهاجموهم فى جنح الليل وأجهزوا على الكثير منهم، وولى قائد الروم هارباً، غير أن سفن كريت أدركته عند جزيرة كوس وقبضت عليه حيث قتل(١) وهكذا توالى فشل الإمبراطور ميخائيل الثانى فى استرداد كريت، وأقلع نهائياً عن القيام بأية محاولة أخرى فى هذا الصدد، لاسيما بعد أن انتهت على غير جدوى إحدى حملاته الكبرى التى بعثها لاسترداد كريت فى عام ٨٢٩م تحت قيادة أمير البحر أوريفاس(٢) (Oryphas).

وبينما كانت دولة الروم تعانى متاعب جمة من جراء ضياع جزيرة كريت فى شرق البحر الأبيض المتوسط تعرض إقليم آخر من أقاليمها وهى جزيرة صقلية لغزوات مسلمى شمال إفريقيه. ففى سنة (٨٢٨م/٢١٢هـ) أرسل زيادة الله الأول الأغلبى (٨١٧-٨٣٨م/٢٠١-٢٢٣هـ) سبعين سفينة أقلت نحواً من ١٠,٠٠٠ فارس لغزو صقلية تحت ستار مساعدة أحد الثائرين فيها على حكومة الروم. وإذا كانت هذه الحملة تعتبر بداية الاستيلاء على أرض هذه الجزيرة وتثبيت أقدام المسلمين فيها فإن دولة الروم لم توجه جهوداً محسوسة للدفاع عن هذه الجزيرة إلا بمقدار ما سمحت به مشاكلها فى حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى، وكذلك على حدودها الشرقية المتاخمة للدولة الإسلامية. ولذلك اعتبرت دولة الروم أحداث التوسع الإسلامى فى صقلية أمراً ثانوياً بالنسبة لأخطار الإغارات البحرية التى سنها مسلمو كريت على أراضيها الساحلية. ففى سنة ٨٦٢م امتدت حركات مسلمى كريت إلى جزائر اليونان وبحر إيجه. وأزعج ذلك الروم ولا سيما أن الجرأة حملت المسلمين فى بعض الأحيان على الاقتراب من مياه القسطنطينية. على أن مجهودات الروم لكسر شوكة هذه الإغارات البحرية باءت بالفشل بسبب اضطراب إدارتهم، وتفشى

(1) Ced enus, op, cit, 420.
(2) Ibid, 420.

عوامل الدس والمؤامرات فى القصر الإمبراطورى. ففى سنة ٨٦٦م أعدت حملة كبرى تحت قيادة برداس، عم الإمبراطور ميخائيل الثالث (٨٤٢-٨٦٧م) وأعظم شخصيات عصره. لكن أحد ندماء الإمبراطور ويدعى باسل - وهو مؤسس الأسرة المقدونية فيما بعد - رغب فى أن يخلو له الجو ويزيل من طريقه أى منافس خطر. فانتهز فرصة دخول برداس على الإمبراطور يستأذنه فى السفر إلى كريت، وبيت له مؤامرة إشترك فيها الإمبراطور بنفسه انتهت بقتل برداس(١). وهكذا ظل مسلمو كريت يتابعون إغارتهم دون خوف أو وجل.

تبادل الأسرى (الفداء):

يرتبط بقصة الإغارات البرية والبحرية على أراضى المسلمين والروم ظهور نظام للفداء أو تبادل الأسرى. ذلك أن تلك الإغارات اتسمت بطابع التخريب والمفاجأة وحمل الغنائم، والقبض على كثير من رعايا وجند الطرفين المتحاربين، فتطلب هذا المظهر الحربى وضع نظام خاص لمعاملة الأسرى ووسائل إطلاق سراحهم.

فكان الأسير يرسل إلى داخل البلد التى أسرته، حيث وجدت أماكن خاصة أو ثكنات لإيواء الأسرى. وكانت معسكرات الاعتقال هذه تنقسم قسمين: إحداهما خاص بكبار رجال الجيش، والآخر بعامة الجنود. ورسم لنا أحد الرحالة المسلمين، الواسعى الخبرة والاطلاع ويسمى المقدسى، صورة عن حياة الأسرى المسلمين الذين أسرتهم دولة الروم، فيقول: إن مسلمة بن عبدالملك لما غزا أرض دولة الروم اشترط على الإمبراطور أن يبنى بالقرب من قصره داراً ينزل فيها كبار أسرى المسلمين، وذلك ليكونوا تحت رعايته وإشرافه. وهؤلاء العظماء كانوا يعاملون معاملة حسنة، ولم يكلفوا أداء أى عمل. أما عامة الأسرى من المسلمين فكانوا يستجوبون لمعرفة الصنعة التى يجيدها كل واحد منهم، ويوزعون بناء على ذلك على مختلف المصانع للعمل بها. وكانت دار

(1) Cedrenus, op, cit, 465, 466.

(2) Vasiliev, op, cit, 259, 260.

خاصة يزاول فيها الأسرى سائر الصناعات تسمى دار البلاط، تشتمل على غرف واسعة يقيم فيها الأسرى كذلك(١).

وكانت دولة الروم ترعى مبادىء التعاليم الإسلامية فى معاملتها للأسرى المسلمين. فلم تكره أحداً منهم على تناول لحم الخنزير أو أى شىء يخالف السنن الإسلامية، إلى جانب ذلك لم يتعرض الأسرى المسلمون لأنواع التعذيب التى امتلأت بذكرها مراجع العصور الوسطى، فلم يثقب أنف ولاشق لسان ولافقئت عين أسير، إذ لجأت دولة الروم لهذه النماذج من التعذيب فى معاملة أسراها من أفراد القبائل وأقوام البلاد المتاخمة لحدودها الشمالية. ولعل هذه المعاملة الممتازة التى حظى بها الأسرى المسلمون ترجع إلى ما تمتعت به الدولة الإسلامية من مهابة وجلال، وإلى حسن معاملتها للأسرى الروم. فمن ذلك أن دولة الروم سمحت للأسرى المسلمين أن يزاولوا نوعاً من التجارة الداخلية درت عليهم بعض الأرباح.

ومن الطريف أن يروى فى هذا الصدد أن الأسرى مارسوا بعض الألعاب المرحة، واتخذوا منها وسيله للترفيه عن أنفسهم وللتفاؤل باقتراب تحسن مصيرهم. فيذكر المقدسى أنه كان بين قصر الملك ودار البلاط ميدان فى وسطه دكة لها درج يجتمع فيه الأسرى للعب، وينقسمون فى ذلك قسمين: أحداهما يمثل حزب الملك، والثانى يمثل حزب الوزير، ثم يرسلون خيولا تجرى حول الدكة التى تتوسط الميدان. فإن سبقت خيل الملك صاحوا منادين أن الغلبة للمسلمين. وهنا يقبل الروم المشاهدون للمباراة على الأسرى المسلمين، ويتلطفون معهم، ويغدقون عليهم الهدايا لأن الغلبة كانت لهم(٢).

ولم يحرم الأسرى الروم الذين وقعوا فى أيدى المسلمين من هذا العطف والمعاملة الحسنة. فكان لهم فى القاهرة مثلا مكان خاص يسمى «المناخ»

---

(١) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص١٤٨.
(٢) المقدسى، نفس المرجع، ص١٠٨
ابن رسته، الأعلاق النفسية، ص١٢٢،١٢٣.

ينزل فيه الأسرى من الرجال فقط، أما النساء والأطفال فكانت السلطات تعطى جزءاً منهم للخليفة(١)، وجزء يوزع على كبار رجالات الدولة.

ولم يقض الأسرى كل أيام حياتهن فى الاعتقال، وإنما كان هناك نظام دقيق للفداء بين المسلمين والروم. ولم يظهر هذا النظام بصورة واضحة إلا فى عهد الدولة العباسية بسبب الإغارات السالفة الذكر. أما فى أيام الدولة الأموية فكان الفداء فردياً، أى تبادل أسير واحد بأسير من الجانب الآخر(٢). وحرصت كل من الدولة العباسية وإمبراطورية الروم كل الحرص على سلامة كبار رجال الدولة الذين وقعوا أسرى فى أيديهما ليبادلا بهم كبار رجال دولتيهما. وكان هناك مكان خاص على شاطىء آسيا الصغرى الجنوبى يسمى اللامس، فى مقاطعة سلوقية على مسيرة يوم من طرسوس جرت فيه حركات تبادل الأسرى(٣). وأحياناً أخرى حدثت عمليات فداء على شواطىء فلسطين(٤). وكانت تسبق حركة التبادل إيفاد سفارات يشترك فيها عمال الثغور لتقرر أسس الفداء. ويتضح من هذه المفاوضات أن تبادل الأسرى كان يجرى طبقاً لقواعد مرسومة ونظم خاصة. فإذا ما نجحت المفاوضات استعد الطرفان استعداداً عظيماً للاحتفال بالتبادل. فتروى المراجع أن سفن الروم كانت تذهب إلى اللامس أو إلى شاطىء فلسطين وهى مزينة حاملة أسرى المسلمين الذى تقرر إطلاق سراحهم. وإذا ما إقتربت هذه السفن من الشواطىء الإسلامية ورآها الحراس الموكل إليهم مراقبة السواحل، دقوا الطبول إيذاناً بحضور السفن. وهنا يخرج كبار الحكام فى أبهى زينة وعليهم اللباس الحربى لمقابلتها. وكذلك كان أهالى القرى المجاورة للسواحل يخرجون زرافات ووحداناً مهرولين نحو الشاطىء لمشاهدة التبادل(٥). ويجدر أن نصف على سبيل المثال حادثة فداء سنة (٨٤٥م/٢٣١هـ) لأن ذلك يلقى ضوءاً على إدراك الملاحظات السالفة.

---

(١) المقريزى، المواعظ، ج١، ص٤٤٤.

(٢) المقريزى، المواعظ، ج٢، ص١٩١.

(٣) ياقوت، معجم البلدان، ج٧، ص٣٥١.

(٤) المقدسى، نفس المرجع، ص١٧٧.

(٥) المقدسى، نفس المرجع، ص١٧٧.

حدث ذلك الفداء في عهد الخليفة الواثق وإمبراطور الروم وقتئذ ميخائيل الثالث. ففى سنة ٨٤٥م وصل إلى بلاط الخليفة رسول من الروم مكلف باسم الإمبراطور أن يفاوض فى أمر الفداء. ولما كانت حالة الحروب والإغارات بين الدولتين قد سببت لهما كثيراً من المتاعب، رضى الخليفة بإجراء فداء وأرسل أحد رسله إلى بلاط الروم ليعرف معلومات دقيقة عن عدد الأسرى المسلمين فى الإمبراطورية، ومدى استعداد الروم لتنفيذ هذا الفداء. ودلت تحريات الرسول الإسلامى على أن عدد الأسرى المسلمين ثلاثة آلاف رجل وخمسانة أمرأة وولد، وتقرر إجراء عملية التبادل على ضفاف نهر اللامس. وحضر الفداء مسلم بن قتيبة الباهلى أمير الثغور والعواصم الإسلامية ومعه سبعة عشر فارساً، كما حضرت قوة كبيرة من المسلمين بلغت أربعة آلاف رجل(١). وكان الروم فى مثل هذا العدد وكلنهم أظهروا قلقهم من كثرة جند المسلمين، وعقدوا هدنة مداها أربعون يوماً حتى يتم تبادل الأسرى وعودتهم إلى بلادهم.

واجتمع شمل الفريقين على ضفاف نهر اللامس فى ١٦ سبتمبر سنة ٨٤٥م/٢٠ محرم سنة ٢٣١هـ، ووقف المسلمون على الجانب الشرقى للنهر والروم على الجانب الغربى. ولما بدأت عملية التبادل كادت أن تنتهى بالفشل لاختلاف رسل المسلمين مع الروم على الفداء، إذ اشترط الروم ألا يأخذوا فى الفداء أمرأة عجوزاً ولا شيخاً كبيراً ولاصبياً من فى أيديهم من الأسرى. ولكن تم الاتفاق أخيراً على فداء كل نفس بنفس. ويبدو أن عدد الأسرى المسلمين فاق الأسرى الروم، إذ اضطر الخليفة إلى شراء من كان يباع فى بغداد من الرقيق الروم، وأخرج من بلاطه كذلك من أولئك الرقيق حتى يتكافأ العددان.

ثم أقام المسلمون على النهر جسراً لهم وكذلك اتخذ الروم لأنفسهم جسراً على النهر. فكان المسلمون يطلقون أسيراً ممن فى أيديهم ويطلق الروم

---

(١) الطبرى، نفس المرجع، ص١٩.

بدورهم أسيراً ممن عندهم. فإذا اقترب المسلم من لداته قابلوه مهللين (الله أكبر) على حين يفعل الروم بأسراهم ما يشبه ذلك من عبارات التهلل. واستمر هذا الفداء أربعة أيام تم فيها أطلاق سراح نحواً من أربعة آلاف أسير مسلم بين رجال ونساء.

ويشتهر هذا الفداء بالهيئة التى عقدها الخليفة لامتحان من يطلق سراحه من السملين فى القول بخلق القرآن. فمن قال بأن القرآن مخلوق قبل المسلمون أن يرسلوا الفداء عنه، ومن رفض تركوه فى أيدى الروم(١). كذلك تميز هذا الفداء بإطلاق سراح شخصية هامة فى التاريخ الإسلامى، وهو مسلم بن أبى مسلم الجرمى، «وكان ذا محل فى الثغور ومعرفة أهل الروم وأرضها وله مصنفات فى أخبار الروم وملوكهم وذوى المراتب منهم، وبلادهم وطرقها ومسالكها، وأوقات الغزو إليها والغارات عليها، ومن جاورهم من الممالك من برجان والأبر (Avars) والبرغز (Bulgare) والصقالبة (Salvs) وغيرهم(٢)» واستمد الجغرافى ابن خرداذبه كثيراً من معلوماته عن آسيا الصغرى من الجرمى، وغدت معلوماته الأسس التى بنى عليها باقى الجغرافيين العرب مادتهم فى العصور الوسطى.

---

(١) الطبرى، نفس المرجع، ص١١، ص٢٠.

(٢) المسعودى، التنبيه والإشراف، ص١٦٢.

جهاد الدويلات الإسلامية
ضد مشاريع الروم الحربية

العنصر التركي:

يعتبر الخليفة المعتصم العباسي (٢١٨هـ/٨٣٣م) صاحب الأخبار الطوال في الدفاع عن الدولة الإسلامية ضد الروم، واضع النواة السيئة التي مزقت وحدة دولته، وخلقت عصر الدويلات الإسلامية المفككة، التي لا رابط بينها. ذلك أن هذا الخليفة عمد إلى اتخاذ حرس خاص له باستجلاب أقوام من الترك من البلاد التي نسميها «تركستان» وبلاد ما وراء النهر. ثم لم يلبث المعتصم أن اتسع في شراء المماليك الترك حتى كونوا عدداً كبير من الجيش العباسي. وكان الدافع إلى تلك الخطوة الخطيرة هو رغبة المعتصم في إضعاف كل من قادة العرب والفرس في الجيش، وإنهاء منافساتهم على السيادة، وذلك بخلق قوة تركية جديدة، يستطيع أن يسيرها كيفما شاء. وحفز الخليفة على انتقاء هذا العنصر الجديد دون سواه أن أمه (ماردة) تركية الأصل، وأعجبه بني جلدتها الذين اشتهروا بالجسامة والقوة.

ولم يكتف المعتصم بذلك وإنما عمد إلى تعليم الترك الذين جلبهم إلى عاصمته بغداد قواعد اللغة العربية وتعاليم الإسلام. حتى إذا صار الفرد منهم ذا كفاية تؤهله لتولي مناصب الدولة، سمح له بالارتقاء في مدارج الحكم حتى يتقلد إمرة الولايات الكبيرة، غير أن سياسة المعتصم انتجت نتاجاً خطيراً أصابت كلا من منصب الخلافة ووحدة الدولة الإسلامية كذلك. ذلك أن الأتراك استخفوا بسلطان الخلافة في العاصمة نفسها، وصاروا يتصرفون بطيش واستهتار بأرواح الناس. «ذلك أنهم كانوا عجماً جفاة، يركبون الدواب فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها، فيصدمون الرجل والمرأة ويطأون الصبي».

وأحس المعتصم نفسه خطورة أعمال الترك وضياع الأمر من يده فى توجيههم إلى مايقرب بينهم وبين سكان العاصمة(١). وحين وجد الخليفة ازدياد كراهية الناس لجنده من الترك اضطر إلى نقل عاصمته من بغداد إلى مدينة سامرا التى تبعد ٦٠ ميلا عن العاصمة القديمة على نهر دجلة. وكان اسم سامرا فى الأصل هو أشوريا، ولكنه تحول إلى «سر من رأى» التى قال عنها المعاصرون إذ ذاك فى سخرية أنها مشتقة من «سرور الناس» لرؤية الجند الترك بها بعيداً عن بغداد(٢). وظلت المدينة الجديدة عاصمة للدولة العباسية زهاء ستة وخمسين سنة حكم فيها ثمانية خلفاء، وكانت عهودهم عنواناً على طغيان نفوذ الترك واستبدادهم بالسلطة الفعلية من دون الخلفاء أنفسهم.

وبعد اثنتا عشرة سنة من انتقال الخلافة العباسية إلى سامرا، أى منذ مطالع حكم المتوكل بن المعتصم نفسه سنة ٢٣٢هـ/٨٤٨م زالت نهائياً هيبة الخلفاء، ولم تعد لهم أية سلطات فعلية. ذلك أن الأتراك صاروا أصحاب الكلمة العليا فى توجيه الخلفاء(٣) وفى تنصيبهم وعزلهم، حتى صار الخليفة يعيش فى عاصمته الجديدة سجيناً لايملك إلا أن يردد ما يمليه عليه قادته من الترك(٤). وإذا أظهر خليفة أى لون من الاعتداد بالنفس أو محاولة للانفراد بالأمر قتلوه، كما فعلوا بالمتوكل نفسه الذى قتل سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م.

---

(١) شكا المعتصم فى أواخر أيامه من قادته الترك، وعبر عن ذلك لأحد خاصته قائلا: "نظرت إلى أخى المأمون، وقد اصطفى أربعة من القادة انجبوا، واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم". فأجاب صديق المعتصم بقول: "يا أمير المؤمنين نظر أخوك إلى الأصول "أى اتخذ قادته من العرب) فاستعملها، فأنجبت فروعاً، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً فلم تنجب، إذ لا أصول لها (أى الترك حديثو عهد بالدولة الإسلامية وتقاليدها).

(2) Hitti, op, cit, 467.

(٣) عبر الشعراء عن ضياع سلطة الخلفاء، واستبداد الترك بهم منذ أيام الخليفة المعتصم نفسه، إذ هجاه دعبل الخزاعى قائلا:

لقد ضاع أمر الناس حيث يوسهم ... وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
وهمك تركى عليه مهانـــة ... فأنت له أم وأنت له أب

(٤) تهكم أحد الشعراء على الخليفة المستعين، وضعفه أمام الأتراك قائلا:

خليفة فى قفص ... بين وصيف وبغا
يقول ما قالا لـه ... كما يقول البغا

وكانت حادثة قتل الخليفة المتوكل إيذاناً بانتهاء مجد الخلفاءالعباسيين، ذلك أن سائر الخلفاء السابقين له تمتعوا بالهيبة والإجلال ولم يمت واحد منهم حتف أنفه إلا الأمين الذى قتل فى الحرب بينه وبين أخيه المأمون. وصارت الخلافة منذئذ قصة أشخاص يعتلون عرشها دون أن ينعموا بالسلطان. ثم ينتقلون منها إلى ظلمات القبور دون أن يعطف عليهم أحد، ولو كان من أشد أقربائهم. فقد رفضت أم الخليفة المعتز أن تفتدى ابنها بدفع دية قدرها خمسين ألف دينار، وآثرت أن يقتل الترك ابنها سنة ٢٥٦هـ/(٨٦٩م دون أن تدفع تلك الدية، على الرغم من احتفاظها تحت أرض حجرتها بما يقرب من مليون دينار، عدا ما عندها من المجوهرات.

ولم تسترد الخلافة هيبتها بعد عودتها إلى بغداد أيام «المعتضد» ٢٧٩هـ/٨٩٢م، إذ تابع جند الترك سياسة الطغيان، والاستهانة بالخلفاء، حتى إن ابن المعتز تولى الخلافة يوماً واحداً (سنة ٢٩٥هـ/٩٠٨م)، على حين لم يجد آخر شيئاً من المال فى يده، على الرغم من أنه صاحب الخراج فى الدولة والآمر بجبايته. وكان أخف عقاب ينزله الترك بالعصاه من الخلفاء هو سمل عينى المعاند والسماح له بقضاء البقية الباقية من حياته فى مملكة الظلام(١).

ورأى الأتراك أخيراً أن يتخلصوا نهائياً من كل ظل للخلافة برغم ضعف الأشخاص الذين تولوا أمرها، واتجهوا إلى أختيار أطفال لا حول لهم ولاطول، يصرفون باسمهم شئون الدولة. ومن ذلك أنهم عهدوا بالخلافة سنة ٢٩٥هـ/٩٠٨م إلى صبى فى الثالثة عشر من عمره، وهو جعفر بن المعتضد ولقبوه بالمقتدر سخرية، حيث لم يكن له مطلقاً من أسمه نصيب. وفى عهد هذا الخليفة الصغير السن هوت الخلافة إلى أحط درجاتها، إذ منح المقتدر قائده التركى «مؤنس المظفر» لقباً كان جديداً تماماً فى الدولة الإسلامية وهو «أمير الأمراء». وجاءت تلك الخطوة خاتمة للبقية الباقية من مظاهر السلطان

---

(١) حدث هذا للخليفة المستكفى، الذى اضطر فى أواخر أيامه إلى أن يستجدى الناس على باب جامع بغداد.

فى أيدى الخلفاء العباسيين، إذ صار أمير الأمراء هو الحاكم بأمره. والمتصرف الوحيد فى شئون الدولة من دون الخليفة.

وزاد طغيان أمير الأمراء حتى أن القائم بهذا المنصب فى عهد الخليفة الراضى (٣٢٢هـ/٩٣٤م) أمر بذكر اسمه فى خطبة الجمعة إلى جوار اسم الخليفة. وكان هذا العمل أول خطوة جريئة لإعلان إنهيار سلطان الخلافة رسمياً، حيث لم يستطع أحد من قبل ذلك أن يقرن اسمه إلى جوار اسم الخليفة فى وضع رسمى علنى. وبموت الخليفة الراضى (٣٢٩هـ/٩٤٠م) انتهى مجد الخلفاء العباسيين اسماً وفعلا، وصار منصب أمير الأمراء هو الأعلى فى الدولة الإسلامية. وظل قادة الأتراك يتوارثون هذا المنصب بأبهته وجلاله، حتى انتزعه منهم البويهيون(١)، الذين سيطروا على مقاليد الأمور فى بغداد سنة (٣٣٤هـ/٩٤٥م). فى عهد الخليفة المستكفى.

على أن الظاهرة الأخرى الخطيرة التى أصابت الدولة الإسلامية بسبب أزدياد نفوذ الأتراك هو جنوح عمال الولايات إلى الإستقلال بشئون بلادهم، والانفصال انفصالا تاماً أو يكاد عن جسم الدولة. وتعتبر تلك الظاهرة نتاجاً طبيعياً للحادثة الأولى التى أصابت الدولة الإسلامية، وهى ضعف هيبة الخلفاء وزوال سلطان الخلافة. وكان العمال الأتراك أنفسهم هم الذين ابتدعوا تلك الظاهرة الجديدة لأول مرة، وضربوا بذلك مثلا سيئاً لغيرهم من الولاة الآخرين للسير على نهجهم. ذلك أن الخلفاء العباسيين دأبوا منذ عهد المعتصم على تقليد الأتراك مناصب الحكم العليا فى الولايات الكبرى مثل مصر، ومنحهم سلطات تجعلهم مطلقى التصرف فى شئونها أشبه بالتصرف فى الاقطاعات.

ثم لم يلبث أولئك الولاة الأتراك أن آثروا البقاء فى العاصمة، وإرسال

---

(١) ينتسب البويهيون إلى أبوشجاع بويه، الذى أدعى صلة نسبه بملوك آل ساسان. وكان زعيماً لقبيلة من الديالمة سكان المنطقة الجبلية جنوبى بحر قزوين. وقد اتجه بقبليته جنوبا ومعه أبناؤه الثلاث، واستطاع أحد أولئك الأبناء وهو أحمد بن بويه دخول بغداد سنة ٩٤٥م حيث فر الحرس التركى، وصار البويهيون سادة بغداد من دون الأتراك.

أشخاص ينوبون عنهم فى إدارة ولاياتهم وإرسال المال اللازم لهم. ومن ذلك أن «باكباك» التركى حين تقلد ولاية مصر، آثر البقاء فى العاصمة. وبعث بتركى آخر هو أحمد بن طولون ليتولى شئونها وإدارتها. ولم يلبث الوالى التركى الجديد أن دعم أقدامه فى مصر، وانتهز سوء العلاقات التى قامت بينه وبين السلطات المركزية الضعيفة فى العاصمة، وأعلن استقلاله بشئون مصر، مؤسساً بذلك الدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٨-٩٠٥م).

واتسمت تلك الدويلات الجديدة مثل الدولة الطولونية بقصر أعمارها، بسبب تنافس الولاة والحكام على الاستئثار بالسلطان. ولذا لم تعمر الدولة الطولونية غير سبعة وثلاثين عاماً. وقام على أنقاضها دولة أخرى أسسها أحد سلالة حكام فرغانة الذى دخلوا فى خدمة المعتصم أيضاً، وهو محمد بن طغج الأخشيد. إذ استطاع تأسيس دولة مستقلة له بمصر ظلت قائمة من سنة ٣٢٣هـ إلى ٣٥٨هـ (٩٣٥-٩٨٩م).

وعاصر تلك الدولة الأخشيدية دولة أخرى، ولكنها عربية الأصل، هى دولة الحمدانيين التى استقلت بشمال الشام ومنطقة الأطراف الإسلامية المجاورة لممتلكات الروم فى آسيا الصغرى. ويرجع الفضل فى تأسيس تلك الدولة الحمدانية بالشام إلى سيف الدولة الحمدانى، الذى انتقل إلى حلب واتخذها مقراً له سنة ٣٢٣هـ-٩٤٤م.

وظلت كل من الدولتين الأخشيدية والحمدانية قائمة حتى استطاع فرع من الشيعة المناوئين للبيت العباسى تأسيس دولة لهم فى بلاد المغرب من ممتلكات العباسيين وعرفت باسم الدولة الفاطمية (٢٩٧هـ/٩٠٩)، إذ استطاع الفاطميون الذين اتخذوا لأنفسهم لقب الخلفاء كذلك، إلى انتزاع الخلافة تماماً من العباسيين والاستيلاء على سائر ممتلكاتها، وفى عهد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله انتقلت حاضرة الفاطميين إلى القاهرة بعد أن أزالت جيوشهم سلطان الدولة الأخشيدية، ثم بسط الفاطميون نفوذهم بعد ذلك إلى الشام، وسيطروا على ممتلكات الحمدانيين بها أيضاً.

وبذلك صار غرب الدولة الإسلامية تتنازعه دولة مستقلة تمام الاستقلال عن الخلافة العباسية، ومناهضة لها كذلك. على حين سقط القسم الشرقي من ممتلكاتها نهباً لدويلات كان مؤسسوها فرس الأصل، ممن تطلعوا إلى إعادة مجد الساسانيين. أما الخلافة العباسية نفسها فظلت قائمة اسمياً فى بغداد لاتملك من أمرها شيئاً. وحدث ذلك فى وقت تجدد فيه عند الروم النزعة الى التوسع على حساب الدولة الإسلامية واقتطاع مايمكن اقتطاعه من متلكاتها، ومن ثم وقع عبء الدفاع عن بلاد الدولة الإسلامية على حكام تلك الدويلات التى قامت فى الشطر الغربى.

الأسرة المقدونية والدويلات الإسلامية:

كان السبب فى تجدد أطماع الروم فى أملاك الدولة الإسلامية قيام أسرة جديدة على عرش إمبراطوريتهم منذ سنة ٨٦٧م. ذلك أن أحد المغامرين ويدعى باسل المقدونى استطاع أن يخلع إمبراطور الروم ميخائيل الثالث الملقب بالسكير، ثم اعتلى العرش، مؤسساً دولة جديدة نسبت إليه وعرفت باسم الأسرة المقدونية. وقد اتجه باسل اتجاهاً حربياً ضد المسلمين منتهزاً اضطراب أحوالهم بسبب أزدياد نفوذ العنصر التركى وكثرة مفاسده. واستهل الإمبراطور باسل المقدونى نشاطه سنة ٨٧٦م بالاستيلاء على قلعة اللؤلؤة، ذلك الحصن المنيع الذى يسيطر على الطريق من طرسوس إلى القسطنطينية(١). وتوج انتصاراته فى هذا الميدان وقوع عبدالله بن كاوس والى الثغور الشامية أسيراً فى قبضته سنة ٨٧٧م/٢٦٤هـ)(٢).

على أن هذه السلسلة المتصلة الحلقات من انتصارات الروم أزعجت الخليفة العباسى المعتمد (٨٧٠-٨٩٢م/٢٥٦-٢٧٩هـ) الذى رأى أن جميع الممتلكات الإسلامية فى قليقية أصبحت مهددة بزحف الروم، لضياع قلعة اللؤلؤة من أيدى المسلمين. ولذا طلب الخليفة من أحمد بن طولون والى مصر

---

(1) Anderson, The Road System, 34.

بتولى الدفاع عن الثغور الشامية. فآثر باسل الأول مهادنة ابن طولون القوى الشكيمة، إذ أرسل إليه سنة ٨٧٧م/٢٦٥هـ عبدالله بن كاوس الذى وقع فى الأسر ومعه بضعة أسرى من المسلمين وعدة مصاحف هدية منه(١). لكن قصر عمر الدولة الطولونية وحالة الضعف التى كانت تعانيها الخلافة حينئذ بسبب شغب الجند الترك المقيمين بسامرا، وظهور حركات القرامطة فى شمال العراق وبادية الشام، ساعدت باسل الأول على أن يدفع المسلمين شرقاً على طول خط الحدود بين الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، وأن يستولى تدريجياً فى الفترة مابين ٨٧١-٨٨١م، على جميع المعابر التى كانت تنفذ منها الجيوش الإسلامية إلى آسيا الصغرى. كذلك استهل باسل الأول نشاط الروم البحرى باستيلائه على جزيرة قبرص التى ظلت تابعة لدولة الروم من سنة ٨٧٤ إلى ٨٨٧م(٢).

وحاول المسلمون القيام بهجوم مضاد لإفساد نشاط الروم، تجلى فى الحملات الإسلامية البحرية التى شنت بانتظام من جزيرة كريت على جزر الروم والسواحل المجاورة. ولذا كان على الإمبراطور ليو السادس (٧٨٠-٨٨٦م) خليفة باسل الأول أن يناهض هذه الإغارات البحرية التى اضطرت أهل الجزائر والمدن الساحلية إلى هجر بلادهم والاستقرار فى داخل البلاد فراراً من التخريب والانتقام. ونجحت سياسة ليو السادس، إذ أنشأ اسطولا قوياً ودعم القواعد البحرية فى دولته، وترك لخلفائه سياسة بحرية ثابتة إلى جانب الجيش البرى المنظم الذى خلفه أبوه باسل الأول(٣). وبذلك أمتاذ عهد الإمبراطور روماتوس الثانى (٩٥٩-٩٦٣م) بانتصارات باهرة استرد بها من المسلمين ما حصلوا عليه من أملاك دولة الروم فى أوائل القرن التاسع الميلادى. وآية هذه الانتصارات اتجاه القائد نقفور فوقاس إلى جزيرة كريت، ونجاحه فى الاستيلاء عليها وانتزاعها من أيدى المسلمين سنة ٩٦١م/٣٥٠هـ المحاولات

---

(١) ابن الأثير، نفس المرجع، ج٧، ص١١٠.

(2) Runciman, Romanus Lecaperus, 123.

(3) Vasiliev, Hist. de L'Empire Byzantin, I. 409.

برغم المحاولات الهائلة التى بذلها المسلمون للدفاع عنها. ويعتبر استرداد الروم لجزيرة كريت حدثاً هاماً فى القرن العاشر الميلادى، إذ أبعد عن أراضى الروم الأساطيل الإسلامية، كما هيأ للروم قاعدة تجارية هامة أضافت إلى مجدهم ونشاطهم التجارى(١).

وفى الفترة التى كان القائد نقفور يحارب فيها فى كريت كان أخوه ليون يقوم بمهمة مماثلة ضد الدولة الحمدانية بحلب. ذلك أن سيف الدولة الحمدانى بعد أن أمكن لنفسه فى شمال الشام، بدأ فى سنة ٩٤٧م حملاته السنوية فى آسيا الصغرى، وظل على ذلك نحواً من عشرين سنة حتى توفى. وكان الحظ حليف سيف الدولة فى بادىء الأمر، حيث استولى على مرعش وكثير من المدن الأخرى الهامة على الحدود بين المسلمين والروم. وظلت الحرب سجالا بين سيف الدولة وليون حتى أنتهى نقفور من حملاته فى كريت وانضم إلى أخيه فى آسيا الصغرى. وبذلك قويت جبهة الروم الذين أخذوا يدفعون الحمدانيين إلى الوراء حتى أنتهى الأمر بحصار سيف الدولة نفسه فى حلب واضطراره إلى الجلاء عنها سنة ٩٦٢م،٣٥١هـ تاركاً للروم هذه المدينة الهامة فى ميدان النشاط الحربى والتجارى(٢). وجلعت هذه الانتصارات من نقفور أعظم رجل فى الدولة حتى تمكن من اعتلاء العرش الإمبراطورى بعد وفاة روماتوس الثانى.

ولم يهمل الإمبراطور نقفور(٩٦٣-٩٧٩م) بعد توليته العرش سياسته إزاء الدولة الإسلامية. فتابع حملاته الحربية براً وبحراً، وظل النصر يسير فى ركابه من سنة ٩٦٤ إلى ٩٦٩م، حتى توج مجهوداته بالاستيلاء على أنطاكية التى ضارعت القسطنطينية فى شهرتها، حيث كانت مدينة البطارقة والقديسين والمجامع الدينية. وبعد احتلال أنطاكية بفترة قصيرة دخل أحد قواد نقفور مدينة حلب مرة أخرى وأكره ابن سيف الدولة وخليفته سعد الدولة (٩٦٧-٩٩١م/٣٥٦-٣٨٠هـ) على إبرام معاهدة صلح(٣).

---

(1) Vasliev, op, cit, 407.

(2) Vasiliev, op, cit, 408.

(3) Vasiliev, op, cit, 408,409.

على أن السنوات الأخيرة من عهد الإمبراطور نقفور شاهدت دخول دولة إسلامية جديدة، وهى خلافة الفاطميين بشمالى أفريقيا حلبة النزاع مع الروم، إذ بسطت هذه الدولة نفوذها على مصر (٦٩٨م/٣٥٨هـ)، ثم لم تلبث أن نقلت مقر حكمها إلى القاهرة (٩٧٣م/٣٦٢هـ)، وغدت حاملة لواء الحرب ضد دولة الروم. وكانت سياسة الدولة الفاطمية إزاء الروم تقود على أسس وقواعد مقرره. فهدفت إلى استعادة البلاد التى ضاعت من المسلمين فى شمال الشام، وهى حلب وأنطاكية تمكيناً لنفسها، ورغبة فى أن تظهر بمظهر حامية الإسلام والمصالح الإسلامية من دون الخلافة العباسية.

وبدأت الدولة الفاطمية فى تنفيذ سياستها حين أرسل الخليفة المعز أحد قواده لاسترداد أنطاكية (سنة ٩٧١م/٣٩٠هـ) من الروم. وكان يدير شئون دولة الروم إذ ذاك إمبراطور من الرجال الحربيين الممتازين يسمى حنا تزمسكيس (٩٦٩-٩٧٧م). وكاد القائد الفاطمى ينجح فى مهمته لولا مهاجمة القرامطة (١) للجيوش الفاطمية وحملها على التقهقر إلى مصر.

وتلا هجمات القرامطة نشاط حملات الروم على الأراضى الإسلامية، فقاد حنا تزمسكيس حملة بنفسه، وتوغل داخل الأراضى الإسلامية حتى بلغ كثيراً من المدن مثل نصيبين ومبافارقين والرها وملطية. وكانت هذه الحملة من الشدة بحيث أن ثورة قامت فى بغداد تطلب من الخليفة العباسى إعلان الجهاد، على حين تابع حنا تزمسكيس زحفه سنة ٩٧٤م. وبرأسه مشروع جـــرىء،

---

(١) عندما فشل الشيعة فى نقل الخلافة إلى العلويين بعد سقوط الدولة الأموية، ثاروا ضد العباسيين. وحوالى منتصف القرن التاسع الميلادى استطاع عبدالله بن ميمون القداح أن ينشر دعوة الشيعة فى شمال إفريقيا، ثم نجح خلفاؤه فى تأسيس دولة لهم هناك عرفت باسم الخلافة الفاطمية، وبسطت سلطانها على مصر فى القرن العاشر الميلادى. وكان القرامطة فرعاً آخر من الشيعة، غدا ذا بطش وسلطان فى إقليم البحرين وبين القبائل العربية الضاربة على الحدود الشامية. وعلى الرغم مما كان منتظراً من تعاون هذين الفرعين الشيعيين دب الخلاف بينهما عندما بسط الفاطميون سلطانهم على دمشق ومنعوا الاتاوة التى كانت ترسل إلى القرامطة. وكان ذلك السبب الذى حمل القرامطة على مهاجمة الجيوش الفاطمية وإفساد خططها فى مهاجمة الروم.

وهو استرجاع بيت المقدس من المسلمين. ويعتبر حنا تزمسكيس بذلك أول من فكر فى مشروع الحروب الصليبية المعروفة فى غربى أوربا بنحو مائة سنة تقريباً(١). ولتنفيذ مشروعه تقدم حنا تزمسكيس فى أوائل سنة ٩٧٦م من أنطاكية إلى حمص، ومنها إلى بعلبك، وسلمت له دمشق، ووعده أهلها بدفع جزية سنوية. ثم سار بعد ذلك إلى شمالى فلسطين وسلمت له طبرية والناصرة وقيصرية. وأرسلت إليه مدينة بيت المقدس نفسها تطلب الآمان. على أن الإمبراطور لم يكن متأكداً من مقدرة قادته على متابعة مشروعه الحربى والتقدم جنوباً للاستيلاء على بيت المقدس ذلك أن الدولة الفاطمية برغم هجمات القرامطة وتعثرها بنشاطهم، كانت من القوة بحيث يجب على الإمبراطور أن يعمل لها حساباً ولذا تحول الإمبراطور شمالاً، واستولى على عدة مدن ساحلية بالشام، مثل بيروت وصيدا. ولكن عند طرابلس صدقت مخاوف حنا تزمسكيس من قوة الفاطميين، إذ نالته هزيمة عند هذه المدينة التى كان يشد أزرها أسطول فاطمى. فقفل الإمبراطور راجعاً إلى القسطنطينية وتوفى فجأة سنة ٩٧٦م(٢).

وبدأت الدولة الفاطمية من جديد(٩٩٥م/٣٨٥هـ) سياسة استرداد الأراضى الإسلامية التى أستولى عليها الروم حديثاً. فاستولت جيوشها على حلب وحمص وشيرز، ولكن جاء الإمبراطور باسل الثانى(٩٩٩م/٣٩٠هـ) إلى الشام لامتداد العلميات الحربية الفاطمية إلى أنطاكية، واستطاع أن يوقف زحفهم. ثم جاشت بنفسه المطامع، فتقدم لينتزع من الفاطميين مدينة طرابلس ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها(٣) أو أن يتقدم خطوة أخرى إلى مابعدها. ولذا عقدت معاهدة بين الإمبراطور باسل الثانى والخليفة الحاكم بأمر الله كفلت حسن العلاقات بينهما حتى أواخر عهد هذا الامبراطور(٤). ولما تولى الخليفة

---

(١) أبوالمحاسن، نفس المرجع، ج٤، ص٩٥.

Vasiliev, op. cit, 410.

(2) Vasiliev, op. cit, 410, 411.

Brehier, vie et Mo't de Bvzance, 206.

(٣) أبوالمحاسن، ج٤، ص١٢٠، ١٢١.

(4) Berhier, op, cit, 228,229.

الظاهر الفاطمى (١٠٢٠-١٠٣٥م/٤١١-٤٢٧هـ) استمرت العلاقات ودية بين الدولتين، وعقدت بينهما اتفاقية سنة(١٠٢٧م/٤١٨هـ) نصت على أن يخطب باسم الخليفة الفاطمى فى مسجد القسطنطينية، ويعاد بناؤها مقابل إعادة بناء كنسية القيامة ببيت المقدس التى هدمها الخليفة الحاكم الفاطمى فى ثورته النفسية الجامحه.

وبذلك كانت الدولة الفاطمية التى ينظر إليها دائماً أنها دولة شيعية آذت الوحدة الإسلامية - هى صاحبة الفضل فى منع تقدم الروم إلى البلاد الإسلامية فى القرن العاشر الميلادى، فى وقت لم يكن فى استطاعة الدولة العباسية أن تقاوم جيوش الروم مقاومة جدية. كذلك اتسمت سياسة خلفائها بتفضيل السلم على الحرب مع أباطرة دولة الروم، والعمل على أن يعيشا جنباً إلى جنب على قاعدة الإخاء والمحبة والاحترام المتبادل.

على أن هذه السياسة لم تدم طويلا، إذ لاح فى الأفق الشرقى من الدولة الإسلامية خطر السلاجقة وبسط سلطانهم على الخلافة العباسية، وامتداد هذا الخطر إلى كل من الفاطميين والروم.

وقد ظهر السلاجقة على مسرح التاريخ فى عصر ساده العداء بين الخلافة العباسية السنية والخلافة الفاطمية الشيعية، ولعبوا دوراً هاماً فى هذا الصراع، وكان لنشأتهم أثر فى توجيه نشاطهم، ففى ٩٥٦م تزعم شخص يدعى سلجوق قبيلة من الأتراك الغزمن برارى القرغيز فى تركستان، وأقام مع قبيلته فى بخارى حيث اعتنقوا الإسلام على المذهب السنى. واستطاع أحفاد سلجوق أن يرفعوا من شأن قبيلتهم ويوسعوا نفوذها حتى تمكن أحد أولئك الأحفاد ويدعى طغرل من دخول بغداد سنة ١٠٥٥م. وهناك استقبله الخليفة القائم العباسى بالترحاب باعتباره منقذاً ومدافعاً عن السنة واعترف به سلطاناً. كما منحه لقب «ملك الشرق والغرب»، واستغل السلاجقة مركزهم فى بغداد إلى جانب الخلافة العباسية وعمدوا إلى توسيع سلطاتها. على أن السلاجقة لم يقصدوا إلى تقوية مركز الخليفة العباسى نفسه، وإنما عمدوا إلى نشر المذهب

السنى الذى دانت به الخلافة العباسية، ومحاربة الفاطميين الشيعة أملا فى إعادة الوحدة للدولة الإسلامية.

وفى عهد خليفة طغرل المسمى ألب أرسلان (١٠٦٣-١٠٧٢م) بدأ السلاجقة ضرباتهم ضد الفاطميين والروم. ففى سنة ١٠٧٠م استطاع أحد قادة ألب أرسلان الاستيلاء على بيت المقدس من الفاطميين، وظل يتابع نشاطه حتى توجه بعد خمس سنوات أخرى بالسيطرة على دمشق، وفى تلك الأثناء كان ألب أرسلان نفسه يتابع جهاد المسلمين ضد الروم، وكسب أول نصر مظفر فى معركة منزكرت (١٠٧١م) التى وقع فيها إمبراطور الروم رومانوس ديوجين أسيراً(١). وكان لهذه الواقعة صدى كبير فى دولة الروم، إذ ضاعت آسيا الصغرى نهائياً من أيدى الروم وفقدوا أهم ركن فى صرح إمبراطوريتهم. وتعتبر هذه المعركة بداية نهاية دولة الروم التى ساهم فيها النورمان كذلك.

ولاح فى نفس الوقت فى الأفق الغربى من إمبراطورية الروم خطر النورمان وزحفه على أراضى الدولة الفاطمية وإمبراطورية الروم أيضاً. والنورمان اسم يطلق على مجموعة الشعوب التى سكنت شبه جزيرة اسكنديناوة وحوض البحر البلطى. وتدفقت هذه الجموع على غرب أوربا فى القرن التاسع الميلادى من أراضيها فى الشمال، مما جعل الناس يطلقون عليهم إذ ذاك إسم الشماليين (Northmen) وحرف الإسم إلى النورمان، وامتد فرع من النورمان إلى جنوب أوربا وظهر فى إيطاليا أوائل القرن الحادى عشر إبان اشتداد حركات السلاجقة فى الشرق. ونجح النورمان فى الاستيلاء على صقلية من العمال الفاطميين، ثم بدءوا فى سنة ١٠٨١م حملاتهم ضد أراضى الروم حيث هاجموا شاطىء دلماشا. ودفع هذا الخطر النورمانى إمبراطور الـــروم

---

(١) وبلغت مكانة السلاجقة أقصى درجاتها وأوج مجدها فى عهد السلطان ملكشاه، الذى اتخذ بغداد مقرا له سنة ١٠٩١م. وظهر فى عهد هذا السلطان وزيره الفارسى الذائع الذكر وهو "نظام الملك" الذى ألف كتاباً فى فن الحكم يعرف باسم "سياسة نامة" كما رعى هذا السلطان الشخصيات المشهورة فى العلوم الآداب، مثل عمر الخيام، الشاعر الفارسى والفلكى الكبير.

ألكسيوس الأول (١٠٨١-١١١٨م) على الاستعانة بالبنادقة فى صد الزحف النورمانى مقابل منح البندقية امتيازات تجارية أساءت إلى دولة الروم وعجلت بزوالها فيما بعد.

وهكذا ظهرت مطرقتان كالتا لكل من الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ضربات قاصمة، وغدا عالم العصور الوسطى مقبلا على عهد جديد، قوامه السلاجقة فى الدولة الإسلامية، والنورمان فى دولة الروم. فودع المسرح العالمى الوسيط نجمين وشاهد بزوغ آخرين اصطدما فى ذلك الصراع المعروف بالحروب الصليبية بين الشرق والغرب(١). وانزوت دولة الروم تدريجياً فى هذا الصراع حتى تلاشت، مما يجعل الحروب الصليبية خاتمة العلاقات بين المسلمين والروم وبالتالى نقطة تحول جديدة فى مجرى تاريخ العصور الوسطى العام.

---

(١) هزت حركات السلاجقة وهزيمة منذكرت دول غرب أوربا لتلبية استغاثة إمبراطور الروم ألكسيوس الأول دفاعاً عن المسيحية. وإذا كانت هناك أسباب أخرى أكثر أهمية من ذلك فى تعليل هذا الصراع فالمهم هنا ما تفرع على أعمال السلاجقة من آثار فى الدولة الإسلامية لعبت دورها فى الحروب الصليبية، وما قام به النورمان فى ذلك الصدد أيضاً من مجهودات. وتمخضت أحداث الحملات الصليبية عن ازدياد شعور الكراهية فى أوربا الغربية نحو دولة الروم التى وجدت من الصليبيين أداة تعمل على غير ما كانت تبغيه منهم. وانتهى الأمر بأن تحولت الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة عن مقصدها الأصلى، وهو الاتجاه إلى الأراضى المقدسة. واستولت على القسطنطينية سنة ١٢٠٤م.

الفصل الرابع

مظاهر التبادل الاقتصادى بين الدول الإسلامية وإمبراطورية الروم

مناطق النفوذ التجارى

الميدان الإسلامى:

بظهور الإسلام استقرت الأوضاع التجارية فى العالم الوسيط، وغدا التيار التجارى يجرى بين عميلين رئيسيين هما: الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، يصرف كل منهما فى أسواق الآخر ما تفيض به ينابيعه التجارية، ويحصل منها على مايحتاج إليه من مقومات الحياة، سواء الضرورية منها أو الكمالية، وفق ما تمليه نواميس الاقتصاد وقواعد التبادل التجارى. فالناظر إلى خريطة العالم التجارية فى العصور الوسطى الأولى، يرى أن هذين العميلين اقتسما مناطق النفوذ بينهما قسمة طبيعية، أملتها الظروف الجغرافية وهيأت لكل فريق ميدانه الخاص يجول فيه ويصول حسبما يكفل له اليد العليا أو الكفة الراجحة فى الميزان التجارى. وكانت الأحداث السياسية وتطور الأوضاع الزمنية العامل الأساسى أو المحور الذى دارت عليه العلاقات التجارية بين المسلمين والروم، وأقنعت الطرفين طواعية أو كرهاً بأن يولى كل منهما وجه شطر أموره التى تعينه، والأخذ من الطرف الآخر عن رضا وقنوع.

فالدولة الإسلامية غدت باستيلائها على فارس وريثة نشاط الفرس التجارى فى ميدان الشرق الأقصى، كما غدت بفتح الشام ومصر المسيطر على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى، وهو الحلم الذى عجز الفرس عن تحقيقه المرة بعد الأخرى. على أن هذا الوضع الجديد لم يحمل فى طياته

انقلابا فى أحوال هذه المنطقة التجارية، أو تغييراً فى طرقها الرئيسية، عدا أن السيد المهيمن عليها قد تبدل، وأن الأسس التجارية هناك استقرت على قواعد منظمة وأساليب جديدة. فقد ترتب على استيلاء المسلمين على فارس. القضاء على هذا العدو اللدود الذى ضايق دولة الروم طويلا. وانتهاء عهد التنافس التجارى القديم المتأصل الأوتاد بين الفرس والروم. وقام دور تجارى جديد بنت فيه الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم علاقتيهما على أسس المصلحة المشتركة والتبادل التجارى الطبعى، بما يكفل لهما تصريف منتجاتهما دون احتكار أو تنافس غير مشروع.

فقد أدركت الدولة الإسلامية سريعاً وضعها الجديد، وكذلك الأسس الحقيقية فى صرح كيانها الاقتصادى، إذ تطلعت إليه دولة الروم لاستيراد المتاجر الشرقية التى كانت العمود الفقرى لاقتصادياتها ومورد الجزء الأكبر من ماليتها. ولذلك أقبلت الدولة الإسلامية على تراث الفرس التجارى فى الشرق الأقصى تنظمه وتنمية حتى تستطيع القبض على ناصية الميزان التجارى فى العالم الوسيط. وتطلب ذلك من المسلمين تثبيت أقدامهم فى الجهات التى تفيض بالمنتجات الشرقية وتنظيم الشرايين التى تحملها إلى أراضى دولة الروم. وكان أمام الدولة الإسلامية الطريقان الرئيسيان اللذان احتكرهما الفرس قبل زوال دولتهم، أحدهما الطريق البحرى إلى الهند والصين والآخر الطريق البرى إلى هذين البلدين. ودب النشاط التجارى الجديد فى ظل الإسلام فى هذين الطريقين دبيباً منظماً وبخطوات ثابتة حثيثة ذلك أن أنفة العرب - دعائم الدولة الإسلامية الجديدة - من الاشتغال بأعمال الزراعة والتجارة وما إلى ذلك جعلتهم يتركون أهالى الأقاليم المفتوحة يتابعون رسالتهم العامة فى الحياة الاقتصادية دون حد من نشاطهم أو جهودهم(١).

وفضلا عن ذلك شجع العرب الفرس على متابعة رحلاتهم التجارية إلى سيلان والصين، إذ يذكر رحالة صينى فى سنة ٧١٧م/٩٨هـ أن سفن الفرس

(1) Heyd, Hisotoire cu Commerce du Levant au Moyen Ages I,25.

كانت تتردد على سيلان لتتاجر فى البضائع الشرقية(١). وتحدث رحالة صينى آخر يدعى (Hwi Cao) عن أهل فارس سنة ٧٢٧م/١٠٨هـ، قائلا: «إن السكان يميلون بفطرتهم إلى الاشتغال بالأعمال التجارية، ومن عادتهم الإبحار فى مراكب كبيرة يسيرون بها فى البحر العربى، وأنهم يتابعون مسيرهم حتى يدخلوا البحر الجنوبى إلى بلاد الأسود (سيلان) حيث يجمعون الأحجار الثمينة.. وإنهم يتجهون بسفنهم الكبيرة أيضاً إلى الصين مباشرة حيث مدينة (كانتون) للحصول على الحرير وغيره من البضائع(٢).

كذلك قام المسلمون بمجهود إيجابى لتشجيع التجارة الشرقية، فأسسوا ...اء البصرة (٥٣٥هـ/٦٢٦م) على الضفة اليسرى لشط العرب(٣). وكانت هناك تجاه مصب النهر جزيرة صغيرة بها مدينة ذات حصن صغير، هى مدينة عبادان أقامت بها حامية لمكافحة القراصنة الذين هددوا سير السفن التجارية. وعلى نحو ستة أميال من المدينة تجاه البحر وجد موضع يعرف بالخشبات، فيه عمد من الخشب منصوبة فى الماء بنى عليها مرقب أطلق عليه اسم الناظور، ويوقد المراقب ليلا لتهتدى به السفن وتستدل به على مدخل نهر دجلة

ويوجد وصف متأخر لأحد الرحالة فى القرن الخامس الهجرى، الحادى عشر الميلادى، وهو «ناصر خسرو» تحدث فيه عن الخشبات، قائلا: إنها عمد مصنوعة من خشب الساج منصوبة، قاعدتها واسعة مربعة الشكل، ثم تضيق إلى أعلى فوق سطح البحر فى ارتفاع يبلغ خمسين متراً، وفى أعلاها حجرة مربعة الشكل للناطور(٤).

ولم يلبث المسلمون من العرب أن دخلوا ميدان التجارة منذ قيام الدولة

---

(1) G. Ferrand, Relation De Voyages et Textes Geogra-Phiques. 637.

(2) F. Hirth, The mistery of fu-lin, 205.

(3) Heyd, op, cit, 48, 49.

(4) Nassiri Khosrau, Safar, Nameh, 246, 247.

العباسية، مما أضاف إلى أهمية ونشاط الطريق البحرى المؤدى إلى الصين، وأجاد العرب فنون الملاحة فى هذا الطريق، ولا سيما استخدام الرياح الموسمية فى دفع السفن(١)، مما يدل على أنهم بنوا نشاطهم على هدى التراث الباقى من مجهودات التجار والرحالة الأقدمين، من أمثال المغامر هيبالوس(٢). ويتضح من رحلات السندباد البحرى المذكورة فى كتاب - ألف ليلة وليلة - والتى تنسب إلى عهد الرشيد، وأن التجار العرب قاموا برحلات بحرية من بغداد إلى شبه جزيرة ملقا (الملايو) والصين، وأن ازدياد ثروة العباسيين ولا سيما الخلفاء شجع هذا النوع من الرحلات للحصول على العطور والتوابل والحرير(٣).

وكان الدين الإسلامى عاملا هاماً فى صبغ النشاط التجارى بلون جديد، إذ امتلأ التجار المسلمون حماسة لنشر دينهم على طول الطريق التجارى، مما أكسب جالياتهم فى المراكز التجارية الهامة امتيازات خاصة، وجعل لهم لدى سادة البلاد منزلة سامية. فقد تمتع التجار المسلمون المقيمون فى مدينة خانفو جنوب شنغهاى الحالية بحق اتخاذ قاض مسلم لهم يحكم بينهم وفق الشريعة الإسلامية، كما منحوا جوازات تسمح لهم بالتنقل داخل البلاد وتبادل التجارة مع أهلها(٤).

وكانت الأحوال التجارية فى «خانفو» تقوم على قواعد منظمة تكشف عن مدى النظام الذى ساد هذا الطريق البحرى. فأسماء ربان السفن كانت تدون فى ديوان «الجمارك» بتلك المدينة، وخضعت سفنهم بدورها لنظام التفتيش الدقيق، قبل السماح لها بإنزال حمولتها. وكانت تحصل الضرائب المقررة على السلع قبل توزيعها على التجار. وكل من كان يحاول التهريب يعاقب بالحبس.(٥).

---

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى، ج٢، ص٣٧٧.

(٢) أنظر هذا الكتاب، ص

(3) Heyd, op, cit, 26.

(4) Heyd, op, cit, 30,23.

(٥) آدم متز: نفس المرجع، ج٢، ص٣٧٤.

ولم تقتصر هذه الامتيازات التى تمتع بها التجار المسلمون على بلاد الصين، بل شمل أمراء المدن الهندية الساحلية كذلك أولئك التجار بعطفهم وبسطوا رعايتهم على جالياتهم بها(١). وساعد ذلك العطف التجار المسلمين على متابعة نشاطهم، دون تأثر بالأحداث التى قد تنزل ببعض المدن التجارية، وتؤثر فى أهميتها ومكانتها. فمن ذلك أنه حينما اضطربت الأحوال التجارية فى مدينة خانفو سنة ٧٥٨م/١٤١هـ نتيجة قيام بعض الثورات بها، انتقل المسلمون إلى «كله» فى شبه جزيرة ملقا، فى الموضع الذى يعرف الآن بسنغافورة. وفتحت هذه المدينة أمام تجار المسلمين سوقاً جديدة للاتجار فى سلع الهند الصينية وهى الكافور والقرنفل وخشب العود وجوز الهند(٢). ثم توج هذا النشاط التجارى ظهور كتب المسالك(٣). التى تصف للتجار المسلمين طرق ارتياد مناطق المنتجات الشرقية. ففى القرن التاسع الميلادى، الثالث الهجرى، وضع أبوالقاسم بن خرداذبه دليلا للمسافرين تناول فيه وصف الطريق البحرى الذى يبدأ من الآبلة عند مصب دجلة حتى بلاد الهند والصين.

وكانت أهم مراكزتجمع التجارة الشرقية فى القرن العاشرالميلادى ميناء سيراف (مدينة تاهيرا الحالية) على ساحل الخليج الفارسى.ويستدل من رحلة أبى زيد حوالى ذلك القرن أن البضائع كانت تنقل من ذلك الميناء إلى عدن على البحرالأحمر(٤)حيث تتابع طريقها إلى البحر الأبيض وأسواق الروم.

---

(1) Arnold, the peaching of lalam. 264.

(٢) سلسلة التواريخ، ص١٣، ١٥.

Hadi, Hassan, Persian Navigation, 98,99.

(٣) شجع اتساع نطاق التجارة فى العصر العباسى الأول وإصلاح الطرق التى سادها الأمن، الرحالة والمسافرين على ارتياد كثير من الأقطار. ووصف أولئك ما شاهدوه من البلدان والطرق المؤدية إليها وصفاً دقيقاً، ودونوه فى كتب وأسفار هى خلاصة تجاربهم وتجوالهم. وهذه الكتب هى التى تعرف باسم مسالك الممالك.

(٤) سلسلة التواريخ، ص١٣، ١٥.

زار رحالة عربى اسمه سليمان الهند والصين عدة مرات، وكتب وصفاً لساحته سنة ٨٥١م/٢٣٧هـ. ووضع رحالة آخر من سيراف، اسمه أبوزيد حسن، فى القرن العاشر الميلادى، الرابع الهجرى ذيلا أكمل به وصف رحلة سليمان.

وتمتاز تقارير سليمان وأبوزيد بما فيها من وصف للطرق التجارية وللمنتجات فى الهند وسيلان وجاوه والصين. انظر: زكى حسن، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى،ص٢٢، ٢٤.

أما الطريق البرى إلى الهند والصين فقد أصبح أكثر استقراراً وأمناً فى ظل الإسلام، مما كان عليه أيام دولة الفرس الساسانيين. ففى ذلك الوقت الذى شجع العرب فيه تجار فارس على ارتياد الطريق البحرى الجنوبى كانت الجيوش الإسلامية قد استولت على بلاد السند منذ أوائل القرن الثامن الميلادى. وكان ذلك بداية لازدياد النشاط التجارى عبر أواسط آسيا على نحو لم يعرف من قبل، حيث غدا الطريق عامراً بالمحطات التجارية الهامة والمراكز التى خضع معظمها لإدارة المسلمين. ففى عهد الوليد بن عبدالملك (٧٠٥-٧١٥م/٨٦-٩٦هـ) تجد القائد قتيبة بن مسلم، الذى ولاه الخليفه على خراسان، يعبر نهر سيحون ويشرع فى سلسلة من الحملات الناجحة، أخضع فيها على التوالى بخارى وسمرقند ومدناً أخرى، ثم مضى قدماً فى فتوحاته حتى وصل إلى الحدود الغربية للإمبراطورية الصينية. وأرسل قتيبة فى سنة ٧١٣م/٩٤هـ رسلا إلى إمبراطور الصين وعادوا من عنده محملين بهدايا ثمينة. وهكذا كان امتداد نفوذ المسلمين إلى نهر سيحون من أكبر العوامل التى شجعت التجار على ارتياد الطريق البرى إلى الصين، دون أن يواجهوا عقبات من السلطات الرسمية أو يتعرضوا لمتاعب فى الطريق(١).

وكان هذا الطريق متصلا بدورب الهند وقوافلها التجارية. فكانت قوافل البنجاب تنقل مقادير كبيرة من البضائع عبر هضاب أفغانستان إلى كابل وغزنة، ثم تسير إلى خراسان غرباً، وبخارى شمالا، وعند البلدة الأخيرة تتلاقى مع قوافل الصين الآتية عبر آسيا الوسطى. وكان التجار يسلكون دربين فى هذا الطريق التجارى المؤدى إلى الصين، أحدهما طويل يستغرق أربعة أسابيع والآخر قصير جداً ولكنه متشعب ومجهد(٢). وازدادت قيمة هذا الطريق وأهميته نتيجة جهود بعض الحكام السامانيين الذين دخلوا حلبة السياسة الإسلامية فى أوائل القرن العاشر الميلادى، الرابع الهجرى.

(1) Arnold, op. cit, 213, 214.

(2) Heyd, op. cit, 36, 37.

فقد استطاع أولئك الحكام من آل سامان(١) نشر الأمن فى خراسان وبلاد ما وراء النهر حتى غدت قوافل التجار تضرب فى طريقها إلى الصين آمنة مطمئنة. بالإضافة إلى ذلك شاهد عهد هذه الأسرة رواجاً فى التجارة الشرقية لقيام علاقة مصاهرة بين السامانيين وإمبراطور الصين، إذ تزوج ولد نصر بن أحمد السامانى من أبنة هذا الإمبراطور(٢).

غير أن هذا النشاط الإسلامى التجارى استند كذلك إلى أنتاج زراعى صناعى واسع بلغ أوجه فى عهد العباسيين. وكانت الزراعة بصفة خاصة موضع أهتمام العباسيين، بسبب وجود حاضرتهم فى منطقة خصبة من العراق تعرف «بأرض السواد» فأمر العباسيون بتعمير تلك الجهات بشق القنوات والترع فيها، حتى صارت تحفل بشبكة كبرى من المجارى المائية. وضمت بلاد الدولة العباسية كذلك ولايات أخرى اشتهرت بخصوبة أرضها مثل مصر والشام وخراسان، أسهمت كل منها بحاصلاتها فى رواج تجارة الدولة الإسلامية(٣).

وقامت صناعات عديدة فى الدولة الإسلامية على المنتجات الزراعية وغيرها من المعادن التى أمتلأت بها أرض الدولة. فكانت صناعة ماء الورد رائجه فى بلاد الدولة الإسلامية وكذلك تحضير العطور التى قامت فى دمشق وشيراز بصفة خاصة. وكان نتاج فارس يتضمن ٢٠٫٠٠٠قنية من خلاصة عطر

---

(١) تلقب أولئك الحكام بهذا الاسم نسبة إلى سامان، أحد أشراف مدينة بلخ واستطاع أحد أحفاد سامان ويدعى إسماعيل(٨٩٢ـ٩٠٧م) أن يدعم سلطان اسرته فى بلاد ما وراء النهر، وكانت عاصمتهم بخارى وأشهر مدنهم سمرقند.

(٢) آدم متز: نفس المرجع، ج٢، ٣١١، ٣١٣.

(٣) كان لكل ولاية حاصلاتها الرئيسية التى كونت الثروة الزراعية للدولة الإسلامية فكانت حاصلات العراق الرئيسية مثلا تتكون من الشعير والقمح والارز والبلح. وخراسان وبلاد ما وراء النهر اشتهرتا بالخضروات، والشام بفاكهتها وهكذا. ونقل المسلمون بحكم موقع بلادهم عدة نباتات كثيرة من الجهات الحارة، المجاورة لهم، وهيأوا لها الجو الصالح الملائم لزراعتها فى بلادهم، مثل شجرة البرتقال والليمون، التى كانت فى الأصل من أشجار الهند والملايوه.

وحرص الخلفاء العباسيون على تخفيف الضرائب عن المزارعين ضماناً لبقائهم فى العمل، وتشجيعاً لهم على الإنتاج الزراعى. فأدخل المنصور ضريبة المقاسمة مثلا، وهى دفع الضرائب مقسمة خاصة من المحصول.

الورد الأحمر ترسل سنوياً إلى العاصمة. وإلى جانب صناعة العطور راجت صناعات أخرى حسب موقع ولايات الدولة الإسلامية وثرواتها الطبيعية. فكانت البلاد الشرقية من الدولة الإسلامية تشتهر بصناعة السجاجيد والطنافس والحرير وأخرجت أنوال فارس والعراق أنواعاً راقية من السجاد والمنسوجات.

ووجدت صناعة المنسوجات الإسلامية أسواقاً رائجة فى بلاد أوربا، حيث أقبلت السيدات هناك على شراء القماش الحريرى المصنوع فى فارس المسمى «تفتاه» أى «الحرير المتموج». واشتهرت الدولة الإسلامية كذلك بتقدم صناعاتها فى الزجاج، حيث أخرجت منه أنواعاً راقية، وكانت مراكز تلك الصناعة فى صيدا وصور وغيرها. ونقلت أوربا إليها تلك الصناعة بعد الحروب الصليبية، التى جرت أحداثها فى بلاد الشام موطن صناعة الزجاج. وأجاد الصناع المسلمون أيضاً صناعة الجواهر وغيرها من الصناعات التى تعتمد على معادن الذهب والفضة.

وبذلك كان ظهور الإسلام وانتشاره فى أواسط آسيا حدثاً هاماً فى رواج الزراعة والصناعة وفى قصة استيراد إمبراطورية الروم للمتاجر الشرقية، إذ أضحت الطمأنينة ووسائل الراحة التى تمتع بها هذا الطريق عاملا قرب تلك المتاجر إلى بلاد دولة الروم، وأزال من طريقها كذلك العقبات التى أثارها من قبل الفرس، والقبائل التى أقامت على جانبى هذا الطريق. ومن ناحية أخرى أضاف نشاط الطريق التجارى مدداً جديداً إلى عظمة دولة الروم ورواجها التجارى. إذ غدت الأراضى الشرقية لدولة الروم خاتمة المطاف لهذا الطريق ومحط قوافله ومتجاره والوسيط المهيمن على تصديرها إلى دول أوربا.

ميدان الروم:

إنعكست آثار هذا النشاط الإسلامى التجارى فى دولة الروم. فتدفقت عليها المنتجات الشرقية وتولت تصريفها بقدر للممالك التابعة لها فى أوربا وغيرها، مستوحية فى ذلك الدفاع عن كيانها التجارى وعدم إتاحة أى منافس

لها يشاركها فى هذا الميدان. فكانت الواردات التى تصل إلى القسطنطينية(١) تجد طريقها إلى أوربا فى سفن التجار الروم وغيرهم من الشعوب الموالية لهم. وغدا هذا الطريق البحرى أهم المسالك التجارية التى أعتمدت عليها دولة الروم فى تحصيل مكوسها على المتاجر الصادرة منها والواردة إليها. فكانت تجبى فى القسطنطينية نفسها الضرائب على الصادرات، على حين جمعت المكوس على السلع الواردة إلى الدولة من الغرب فى مدينة أبيدوس (Abydos) على الدردنيل أو فى مدينة هيرون (Hieron) على البسفور(٢).

ووجهت دولة الروم عنايتها إلى إكمال سيطرتها التجارية على دول غرب أوربا باحتكار الصناعات التى يمكن أن تقوم على الواردات الشرقية. فكان من أهم هذه الصناعات التى حملت إسم الروم عالياً لدى الدول الغربية صناعة الحرير والمجوهرات والنقش على العاج والأحجار الثمينة. وبلغ من اهتمام الروم بالمنسوجات الحريرية أن جعلوا مصانعها خاضعة لإشراف الإمبراطور، واعتبر إنتاجها من الأمور التى تتكفل بها الدولة نفسها. فكانت المصنوعات الحريرية جزءاً من سياسة الدولة العامة فى حفظ ولاء الممالك الغربية لها، إذ تهافتت هذه الدول على شراء المنسوجات الحريرية الموشاة وتلمست الحصول على أنواعها الغالية، ولا سيما تلك التى لم تطلقها دولة الروم حرة فى الأسواق، وآثرت أن تبعث بها هدايا لرؤساء الدولة الأجنبية. فكان لذلك المظهر الأخير معنى أوسع من مجرد الهدايا عند الأمراء والحكام فى غرب أوربا، إذ حملت هذه الهدايا معنى الإعتراف بهم أو تقدير دولة الروم لهم، وهو أمر جهد قادة الممالك الأوربية فى الحصول عليه لدعم سلطانهم وكيانهم. ومن ثم راقبت الدولة فى هذا النوع الأخير من الصادرات مراقبة شديدة، ولم

---

(١) تعتبر القسطنطينية وريثة مجد مدينة بيزنطة القديمة على البوسفور. فهذه المدينة الأخيرة كانت ذات مكانة تجارية ملحوظة إبان الدولة الرومانية الكبرى، وقام بها قوة من الجند لمساعدة المحليين على حفظ النظام. انظر:
Charlesworth, Trade Routes and Commerce of the Roman Empire 118,119.

(2) Runciman, Byzantine civilization, 170.

يسلم من هذه المراقبة سفراء أولئك الملوك الغربيين بصفة خاصة مهما كانت درجاتهم.

ففى سنة ٩٦٨م فتشت حقائب السفير ليود براند الألمانى فى القسطنطينية عندما قفل عائداً إلى بلاده، ووجدت بها بعض قطع من المنسوجات الحريرية. فصادر عمال «الجمارك» هذه المنسوجات دون رعاية للسفير الذى انتهك قوانين البلاد محاولا استغلال مكانته فى التهريب(١). على أن هذه الحادثة تدل من ناحية أخرى على مبلغ الغيرة التجارية التى تملكت سلطات الروم، فالمعروف أن الدولة وضعت احتياطات محكمة لمراقبة المتاجر الغالية، وبذلت الأموال عن سعة لقلم المخابرات السرية الذى وكل إليه كشف حركات التهريب.

وازداد دخل الدولة كثيراً نتيجة نظامها التجارى المحكم. فكانت القوانين تنص على أن تفرض مكوس حوالى ١٠٪ من قيمة الصادرات أو الواردات، كما حددت أنواع المواد التى تأخذ عليها هذه المكوس، مثل التوابل والقطن والغفل والجلود الثمينة والعاج والأحجار الكريمة والاصبغة والأصواف(٢) الشرقية.

وكان الطريق البحرى يبدأ من القسطنطينية ويطوف بالجزر اليونانية الهامة وينتهى غالباً عند مدينة بارى بإيطاليا، وأهم الموانى فى الغرب حتى القرن العاشر(٣) الميلادى. على أن هذا الطريق شاهد ظهور عناصر جديدة شاركت الروم نقل المتاجر. ففى القرن العاشر الميلادى غدت سفن أمالفى ونابلى تمخر عباب الماء بين إيطاليا والقسطنطينية، وأضحى لتجار أمالفى فندق مستقر فى القسطنطينية. ولكن البندقية كانت أهم المدن الإيطالية التى لعبت دوراً كبيراً فى هذا الطريق التجارى. فكانت سفن البنادقة تحمل متاجر

---

(1) Runiciman, op, cit, 168.

(2) Runciman, The, Widow Danelis, Runciman, Byzanitne Civilizaion,168.

(3) Ibid, 170.

الروم إلى إيطاليا وتعود إلى القسطنطينية محملة بمتاجر الدول الجرمانية، التى كان من أهمها الأسلحة والأخشاب(١). وفى نهاية القرن العاشر الميلادى غدا البحر الأدرياتى فى أيدى البنادقة الذين أغدقت عليهم دولة الروم كافة أنواع التشجيع ومنحهم الإمبراطور باسل الثانى (٩٧٦-١٠٢٥م) عدة مميزات هامة. فكان التجار البنادقة يدفعون ضرائب جمركية مخفضة عندما يغادرون القسطنطينية، وعهد إلى سفنهم حمل البريد ونقل السفراء بين القسطنطينية وإيطاليا(٢).

على أن دولة الروم انفردت بتصريف بعض منتجاتها المحلية وأشهرها النبيذ إلى سكان الأراضى المتاخمة لحدودها الشمالية واستوردت منها منتجاتها الطبيعية التى ساعدتها على اتصالاتها التجارية بالدولة الإسلامية.

وترجع الأسس الأولى التى استندت إليها دولة الروم فى نشر نفوذها فى هذا الطريق البرى إلى المدن اليونانية القديمة القائمة على الساحل الشمالى للبحر الأسود. فكان الفراء والسمك الجاف يأتى من مناطق الأستبس إلى مدينة خرسون حيث ينقل إلى القسطنطينية، ويعود التجار إلى تلك المناطق محملين بما يحتاجون إليه من منتجات دولة الروم(٣). ولم يلبث هذا الميدان الجديد أن ازدهر وغدا ركناً هاماً فى التبادل التجارى بين الروم والمسلمين عندما اتجه الطرفان إلى توسيع مناطق نفوذهما والبحث عن عملاء جدد لتصريف منتجاتهما.

---

(1) Raniciman, op. cit, 168.
(2) Raniciman, op. cit, 168.
(3) Ibid, 167.

التبادل التجارى

كان أول شىء وضعه المسلمون والروم نصب أعينهم هو المحافظة على الأوضاع الاقتصادية فى مناطق الشرق الأدنى المطلة على حوض البحر الأبيض الشرقى، لما تقوم به تلك المنطقة من دور فعال فى حركة التبادل التجارى بينهما. فكانت هذه المنطقة تتحكم فى أطراف الطرق التجارية الآتية من بلاد الشرق الأقصى سواء البحرية منها أو البرية، واتجهت إليها دولة الروم لاستيراد المتاجر الشرقية. والمتتبع لانتشار الإسلام فى هذه البقعة التجارية الهامة يرى أن المسلمين جهدوا منذ أيامهم الأولى على تقوية أركان حياتها التجارية وبعث حياة جديدة فيها لا أن يهدموا أسسها ويقوضوا أركانها على نحو ماتوهم كثير من أصحاب النظريات السطحية فى دراسة التاريخ الإسلامى.

فالشريان التجارى القديم المتدفق إلى بلاد الشام وآسيا الصغرى لم يمس بأى تغيير، إذ أدرك أهالى البلاد المفتوحة فى سرعة وإعجاب أن العرب الفاتحين لبسوا شعباً متبربراً أو متغطرساً يضع العقبات فى سبيل الحياة الاقتصادية فى البلاد أو يعمل على التقليل من شأنها. ولكن على النقيض من ذلك رأوا فى العرب أناساً يتركون الحياة الاقتصادية تسير فى مجراها الطبيعى، ويحوطونها بتشجيعهم ورعايتهم(١). ودل ذلك على أن العرب أدركوا ببصائرهم النافذة ما للتجارة من أهمية فى حياة هذه البلاد التى ارتادتها قوافلهم مراراً وتكراراً قبل ظهور الإسلام. ولذلك كان اهتمام العرب بالتجارة بعد أن بسطوا سلطانهم فى ظل الإسلام على هذه البلاد يقوم على أسس متينة راسخة، وعن يقين بأن هذه التجارة التى كانت أهم عنصر فى حضارتهم أيام الجاهلية، لا زالت الجواهر الذى لابد منه لبناء حضارة جديدة لهم. ويمكن تلمس عناية العرب الفاتحين بالتجارة منذ الأيام الأولى للإسلام. ففى غزوة تبوك التى قادها النبى سنة ٦٣٠م/٩هـ اهتم الرسول بتأمين أهالى أيلة (العقبة) ذلك الميناء المطل على البحر الأحمر على أموالهم، ومنحهم عهداً بالا يتعرض بأى أذى لسفنهم أو سفن الموالين لهم(٢).

(1) Heyd, op, cit, 25.

(٢) ابن هشام، السيرة، ج٤، ١٨٠، ١٨١.

وتبين المسلمون بجلاء أهمية الاتصال بدولة الروم بعد أن دانت لهم بلاد الشام ومصر. وبدل على ذلك أنهم تركوا أهالى هذه البلاد يواصلون جهودهم الاقتصادية بمعونة عمال من الروم، سواء من الذين كانوا قبلا فى تلك البلاد أو أولئك الذين جلبوهم من دولة الروم. فحركة المصانع وبناء السفن ظلت زاهرة، والمتاجر تنتقل من البلاد الإسلامية المفتوحة إلى دولة الروم. وخلف لنا رحالة مسيحى يدعى أركولف (Arculf) جاء إلى مصر فى طريقه إلى بيت المقدس سنة ٦٧٠م، أى بعد نحو من ثلاثين سنة من استيلاء المسلمين عليها، وصفاً لميناء الإسكندرية يبين مبلغ النشاط التجارى الذى امتلأ به هذا الميناء، وأنه لم يتعرض لأى إهمال من الحكام المسلمين. فشاهد منارة الإسكندرية تؤدى عملها لهداية السفن التجارية، وأن الميناء ما زال على صلاحيته لاستقبال السفن وحمايتها من العواصف(١).

وجنى الروم فائدة عظيمة من الرواج الذى أصاب البلاد الإسلامية المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى. فأوراق البردى أصابها كثير من التحسن، وغدت من أهم الواردات التى حصلت عليها دولة الروم من مصر. فاصبح طول الورقة منها المعدة للتصدير نحواً من ثلاثين ذراعاً. وحليت بطرز عليها عبارات التثليث، إذ لم يعد يلائم الوضع الجديد كتابة اسم إمبراطور الروم على هذه الطرز بعد أن دخلت مصر فى حوزة المسلمين. ولكن فى عهد الخليفة الأموى عبدالملك استبدل بالعبارات الأخيرة عبارات إسلامية. ورغماً عن أن ذلك كان عاملا فى إثارة النزاع بينه وبين إمبراطور الروم جستنيان الثانى (٦٨٥-٦٩٥م) فإن دولة الروم ظلت تستورد أوراق البردى من مصر التى كانت تحتكر هذه الصناعة فى العصر الإسلامى كذلك(٢). وظلت قراطيس مصر تحتل الصدارة فى قائمة الصادرات إلى دولة الروم حتى القرن العاشرالميلادى حين ظهرت صناعة الورق فى سمرقند. فظلت الدولة

(1) The Pilgrimage of Arculf in the Holy, 40,41.

(2) S. Lopez, Mohamed and Charlemagne, 24.

كذلك الموطن الرئيسى لتصدير الورق الذى انتشرت صناعته فى دمشق وطبرية وطرابلس الشام.

وتنهض العملة التى تداولتها البلاد الإسلامية دليلا على اتصالها التجارية بدولة الروم واحترامها للأوضاع التارية التى كانت سائدة فيها من قبل زمن سيادة الروم. فقد ظلت العملة المحترمة هى دينار الروم حتى أيام الخليفة عبدالملك، إذ ترتب على اتساع دائرة النشاط التجارى الإسلامى عدم استقرار قيمة النقد وما استتبع ذلك من تلاعب فى الأسعار. فأمر عبدالملك بسحب النقد المتداول على جميع أنواعه من السوق، واستعاض عنه نقداً جديداً. ولكنه لم يتخل عن نقد دولة الروم مما يدل على التأثير التجارى المتبادل بين الطرفين، فقد اتخذ دينار الروم أساساً للعملة الذهبية فى الدولة الإسلامية، وكان يساوى فى القرنين التاسع والعاشر الميلادى نحواً من خمسين قرشاً أو أقل قليلا(١). كذلك ظلت موازين الروم مستعملة فى البلاد الإسلامية ولا سيما فى سوريا ومصر، وأهم مناطق تصدير المنتجات الشرقية إلى دولة الروم. فالأوقية كانت الوزن عند الروم (Ouggia)، والرطل هو تحريف للاسم عند الروم (Litra) (٢) أى لتر.

على أن التبادل التجارى بين إمبراطورية الروم والدولة الإسلامية أدى إلى ازدياد النشاط التجارى فى حوض البحر الأبيض المتوسط بشكل جعل تجارة القسم الغربى من ذلك الحوض تبدو قليلة أو فى حكم الخاملة إذا ما قرنت بتجارة القسم الشرقى. وكان ذلك صحيحاً إلى حد كبير. ولكن حاول بعض المؤرخين أمثال بيرون (Pirenne) أن ينسب قلة التجارة وكسادها فى غرب البحر الأبيض المتوسط إلى ظهور الإسلام وامتداده على ضفاف ذلك البحر. فيذكر أن إغارات المسلمين البحرية من شمال أفريقيا وامتداد الإسلام إلى أسبانيا، كان كل ذلك كالشبح المخيف الذى أنزل الرعب فى قلوب دول

---

(1) G. Le Strange, Palestine under The Moslems, 43, 44.
(2) Ibid, 48, 49.

أوربا الغربية وصرفها عن أمورها التجارية(١). على أن هذا الاضمحلال التجارى لغرب أوربا لم يكن منشؤه الإسلام، وإنما صادفت فترة أمتداد الفتوحات الإسلامية إلى حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى استمرار الأضطراب الذى ساد من قبل أحوال الممالك المطلة عليه وتزعزع كيانها التجارى. فالحرب الأهلية التى أستمر أوارها فى غرب أوربا منذ نهاية القرن السادس الميلادى وحالة القلق التى سادت الدولة الميروفنجية(٢)-منذ نهاية القرن السابع الميلادى، كل ذلك أدى إلى تدهور الأحوال التجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط الغربى، وعجز دوله عن استيراد المتاجر الشرقية(٣) فى كثرة تضاهى دولة الروم. ومن ثم اعتمدت ممالك غرب أوربا على الروم فى استيراد ما يلزمها من المتاجر الشرقية بقدر ما سمحت به مواردها المالية، مما أدى إلى بقاء القسم الغربى من البحر الأبيض المتوسط على اتصال غير مباشر بالقسم الشرقى. ولعبت جزيرة صقلية، التى ظلت تابعة لدولة الروم حتى سنة ٨٢٧م، دوراً هاماً فى حركة نقل هذه المتاجر بين دولة الروم وغرب أوربا(٤).

---

(١) أشهب بيرن فى شرح نظريته الخاصة بتأثير انتشار الإسلام فى فصم وحدة حوض البحر الأبيض المتوسط فى كتابه "محمد وشرلمان" (Pirenne, Mahomet et Charlemane)، كما كررها فى مؤلفاته الأخرى حيث تناول الحياة الاقتصادية فى أوربا فى العصور الوسطى. ولكن الأبحاث العديدة التى قام بها كثير من العلماء الذين كتبوا فى تاريخ غرب أوربا فى العصور الوسطى أثبتوا خطأ بيرن. وقد ذكرت بعضا من هذه المراجع التى تصدت للرد على بيرن فى عرض هذا الباب يلمسها القارىء فى سهولة ويسر.

(٢) أسس هذه الدولة بعض عناصر من القبائل الجرمانية تعرف باسم الفرنجة. فقد استقرت هذه القبائل فى غالة (فرنسا) فى القرن الخامس الميلادى، إبان حركة الإغارات الجرمانية العامة على غرب أوربا، وكونت لأنفسها دولة هناك بفضل زعيمها كلوفس (Clovis) وأطلق على هذه الدولة اسم المروفنجية نسبة إلى جد للملك كلوفس عرف بهذا الاسم.

(3) Cambridge Economic History, 186,
Ganshof. Notes Sur Les Ports de Provence, 29.

(4) Gay, Note Sur L'hellsnisme sicilien, 218.

ولم يكن استيلاء الأغالبة(١) على صقلية (٨٢٧م) وظهورهم فى جنوب إيطاليا (٨٤٢م) سبباً فى اضمحلال نشاط غرب أوربا التجارى، إذ دأب عمال الأغالبة هناك على جعل الطريق مفتوحاً لاتصال دول غرب أوربا بحوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى. فمن ذلك أن مدينة بارى الإيطالية بعد أن سقطت فى أيدى الأغالبة (٨٤٢م) غدت الميناء الرئيسى الذى أبحرت منه السفن إلى مصر والشام تنقل إليهما الصادرات الغربية وتعود منهما محملة بالمتاجر الشرقية. وحفظ لنا الحجاج المسيحيون صورة عن نشاط هذا الطريق التجارى وعن تسهيل المسلمين لهم مهمة السفر إلى الأراضى المقدسة بفلسطين. وتعتبر رحلة برنارد الرشيد الذى أبحر من بارى سنة ٨٦٧م قاصداً الأراضى المقدسة مصدراً هاماً لمعرفة أحوال هذا الطريق ووسائل الإنتقال عبره(٢).

ويوجد نص مشهور لابن خرداذبة، أحد الجغرافيين العرب فى القرن التاسع الميلادى الثالث الهجرى، يتضح منه أن البقية الباقية من تجارة غرب أوربا كانت فى أيدى اليهود، الذين كانوا بحكم مركزهم الاجتماعى خير وسيط لنقل هذه المتاجر إلى شرق أوربا وإلى القسطنطينية(٣). وأطلق المسلمون على أولئك اليهود إسم «تجار البحر»(٤)، إذ كانوا يخرجون من مقاطعة بروفانس بفرنسا (أوفرنجه) ومعهم الجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف. ثم يسافرون بحراً إلى الفرما، حيث ينقلون متاجرهم على ظهور الدواب إلى القلزم (السويس) ومن هناك يتسأنفون رحلتهم بحراً إلى جدة وإلى السند والهند والصين(٥). «فيحملون من الصين المسك

(١) تنسب دولة الأغالبة التى قامت بشمال إفريقيا إلى مؤسسها إبراهيم بن الأغلب الذى ولى هذه الجهات من قبل الخليفة هارون الرشيد سنة ٨٠٠م/١٨٤هـ. وفى عهد هذه الأسرة فتح المسلمون صقلية، وغدت دولة الأغالبة ذات هيبة وسلطان حتى أزالها الفاطميون سنة ٩٠٩م(٢٩٦هـ.

(2) The itinerary of Bernard the wise 5,6.

(3) Mann, The Responsa of Babylon, 477,

Galante, Les Juifs de Constantinple, 15. Note, 5.

(٤) ابن الفقية، ٢٧٠.

(٥) ابن خرداذبة، ص١٥٣.

والعود والكافور والدارصينى وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعوا إلى القلزم ثم يحملونه إلى الفرما ثم يركبون فى البحر الغربى (أى البحر الأبيض المتوسط) فربما عدلوا بتجارتهم إلى القسطنطينية فباعوها للروم»(١).

وبلغ النشاط التجارى بين الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم أوجه إبان القرن العاشر الميلادى، وغدا مألوفاً ارتياد التجار المسلمين والروم أراضى الدولتين والاقامة فى المدن الهامة بهما. ومن تلك المدن التى ازدهرت وأضحت نموذجاً لمراكز التبادل التجارى مدينة طرابيزون، فكانت هذه المدينة من أهم الأسواق التى وفد إليها التجار المسلمون منذ العصر العباسى الأول وعادوا منها محملين بمتاجر الروم مخترقين الممرات الجبلية فى طريقهم إلى ملطية وغيرها من المدن الواقعة على الفرات الأعلى. وضمت طرابيزون كذلك أكبر جالية إسلامية أقامت فى أرض الروم. وكانت حركة التبادل فيها قائمة على قدم وساق، فترد إليها من القسطنطينية المنسوجات الصوفية والكتانية التى استوردها المسلمون بكثرة، فضلا عن الثياب وأكسية الروم ولا سيما ديباج الروم الذى اشتهر بجودته وتفوقه على غيره من المنسوجات، وحمل إليها التجار المسلمون، مقابل ذلك، المتاجر الشرقية ومنتجات بلادهم(٢).

ويدل تنظيم الأسواق فى الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، والإشراف على نشاط التجار بها والقوانين التى وضعت لها، على ازدهار التبادل التجارى، ومحاولة كل دولة أن ترعى مصالحها الاقتصادية. فكانت الدولة الإسلامية تحصل العشر من قيمة بضائع الروم، على أن ذلك خضع لحاجات البلاد والمحافظة على مصالح التجار. ففى بعض الأحيان فرضت الدولة الخمس على بضائع الروم، ولم تسمح للتجار بالإقامة طويلا فى البلاد، وإذ عادوا فى نفس السنة مرة أخرى بسلع يرغبون فى تصريفها فرضت عليهم مكوس

---

(١) نفس المرجع، ص ١٥٤.

(٢) المسعودى، مروج الذهب، ج١، ص١٤٠.

آدم متز، نفس المرجع، ج٢، ص٣٠١.

إضافية. على أن الدولة الإسلامية أحياناً أخرى، خفضت قيمة المكوس عندما أحست حاجتها إلى بعض متاجر الروم، كما أعفت التجار من الضرائب الإضافيه إذ عادوا مرة ثانية فى نفس السنة(١). ويحتمل أن الدولة الإسلامية قصدت من وراء ذلك إلى خدمة مصالح رعاياها من التجار الذين تكونت لهم فى العصر العباسى نقابة كان لها شأن كبير. وكان المحتسب(٢) - وهو من كبار موظفى الدولة الإسلامية - يشرف على الأسواق وحركة البيع والتبادل فيها.

وكان ذلك هو شأن الأوضاع التجارية فى دولة الروم، فلم تسمح للتجار المسلمين بالإقامة داخل بلادها أكثر من ثلاثة أشهر، وإذ تبقى شىء من متاجرهم يترك فى عهدة ورعاية حاكم المدينة الذى يتولى تصريفها، ويحفظ ثمنها لدية حتى يعود أولئك التجار فى العام التالى(٣). كذلك عرف الروم وظيفة المحتسب التى أضحت من الدقة والصرامة بحيث خشى بأسها التجار. فكان من العسير على التجار تهريب أى سلع أو إحداث تلاعب فى الأسعار.

وكانت كل طائفة من التجار تقيم فى قسم معين من سوق المدينة الإسلامية أو بلاد الروم، وتعيش فى ظل نظام خاص اختلف أحياناً من بلدة إلى أخرى. على أن النظام السائد هو أن يقيم التجار فى فنادق، وهذه الكلمة مشتقة من الكلمة اليونانية Pandakeion، مما يشير إلى التشابه بين الأحوال التجارية لدى المسلمين والروم. وكان الفندق يتكون من مبنى تعرض فى طابقه الأرضى السلع وفى أعلاه غرف لمبيت التجار. واستخدم المسلمون الأقفال السائدة عند الروم بصفة خاصة لإغلاق أبواب فنادقهم(٤). ويلاحظ فى هذا الصدد أنه كان للتجار الروم ورعاياهم من تجار الدول الأخرى حى فى القاهرة عرف بحارة الروم وآخر فى بغداد أطلق عليه دار الروم.

---

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣، ص٤٦٣.

(٢) المحتسب هو رئيس الشرطة، وهى وظيفة أنشأها الخليفة المهدى. وكانت مهمة المحتسب مراقبة الأسواق، وحمل الناس على المحافظة على الآداب كما يطوف مع رجاله فى الشوارع ليلا ونهارا ليتأكد من تعليمات الشرطة، ومعاقبة من يحاول الغش فى المقاييس والمكاييل والموازين، وكانت هذه الوظيفة تعتبر فى درجات إدارة الدولة الإسلامية مرحلة وسط بين القضاء والهيئة التنفيذية.

(3) Runciman, Byzantine Civilizstion, 124.

(٤) آدم منز، نفس المرجع، ج٢، ص٣٢٧.

وبلغ من كبر عدد جالية الروم فى القاهرة أن أضحى لها تأثير على مجريات الحوادث التى وقعت فى هذه المدينة والتى استهدفت من ورائها خدمة مصالح دولتها. فمن ذلك ما حدث فى عهد الدولة الفاطمية صاحبة السيادة على مصر والشام عندما جهدت أن تضم إلى دائرة نفوذها مدينة حلب التى تمتعت بمركز تجارى ممتاز. فلم تترك دولة الروم الفاطميين يدعمون سيادتهم التجارية فى الشام بالاستيلاء على هذه المدينة، وساعدت صاحب حلب على مقاومة الحملة الفاطمية التى أرسلت ضده سنة ٩٩٢م/٣٨٢هـ. فحضر إمبراطور الروم باسل الثانى بنفسه إلى الشام ٩٩٢-٩٩٥م عندما تحرجت الأحوال، وحمل الفاطميين على الإرتداد عن حلب. على أن الفاطميين لم يقفوا مكتوفى الأيدى، إذ أمر الخليفة العزيز ببناء أسطول فى دار الصناعة بالمقس(١) لشد أزر الحركات البرية ضد الروم وانتزاع حلب منهم. وأظهر الوزير الفاطمى عيسى ابن نسطورس همة ونشاطاً كبيراً فى إعداد السفن الحربية وتزويدها بالآلات والعدد. ولكن حدث فى يوم الجمعة ٤ مايو سنة ١٢/٩٩٦ ربيع الثانى سنة ٣٨٦هـ - وهو اليوم المزمع فيه إبحار الأسطول - أن شب حريق فى السفن دمر منها ست عشرة سفينة، على حين أتلفت النيران العدد الحربية فى باق السفن الأخرى ونسب ذلك الحريق إلى التجار الروم الذى كانت غالبيتهم من تجار مدينة أمالفى بإيطاليا والتابعة إسمياً لدولة الروم.

وكان أولئك التجار قد وصلوا إلى الأراضى المصرية قبل ذلك الحادث بقليل واقاموا فى فندق يسمى بيت مالك، ويقع قرب دار صناعة المقس، وعلى الرغم من انفجار العامة بالسخط فإن السلطات الفاطمية حافظت على متاجر الروم وردت عنهم عدوان الأهالى، كما أنزلت العقاب الصارم بكل من ثبتت عليه تهمة السلب والنهب(٢). ولاشك أن هذه السياسة الرشيدة التى انتهجتها

---

(١) اهتم الفاطميون بعد استيلائهم على مصر بالاسطول ودور الصناعة التى كانت تبنى فيها السفن. فمن ذلك أن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى أسس دار الصناعة فى المقس التى غدت ميناء القاهرة. وكان موضع المقس قرية تسمى أم دنين. وكانت المقس فى العهد الفاطمى كذلك سوقاً هاماً للغلال.

(٢) المقريزى. خطط، ج٢، ص١٩٥، ١٩٦.

يحيى بن سعيد، صلة كتاب سعيد بن بطريق، ٤٤٣، ٤٤٧.

الحكومة الفاطمية أزاء التجار الروم تدل على مبلغ حرصها على بقاء الاتصال التجارى قائماً مع دولتهم.

ويمتاز العصر الفاطمى كذلك بقلة الحروب مع الروم وكثرة فترات السلم التى ازدهرت فيها التجارة ولا سيما تجارة المنسوجات. فيروى ناصرى خسرو، ذلك الرحالة الفارسى الذى زار مصر زمن الخليفة الفاطمى المستنصر، قصة يبدو عليها طابع المغالاة ولكنها تدل على رواج تجارة المنسوجات، فقد ذكر أن إمبراطور الروم عرض على الخليفة الفاطمى مائة مدينة من مدن الروم مقابل تنازل الخليفة عن مدينة تنيس وصناعة المنسوجات بها، ولم يلق هذا الغرض قبولا من السلطات الفاطمية(١). وكانت مدينة تنيس وكذلك دمياط ودبيق من أكبر مراكز صناعة النسيج فى العصر الفاطمى. وكان الثوب الذى نبغ صناعتة أهل تنيس يعرف بالبدنة، كان يصنع للخليفة، ولا يدخل فيه من الغزل سدى ولحمة غير أوقيتين وينسج باقيه نسجاً محكماً.

ولم يقتصر هذا الرواج التجارى على مصر وإنما ساد سائر البلاد الإسلامية كذلك. وغدت الإسكندرية وبغداد فى القرن العاشر الميلادى تقرران الأسعار للعالم ولا سيما أسعار السلع الكمالية(٢). وكان التجار المسلمون يمدون دولة الروم بما تحتاج إليه من المواد الغفل (الخام) اللازمة لبعض الصناعات بها، مثل صناعة العاج الذى كان يجلب من إفريقية الشرقية. وكذلك أدى التبادل التجارى إلى تأثر الصناعات الإسلامية بصناعات الروم، إذ يتضح من الفرش المعروفة «بالطنافس» التى اشتهرت بها الحيرة فى العراق على أثر فن الروم فيها فهذه الكلمة العربية ترادف كلمة Tapetes عند الروم(٣).

(1) Sefer Nameh, III.

(٢) آدم منز، نفس المرجع ج٢، ص٣١٢.

(٣) نفس المرجع، ج٢، ٢ ص ٣٠٤.

تنافس المسلمين والروم فى الميادين التجارية الجديدة

ولم يقتصر المسلمون والروم على التبادل التجارى بينهما فحسب، وإنما تسابقوا كذلك إلى إدخال أسواق جديدة فى دوائر نفوذهم يصرفون فيها متاجرهم ويجلبون منها ما بها من منتجات طبيعية. ففى القرن العاشر الميلادى، الرابع الهجرى، اشتد التنافس بين المسلمين والروم على السيطرة على أسواق بلاد الروس (الصقالبة) وكان المسلمون على اتصال سابق بهؤلاء الأقوام قبل ذلك بقرن تقريباً، إذ وصف لنا الجغرافى العربى ابن خرداذبة فى القرن الثالث الهجرى الطريق الذى سلكه التجار الروس من بلادهم إلى الدولة الإسلامية. وذكر أنهم جنس من الصقالبة يحملون جلود الثعالب السود والسيوف من اقصى بلاد الروسيا إلى العراق ويمرون ببلاد الخزر حيث يجبى صاحبها منهم المكوس، ثم يتابعون سيرهم إلى بحر جرجان ومنه يحملون متاجرهم على ظهور الابل من بغداد وهناك كان الخدم الصقالبة المشتغلون فى بغداد يتولون الترجمة بينهم وبين المسلمين. وكان أولئك التجار يدعون أنهم مسيحيون كى تطبق عليهم القوانين الخاصة بأهل الذمة(١). وفى سنة ٩٢١م/٣٠٩هـ، خطا المسلمون خطوة إلى الأمام فى هذه الميدان التجارى، إذ قام اتصال سياسى بين البلغار المقيمين على ضفاف نهر إتل (الفلجا) والخليفة المقتدر العباسى(٢).

---

(١) ابن خرداذبة، نفس المرجع، ١٥٤.

(٢) كان للبلغار فى أوائل العصور الوسطى دولتان أقدمهما فى حوض الفلجا الأوسط، والأخرى فى حوض نهر الطونة. وتطلق كلمة بلغار على البلاد التى كانت تقع شرقى نهر الفلجا وسكانها كذلك، وأرسل الخليفة المقتدر العباسى سفيراً يدعى ابن فضلان إلى دولة البلغار فى حوض الفلجا، إجابة لطلب ملك البلغار الذى كان قد اعتنق الإسلام منذ زمن يسير وبعث يطلب فقيهاً يعلمه أصول الدين الإسلامى. كذلك هدف ملك البلغار من وراء هذا الاتصال السياسى أن تساعده الدولة الإسلامية فى بناء حصون تدفع عنه غائلة أعدائه، وبصفة خاصة من الخزر. وكانوا ملوك الخزر من أصل يشبه البلغار، ومملكتهم تقع عند مصب نهر الفلجا، وديانتهم اليهودية، وكان يعدون البلغار تابعين لهم وأمدنا ابن فضلان بصورة جلية عن البلغار ولا سيما تجارتهم، وكذلك وصف بعض الروس القدماء الذين رآهم على نهر الفلجا، حيث قدموا للتجارة مع البلغار. ولكن لم يذكر ابن فضلان شيئاً عما تمخضت عنه سفارته من الوجهتين السياسية والحربية. انظر:
زكى حسن، الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى، ص٢٦، ٢٧.

فقد أرسل إليهم الخليفة رسولا ينشر بينهم تعاليم الإسلام ويلقنهم مبادئه. على أن الفضل الأكبر فى انتشار الإسلام بين أهالى الفلجا يرجع إلى التجار المسلمين الذين كانوا يتاجرون فى الفراء وسائر السلع الأخرى التى جلبوها من بلاد الروسيا الشمالية(١).

على أن المسلمين لم يستطيعوا مزاحمة الروم فى روسيا التى اعتنق أهلها المسيحية على مذهب القسطنطينية، إذ فشل البلغار المسلمون فى تحويل فلاديمير أمير كييف الروسى - وكان على الوثنية - إلى الدين الإسلامى. فقد حدث أن رغب هذا الأمير فى اعتناق دين سماوى، وعقد فى بلاطه مناظره بين دعاة يمثلون الأديان السماوية المعروفة، وقام كل داع بالدفاع عن دينه وشرح تعاليمه. فحال بين فلاديمير وقبول الإسلام تحريم المسلمين للخمر. حيث أجاب فلاديمير الداعى المسلم قائلا: «إن الشراب متعة الروس ولا حياة لهم بدونه». كذلك أخفق اليهود الذين جاءوا من بلاد الخزر فى استمالته إلى ديانتهم. فبعد أن أصغى فلاديمير إلى حججهم سألهم: «أين بلدكم؟» فأجابوا: «بيت المقدس، ولكن الله شتت شملنا فى كافة أنحاء العالم غضباً منه علينا» فقال فلاديمير: «إذا كان الله قد قطعكم من رحمته فهل تريدون منا اعتناق دينكم فنلقى نفس المصير؟»، على أن الصورة التى رسمها قسيس من الروم عن تعاليم المسيحية لقيت هوى فى نفس فلاديمير(٢).

ورغماً عن ذلك لم يندفع فلاديمير فى اختيار دين من بين هذه الأديان يحل محل دينه الوثنى. فاختار عشرة من رجال دولته المشهود لهم بالحكمة وسداد الرأى ووجههم إلى البلاد المختلفة ليدرسوا أمور ديانتها. ودونت هذه السفارة ملاحظاتها عن الأديان ومعتنقيها، فكتبوا عن البلغار المسلمين أن أماكنهم حقيرة تنبعث منها روائح كريهة وأن وقوفهم للصلاة بوجوههم الخاشعة يبعث على الكآبة، فالمسلم يقف ثم يركع ثم يسجد ثم يجلس ويتلفت ذات اليمين

---

(١) آدم متز، نفس المرجع، ص٣١٤.

(2) Arnold, op, cit, 242.

وذات الشمال كأنه شخص مآخوذ(١). ووجد رجال السفارة بين المسيحيين الكاثوليك طقوساً دينية خالية من الأبهة والجلال. وأخيراً بلغوا القسطنطينية حيث زاروا كنيسة أيا صوفيا، وهناك أخذتهم وأدهشتهم عظمة القداس وفخامة البناء. فكان بطريق الكنيسة يرتدى ملابسه الرسمية الزاهية يحيط به القسس فى ثيابهم الدينية الجميلة. وزخارف الكنيسة هنا وهناك، وتتدلى من سقفها المباخر ترسل رائحة ذكية، فملأ كل قلوب الروس دهشة وعجباً، حتى أنهم عندما عادوا إلى بلادهم زينوا لبنى جلدتهم اتباع عقيدة كنيسة الروم. ولذا جهر فلاديمير سنة ٩٨٨م بالمسيحية وأمر بأن يذعن كافة الروس أغنياء وفقراء لطقوس تلك الديانة(٢).

وبفضل هذا التحول الدينى فى روسيا وجد الروم منفذاً لمنتجاتهم مزاحمين بذلك المسلمين الذين أقصوا عن الميدان وقل نشاطهم. فتولى أمير كييف حراسة التجار الروم أثناء سيرهم فى نهر الدنيبر الجنوبى. إذ كان يتحتم عليهم نقل بضائعهم إلى البر والسير بها تفادياً للشلالات التى تعترض مجرى ذلك الجزء من النهر، ومن ثم كانت القبائل المعادية تنتهز هذه الفرصة وتغير على القوافل وفضلا عن ذلك اضطلع الروس بمهمة صد خطر بلغار

---

(١) كان بلغار الفلجا أقل فى مستوى حضارتهم ومعيشتهم من سائر المسلمين مما حمل السفارة على السخرية من منازلهم. أما وصف السفارة المسلمين فى الصلاة فهو وصف بدائى لشعب بدائى إذ ذاك لايستطيع فهمه أو ادراكه أن يجعله يقف على كنة الدين الإسلامى. فالصلاة تجعل المرء يتصل مباسرة بربه، ويقف أمامه خاشعاً يرجو منه الهداية والمعونة، فلم تقدر السفارة هذا المعنى السامى ولم تدرك ما تنطوى عليه شعائر الصلاة من هيبة وجلال. فضلا عن ذلك دل أفراد السفارة على عقليتهم البدائية حين استهوتهم مظاهر كنيسة القسطنطينية وابهة ثياب القسس وما إلى ذلك. وإن هذا التقرير ينهض دليلا على أن الدين الإسلامى بحق خاتم الأديان السماوية، وكان لابد لليهودية والمسيحية أن تمهدا له السبيل، وتهيئا الأذهان لتقبول تعاليمه السامية.

(2) Fisher, A history of Europe, 376, 476.
Arnold, op. cit, 243, 244.

القرم عن اجتياح منطقة خرسون(١). وفى مقابل ذلك منحت دولة الروم سفن الروس عند وصولها المياه الإقليمية التابعة لها فى البحر الأسود كافة التسهيلات، كما سمحت لتجار الروس دخول القسطنطينية على شريطة ألا يكونوا مسلحين، وألا يدخل المدينة أكثر من خمسين شخصاً دفعة واحدة. وفى القسطنطينية يقضى التجار الروس فصل الصيف، وتهىء لهم الحكومة المسكن والطعام والحمامات طول فترة إقامتهم دون مقابل. وكذلك منح تجار أمير كييف تسهيلات وامتيازات خاصة وأعفوا من دفع الضرائب الجمركية. وعندما يقفل التجار عائدين إلى بلادهم كانت تزودهم سلطات الروم بالمؤن اللازمة وبأدوات السفن الضرورية مثل المراسى والحبال وغيرها(٢).

ولم يلبث الجو أن خلا للروس والروم تماماً عندما ظهر فرع من النورمان فى بلاد الروسيا وركبوا نهر الفلجا وخربوا عاصمة الخزر سنة ٩٦٩م/٣٥٨هـ فغدا الروس هم الذين يتوجهون إلى بلاد الخزر وأراضى المسلمين مباشرة حاملين متاجرهم بأنفسهم(٣) واتبع أولئك التجار الروس وسائل المقايضة فى التجارة فاستبدلوا مثلا بالفراء والشمع الخمور اليونانية والفواكة والمنسوجات(٤).

(1) Baynes. op. cit. 215.

(2) Baynes. op. cit. 215.

(٣) متز، نفس المرجع، ج٢، ٣١٥.

(4) Baynes. op. cit. 215.

تغير الأوضاع التجارية فى البحر الأبيض المتوسط

فى الوقت الذى راجت فيه متاجر المسلمين والروم فى بلاد الروس ظهرت قوى جديدة على المسرح التجارى، وأخذت تعمل عملها حتى أودت فى النهاية بالوضع التجارى الذى كان سائداً بين المسلمين والروم. وبدأت هذه القوى نشاطها فى الميدان التجارى لدولة الروم ثم انعكس صداه فى الميدان الإسلامى. فكانت المدن الإيطالية ولا سيما البندقية، التى اعتبرت تابعة إسمياً لدولة الروم حتى القرن التاسع الميلادى، تسعى حثيثاً إلى تثبيت أقدامها وتقوية مركزها والاستقلال بشئونها التجارية عن الروم. وغدا ذلك أمراً ملموساً عندما أسست البندقية أسطولا مستقلا واتصلت مباشرة بالدولة الإسلامية وتبادلت معها المتاجر. ولم يلبث أن اتضح ضعف هيبة الروم وإحساسها بهذا التنافس التجارى الجديد عندما لم تستطع قوانينها منع تجار البندقية إبان القرن التاسع الميلادى من الإتجار فى الأخشاب والمواد الحربية مع حكام مصر المسلمين(١). ولم يقتصر الأمر على ذلك، إذ اضطرت دولة الروم إلى عقد معاهدة تجارية مع البندقية سنة ٩٩١م كانت بمثابة اعتراف صريح باستقلال البندقية التجارى(٢) ولم تلبث الخطوة النهائية فى تلك السبيل أن تمت حينما أبرم الإمبراطور ألكسيوس الأول مع البندقية معاهدة سنة ١٠٨٢م منح فيها تجار البنادقة مطلق الحرية فى التنقل بين أنحاء الدولة دون دفع مكوس (جمارك)، وذلك مقابل مساعدة البندقية للدولة فى حروبها مع النورمان(٣).

وهكذا كانت الأوضاع فى غرب أوربا آخذة فى التطور منـــذ القـــرن

---

(1) Heyed, op, cit, I. 109,110.

أصدر امبراطور الروم ليو الخامس (٨١٤ ـ ٨٢٠م) قرارا يحظر فيه الاتجار مع المسلمين، وأذعنت البندقية لذلك القرار مؤقتا، إذ أستأنفت فى سنة ٨٧٨م اتصالها التجارى بمصر، دون رعاية للقرار السابق.

(2) Runciman, op, cit, 168.

(3) Baynes, op, 213.

الحادى عشر الميلادى، ولم تعد دولها تنظر إلى دولة الروم نظرة الإحترام والهيبة التى كانت تبديها نحوها من قبل. وكان العامل الهام الذى حول الشعور الأوربى عن الروم هو نشوب الحروب الصليبية، التى دوت أصداؤها بين الشرق والغرب. فقد تنقل الدعاة المسيحيون لهذه الحرب بين دول أوربا يستثيرون الناس بأنباء العقبات التى تضعها دولة الروم فى سبيل الجيوش الصليبية. ذلك أن تلك الدولة التى رحبت بالجيوش الصليبية بادىء الأمر وجدت من الصليبيين الذين اجتاحوا أراضيها جموعاً تبغى الفساد فى مدن الروم، فضلا عن أنها لم تعد أداة تستطيع أن تستغلها لاستعادة ما استولى عليه السلاجقة من ممتلكاتها. على أن العوامل الحقيقية التى دفعت القوى الإيطالية على التحمس لهذه الحروب ومشاركة الصليبيين سخطهم على الروم، هى المنافع المادية التى هدفت إلى الحصول عليها من وراء نقل الجيوش الصليبية والرغبة فى القضاء على سيطرة الروم التجارية. وليس أدل على ذلك من أن البندقية نجحت بفضل سياستها ونفوذها فى تحويل الحملة الصليبية - المعروفة بالرابعة - عن مقصدها الحقيقى، وهو إنقاذ الأراضى المقدسة، وحملتها على مهاجمة القسطنطينية عروس التجارة فى بلاد الروم(١). وبسقوط عاصمة الروم فى أيدى الصليبيين سنة ١٢٠٤م فقدت دولة الروم مكانتها التجارية ودب الانحلال فى كيانها، وزالت هيبتها إلى الأبد.

وانعكست آثار هذه الحادثة فى العلاقات التجارية بين المسلمين والروم، إذ لم تستطع دولة الروم أن تنهض من كبوتها، كما أن الأوضاع الزمنية لم تهيىء لها فرصة تقال فيها من عثرتها بعد زوال سيطرة الصليبيين عن القسطنطينية، ذلك أن الصراع بين دولة الروم والبندقية كان صراعاً بين ارستقراطية من الروم متداعية متواكلة وأرستقراطية من التجار البنادقة، وتمخض الطبقة الأخيرة المغامرة. غير أن دعائم الاقتصاد العالمى الوسيط لم تهتز بزوال عظمة دولة الروم التجارى، إذ فتحت الحروب الصليبية أمام أوربا

---

(1) Baynes, op, cit, 218.
Runciman, op, cit, 169.

طرقاً للاتصال المباشر مع أراضى الدولة الإسلامية والحصول على المنتجات الشرقية. فحفلت الإمارات الصليبية فى فلسطين والشام بالتجار الإيطاليين وغيرهم، الذين اضطلعوا بمهمة النقل التجارى بين الشرق والغرب.

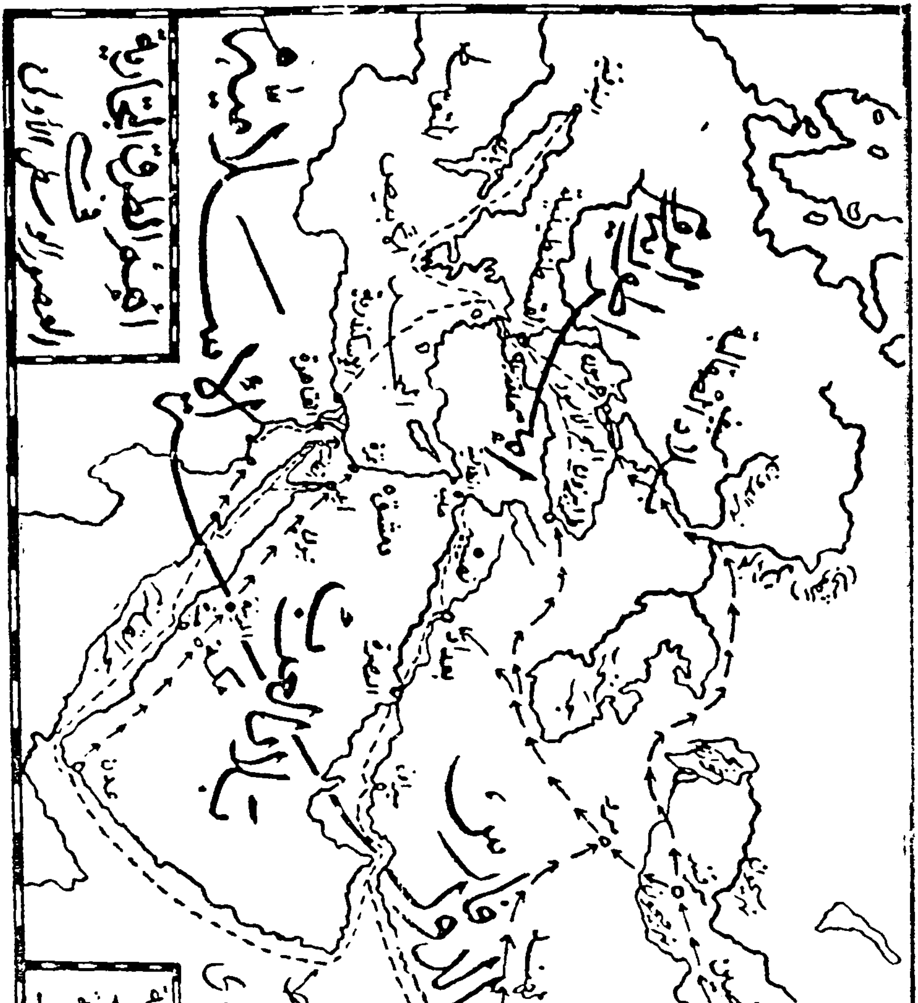
وكان السبب فى بقاء الدولة الإسلامية رابضة فى ميدان التجارة العالمية بعد زوال مجد الروم إبان الحروب الصليبية هو سيطرة المسلمين على الطرق التجارية الرئيسية التى تحمل متاجر الشرق الأقصى إلى شواطىء البحر الأبيض المتوسط الشرقى. فلم تستطع قوى الصليبيين الناشئة منافسة المسلمين فى تلك الطرق، التى جرت فى بلاد معظمها تابعة لدول إسلامية. كما أن الحكام المسلمين برغم نشوب تلك الحروب ظلوا حريصين على بقاء النشاط مستمراً على طول تلك الطرق، وتسهيل حركة الانتقال عبرها بتأسيس الفنادق لراحة التجار. وتجنب المسلمون أيضاً إيقاع الضرر بالتجار الوافدين إلى بلادهم، وعمدوا إلى إكرامهم ومنحهم سائر أسباب الحرية وما يكفل لهم سلامة متاجرهم.

وفضلا عن تلك المكانة الممتازة التى تمتعت بها الدولة الإسلامية على طوال الطرق التجارية الرئيسية، فإن بلادها ضمت كذلك الأسواق التى تنتهى عندها تلك الطرق. فلم تخرج الشام على الرغم من مجهودات الصليبيين من أيدى المسلمين نهائياً. وإنما وقف الصليبيون فى شريط ساحلى ضيق، أسسوا به ممالك لهم لا مقومات اقتصادية لها، على حين تقف خلفها امتداد شاسع من أراضى إسلامية غنية بمتاجرها وقوتها. إذ كانت شرايين الطرق التجارية تصب فى تلك البلاد الإسلامية وتجعلها المسيطر الوحيد على متاجر الشرق.

وهكذا ظلت الدولة الإسلامية مقصد طلاب المتاجر الشرقية على حين اضمحل عميلها الأول القديم. فأعلنت دولة الروم إفلاسها، وانقلبت الأبهة والثراء اللذين تمتعت بهما عاصمتها القسطنطينية قروناً طويلة إلى مدن البحر الإدرياتى، ودبت روح الحياة نشيطة من جديد بين حوض البحر الأبيض والشرقى وبين الدولة الإسلامية وبين أوربا، وظلت تحتكر هذه المتاجر وطرقها حتى أدى التنازع عليها إلى البحث عن طرق جديدة كانت إيذاناً بعهد الكشوف الجغرافية(١) وفجر العصر الحديث.

---

(١) ذلك أن احتكار البنادقة ودولة المماليك فى مصر للمتاجر الشرقية شجع على كشف الطرق وطريق رأس الرجاء الصالح.



الفصل الخامس

مقارنة بين المجتمع الإسلامى ومجتمع الروم فى العصور الوسطى

التبادل الثقافى

مراكز الاتصال الثقافى:

عاشت الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم عيشة جارين تخاصما حيناً، وجنحا إلى السلم أحياناً، تحمل العلاقات بينهما جميع معانى الحياة بما فيها من أخذ ورد، وضر ونفع، فلم تقم الدولتان بينهما سداً منيعاً يجعل كلا منهما تحيا فى واديها الخاص بها، وإنما كانت المسالك بينهما مطروقة تزخر بالركبان التى حملت ما يمكن حملة من نتاج الدولتين العلمى والثقافى، وجهدت على حث السلطات فيهما على التمسك بأهداب حسن الجوار برغم ما ينشب بينهما من خصام ونزاع. وكان الميدان الثقافى أول حلبة دربت فيها أفكار الدولتين على التعاون معاً فى بناء صرح مدنياتهم، والتفاهم على ما فيه النفع العام. فكان أمامهما مورد واحد نهلا منه وتآزرا على الإفادة منه بما يهيىء لهما حياة هنية. وكان ذلك الينبوع الذى استقى منه المسلمون والروم وألف بين عقليانهما وقرب بينهما، هو تراث الثقافة الهيلنية «اليونانية».

والتقى المسلمون بهذه الثقافة فى ولايات الروم وبعض الأراضى الفارسية التى بسطوا سلطانهم عليها. فما أن دخلت أرض الجزيرة والشام ومصر فى رحاب الدولة الإسلامية، حتى أقبل العرب الغزاة يرتشفون من

مناهل حضارتها الهلينستية(١) التى كانت تشع مراكزها الثقافية الزاهرة، مثل أنطاكية فى الشام وقيصرية وغزة فى فلسطين، والاسكندرية بصفة خاصة فى مصر. وأضحت هذه المدن بعلمائها ومدارسها ومتاحفها وجوها المشبع بالحياة بالحياة الفكرية والحياة الهلينستية ركناً هاماً فى الدولة الإسلامية.

وإذا كان المسلمون قد وضعوا أيديهم على شطر ثمين من الثقافة اليونانية، فإن دولة الروم احتفظت بنصيب الأسد منها فى بلادها. ذلك أن أراضى دولة الروم المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى كانت - قبل ظهور الإسلام - الموطن الأصلى للثقافة اليونانية، وحامية ذمارها من تأثير حضارة الغرب(٢). غير أن المسلمين لم يلبثوا أن عملوا على تنمية نصيبهم من هذا التراث الثقافى معتمدين على جهودهم الخاصة، ثم استعانوا بدولة الروم فيما تراءى لهم بعد ذلك من نواحى المعرفة.

وأقبل المسلمون بحماسة على نقل التراث اليونانى إلى اللغة العربية، إذ كان على هذا التراث أن يصبح عربياً إسلامياً أولا وقبل كل شىء. ومن ثم بدأت حركة الترجمة لتعريب الكتب اليونانية، كما عربت من قبل النظم الإدارية وسجلاتها فى البلاد المفتوحة. واضطلع بهذه المهمة أولئك الذين حملوا مشعل الحضارة الهلنستية قبل ظهور الإسلام. على أن الغموض يكتف

---

(١) تطلق هذه الكلمة على طابع الفكر والحضارة القديمة فى العصر الذى بدأ بفتح الإسكندرية للشرق (٣٣٦ق). ويمتاز هذا العصر بامتزاج الفكر اليونانى بالروح الشرقية، مما جعل هذه الحضارة تختلف بعض الشىء عن حضارة اليونان القديمة، ثم أخذت هذه الحضارة تنمو وتمتد حتى ضمت بلاد الشرق الأدنى من قلب فارس إلى الإسكندرية، وأدت إلى ظهور المدارس الفلسفية فى مدن بلاد الشرق.

(٢) حاولت روما بعد أن بسطت سلطانها على البلاد المطلة على حوض البحر الأبيض الشرقى أن تفرض عليها حضارتها اللاتينية، لكن ثقافة هذه البلاد الهلينستية كانت ثابتة الأركان لا تستطيع الحضارة اللاتينية مزاحمتها. كذلك ظلت اللغة اليونانية تغلب على هذه البلاد على الرغم من محاولات بعض أباطرة الرومان تشجيع اللغة اللاتينية. ولذا عندما ظهرت القسطنطينية وغدت عاصمة لإمبراطورية الروم، كانت رقعة هذه الإمبراطورية تضم حضارة هلينستية بعيدة عن مؤثرات الغرب، وتابعت تلك الإمبراطورية حماية هذا التراث.

نشاط هذه الطبقة المستنيرة وجهودها فى بعض الولايات، على حين توجد معلومات كثيرة عنها فى أقاليم أخرى(١). فمدرسة الإسكندرية مثلا كانت لا تزال قائمة زمن الفتح العربى، وكانت المدرسة اليونانية الوحيدة إذ ذاك، ولكن الأخبار عن مجهوداتها ناقصة وغير دقيقة(٢). أما من ناحية أخرى فإن المراجع تفيض بذكر جهود علماء المراكز الثقافية فى كل من الشام والعراق.

فقد ازدادت عناية المسلمين بالثقافة اليونانية فى الشام، ولا سيما بعد انتقال مدرسة الإسكندرية إلى مدينة أنطاكية فى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبدالعزيز. ولايعرف تماماً السبب فى اضمحلال مدرسة الإسكندرية بهذه السرعة. ولكن يمكن أن يعزى ذلك إلى أن الاسكندرية فقدت أهميتها بعد أن أتخذ العرب عاصمتهم فى الفسطاط، وأضحت الإسكندرية فى عزلة تامة عن مركز السيطرة والسلطان(٣). فكان قيام الدولة الأموية فى الشام وعلو نجم الأمويين وعاصمتهم دمشق حافزأ على انتقال مركز العلم والعرفان إلى موطن حكمهم. وأخذ بعض الخلفاء والأمراء الأمويين يشجعون رعاياهم الضليعين فى العلوم الإغريقية على متابعة جهودهم. وقربوا إلى بلاطهم من يمكن الاستفادة بهم كالأطباء، حتى أضحت الشام تربة صالحة تنقل إليها معارف مدرسة الإسكندرية. فينسب إلى خالد بن يزيد بن معاوية اهتمامه بعلم الكيمياء. واستدعاؤه بعض العلماء من الإسكندرية وتكليفهم ترجمة الكتب اليونانية التى تناولت هذا الموضوع(٤)

وفى عهد مروان بن الحكم ترجم طبيب فارسى الأصل يدعى «ماسارجويه» سنة ٦٨٢م كتاباً فى الطب من السريانيه إلى العربية، ولكن هذا

---

(١) عبدالرحمن بدوى، التراث اليونانى، ص٦.

(٢) نفس المرجع، ص ٣٨.

(٣) نفس المرجع، ص٦٨.

(4) Hitti, op, cit, 222.

الكتاب كان موضوعاً فى الأصل باللغة اليونانية. وينسب إلى أحد علماء الإسكندرية ويدعى أهرون(١). وأخيراً نقل عمر بن عبدالعزيز مدارس الطب من الإسكندرية إلى أنطاكية(٢).

وهكذا كانت الرعاية المبكرة التى أولاها بعض خلفاء بنى أمية للعلوم الإغريقية سبباً فى إنعاش المراكز الثقافية لتلك العلوم فى الشام وتجديد نشاطها القديم. فكانت أنطاكية مركزاً لثقافة يونانية زاهرة. وأشرف عليها اليعاقبة قبل ظهور الإسلام. ولكن أصابها استيلاء الإضمحلال قبل استيلاء العرب عليها (سنة ٦٣٨م/١٧هـ). فقد خربها الفرس أثناء غزوهم للشام قبل الإسلام، ثم أكملت الزلازل ما أحدثه بهذه المدينة. غير أن نقل مدرسة الإسكندرية إليها بعث فيها ماء الحياة من جديد، وظلت تزهو وتزدهر زمن الأمويين برغم وقوعها فى منطقة الأطراف القلقة الأوضاع بين الدولة الإسلامية ودولة الروم. ذلك أن موقع أنطاكية سهل جلب المخطوطات من آسيا الصغرى والإشراف على حركة تبادل المراجع التى كانت ناشطة فى فترات السلام التى تخللت الحروب، والتى دفع عليها الرغبة فى تكوين مكتبات جديدة أو دعم أخرى قائمة من قبل. وظلت مدرسة أنطاكية زاهرة نحواً من ١٣٠ أو ١٤٠ سنة، حيث انتقلت بعد ذلك إلى مدينة حران بالعراق الأعلى فى عهد الخليفة المتوكل (٨٤٧-٨٦١م/٢٣٢-٢٤٨هـ). وتم نقل هذه المدرسة إلى حران على يد تلميذين لا يعرف اسمهما تتلمذا على أستاذ كان فى أنطاكية لا يعرف إسمه كذلك، وحمل هذان التلميذان معهما مكتبة أنطاكية إلى حران(٣).

ولم يكن مستغرباً أن تخلف حران مدينة أنطاكية، إذ كانت مركزاً هاماً للثقافة اليونانية فى المنطقة التى تكلم أهلها اللغة السريانية (الأرامية الشرقية)، كما كانت كذلك مركزاً للتبادل والإتصال الثقافى. ومما يدل على مالها من أهمية قديمة أن آخر الخلفاء الأمويين، وهو مروان الثانى، نقل مقر خلافته حينـــاً

---

(1) Hitti, op, cit, 555.

(٢) ابن أبى أصيبعة، طبقات الأطباء، ج١، ص١١٦.

(٣) بدوى، نفس المرجع، ص٦٩-٧١.

إلى هذه المدينة. وكان أهلها وثنيين يعبدون الكواكب، حتى غدوا نتيجة تأملاتهم وملاحظة السماء أساطين الدراسات الفكية. وفى عهد المأمون (في أوائل القرن التاسع الميلادى الثالث الهجرى)، نجوا من الحكم الذى صدر بالقضاء عليهم حين أعلنوا أنهم ذرية الصابئة من العرب القدماء. وعرفوا منذئذ بذلك الأسم (الصابئة).

وكانت مدينة حران تسمى «هلينو بوليس) أى مدينة اليونانيين لتقدم العلوم اليونانية، وإن كان هذا الاسم أطلق على أهلها بدافع السخرية والاحتقار(١). وأشهر علماء هذه المدرسة ثابت بن قرة، الذى ترجم إلى العربية عدداً من الكتب الفلكية والرياضية التى وضعها إقليس وثيودوسيوس وبطليموس. وظلت مدرسة حران زاهرة نحواً من أربعين سنة حيث ارتحل الفلاسفة والعلماء منها إلى بغداد فى خلافة المعتضد (٩٨٢-٩٠٢م/٢٨٩هـ)، ومن هؤلاء العلماء ثابت بن قرة الحرانى الذى رحل إلى بغداد لخلاف قام بينه وبين أبناء دينه. وفى بغداد لفت إليه الأنظار بنشاطه العظيم فى الترجمة، وأتخذه الأمير المعتضد، قبل أن يصبح خليفة، صديقاً له. وبقى ثابت دائماً عالماً منكباً على البحث والاستقصاء والاشتغال بالترجمة.

---

(١) بدوى، نفس المرجع، ص ٧٠.

(٢) لم يقتصر المسلمون فى بناء صرحهم الثقافى على الروم فقط، وإنما أخذوا على سائر الأمم التى اتصلوا بها ما يساعدهم عى التقدم العلمى والأدبى. فكان للفرس أثر كبير فى ميدان الآداب الرفيعة عند المسلمين، إذ ترجم ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة من البهلوية إلى العربية، وكان المقصود من هذا الكتاب فى الأصل تعليم الأمراء قوانين الآداب عن طريق حكايات على ألسنة الحيوان. وأمتلأت كذلك كتب الأدب العربى نتيجة أعمال الترجمة من الفارسية بالمسائل التى تتناول آداب اللياقة والحكمة ونظام الدولة والتاريخ.

وكان للهند نصيب كذلك فى الميدان الثقافى الإسلامى، وبخاصة فى آداب الحكمة والرياضيات. ففى سنة ١٥٤هـ نقل رحالة هندى إلى بغداد كتاباً فى الفلك أسمه "سيدهانتا" الذى ترجم إلى العربية تحت اسم "سند هند". وقام بترجمة هذا الكتاب محمد بن إبراهيم الفزارى، الذى يعتبر أول فلكى فى الدولة الإسلامية. وينسب إلى ذلك العالم الهندى الذى جلب "سيدهانتا" ادخال علم الحساب الهندى بنظام أرقامه والتى اشتملت على علامة الصفر

الحركة الفكرية وتبادل العلماء:

وإذا كان الخلفاء العباسيون بذلوا جهداً عظيماً فى إحياء التراث اليونانى فى بلادهم فإنهم أدركوا أن سد الفراغ فى ذلك التراث الموجود بين أيديهم يتطلب الاستفادة من نشاط دولة الروم الثقافى. وذلك أن تلك الدولة ورثت القسط الأوفر من مؤلفات الأساتذة اليونان القدامى، وكان لابد من اتصال المسلمين بينا بيع المعرفة فى تلك الدولة لفهم الكنوز العلمية، التى وقعت فى حوزتهم. وتكشف حركة الترجمة التى بلغت أوجهأ فى العصر العباسى عن قوة الاتصال الثقافى بين المسلمين والروم، وتبين مقدار افادة المسلمون من ترجمة كتب اليونان فى بناء نهضتهم الفكرية والعلمية.

فعلى الرغم من قيام الدولة العباسية على أكتاف الفرس وازديار المؤثرات الفارسية فى نظم الدولة الإسلامية السياسية والاجتماعية فإن الخلفاء العباسيين لم يغفلوا أهمية دولة الروم وأثرها فى الميدان الثقافى. فدأب أولئك الخلفاء على أن يبعثوا إلى القسطنطينية يطلبون من أباطرتها الكتب النادرة وغيرها من كنوز المعرفة فمن ذلك أن الخليفة أبا جعفر المنصور بعث إلى إمبراطورية دولة الروم كتباً يونانية، وأن الإمبراطور أجابه إلى طلبه وأرسل إليه كتاباً من بينها كتاب إقليدس(١).

ويرجع إلى عهد المنصور أولى المحاولات للترجمة من اليونانية، وممن اضطلع بذلك أبو يحيى بن البطريق الذى ترجم الكتب الكبيرة لجالينوس وابقراط على أن كثيراً من الكتب التى ترجمت فى ذلك الوقت أعيد ترجمتها أو مراجعتها فيما بعد زمن الرشيد والمأمون(٢).

واستحوذ المسلمون كذلك على كثير من الكتب اليونانية الهامة إبان إغارتهم المتكررة على دولة الروم. فكانت إغارات هارون الرشيد على آسيا الصغرى لا تهدف إلى محاربة الروم والعودة محملة بالغنائم فحسب، وإنما رمت

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص٤٠١.

(2) Hitti, op, cit, 311.

كذلك إلى الاستيلاء على كنوز الروم الأدبية والعلمية، وإفادة الدولة الإسلامية منها وقام بمهمة ترجمة هذه الكتب التى جلبها الرشيد من حملاته على أنقرة وعمورية يحيى بن ماسوية الذى ترجم بعضها، مما كان يبحث فى الأمور الطبية(١).

وبلغت حركة الاتصال الثقافى بدولة الروم أقصاها فى عهد الخليفة المأمون الذى كان من أنصار حرية الرأى، ومشايعاً لمذهب المعتزلة(٢)، الذين نادوا بأن النصوص الدينية يجب أن توافق أحكام العقل. فحداد ذلك المأمون إلى دراسة المراجع الإغريقية الفلسفية باحثاً فيها عما يمكن أن يؤيد آراءه. وأسس فى بغداد سنة ٨٢٠م بيت الحكمة المشهورة للإشراف على حركة ترجمة الكتب اليونانية، وكان هذا المعهد يضم مكتبة ومجمعاً علمياً ولجنة للترجمة. ويعتبر هذا العمل خطوة جليلة ورعاية عظيمة من المأمون لتغذية العلوم الإسلامية بشتى معارف اليونان(٣) فقد كانت حركة الترجمة حتى زمن ذلك الخليفة حرة يقوم بها أفراد من المسيحيين، وممن اعتنقوا الإسلام حديثاً كذلك، تحت إشراف بعض كبار رجال الدولة من محبى العلوم والفنون. ومن أمثال هذه الحركة الأخيرة الجهود التى قام بها أبناء شاكر الثلاثة، إذ شملوا بعنايتهم المترجمين وشجعوا كثيراً من البحوث العلمية الخاصة. ومما يشهد لهم بالذكر الحسن فى هذا المضمار أنهم احتضنوا حنين ابن أسحق الذى غدا شيخ.

---

(1) Hitti, op, cit, 310, 311.

(٢) المعتزلة فرقة إسلامية يرجع تأسيسها إلى واصل بن عطاء الذى اعتزل مجلس أستاذه الحسن البصرى بمسجد البصرة لاختلافة معه فى الرأى. وتتلخص آراء المعتزلة فى القول بعدم تكفير مرتكب الكبائر، واعتباره فى منزلة بين المؤمن والكافر، كما قالوا بالقدر المأمون الذى أخذ بقولهم فى خلق القرآن، اى أنه مرتبط بالحوادث التى اقتضت نزوله، وذلك رداً منهم على الفقهاء الذين قالوا بأن القرآن كلام الله قديم قدمه سبحانه وتعالى. وقد أطلق المعتزلة لعقولهم عنان البحث فى حدود الدين، وقاوموا بذلك جمود خصومهم، وأنهم فى سبيل اقناع خصومهم أسسوا قواعد البحث والمناظرة.

(3) Hitti, op, cit, 310,

المترجمين فيما بعد. وكانوا أصحاب الفضل فى إظهار مواهبه. إذ أوفدوه على نفقتهم إلى بعض البلاد التى تتكلم اليونانية ليجيد هذه اللغة وليحصل على المخطوطات القيمة المدونة بها. وكانوا يجزلون العطاء لحنين بن أسحق، الذى كان يتناول منهم ٥٠٠ ديناراً شهرياً (نحواً من ٢٥٠ جينهاً)(١).

ولم يغفل المأمون أهمية الاتصال الثقافى بدولة الروم وجلب المراجع الإغريقية منها. فراسل الإمبراطور ليو الأرمنى (٨١٢ - ٨٢٠م) يطلب منه السماح للسفارات الإسلامية بالحصول على المصنفات اليونانية القديمة فى الفلسفة والهندسة والطب. وقبل الإمبراطور طلب المأمون الذى أوفد إذ ذاك جماعة من أشهر علماء عصره. منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وصاحب بيت الحكمة إلى القسطنطينية. فاختار هؤلاء المبعوثون ما راق لهم من المراجع وقفلوا عائدين بهذه الكنوز الثمينة إلى بغداد، وهناك كان قسطا بن لوقا يشرف على ترجمة هذه المراجع(٢). ومما يجدر بالملاحظة فى هذه الصدد أن معظم الذين اضطلعوا بترجمة الكتب اليونانية كانوا من السريان، أى المتكلمين باللغة الآرامية الشرقية(٣).

فكتاب الهرمنطيقا (Hermeneutica) لأرسطو ترجم أولا من اليونانية إلى السريانية على يد حنين، ثم ترجمه أسحق بن حنين من السريانية إلى العربية(٤).

---

(1) Hitti, op, cit, 310.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص٣٣٩، ٣٤٠.

(٣) دى بور، تاريخ الفلسفة فى الإسلام، (ترجمة أبو ريده) ص٢١.

كان السريان الوسطاء فى نقل الثقافة اليونانية من الإسكندرية وأنطاكية ونشرها فى الشرق، فى مدارس الرها ونصيبين وحران وجند يسابور. ويمتد عصر ترجمتهم للكتب اليونانية من القرن الرابع إلى القرن الثامن الميلادى تقريباً. واشتهر النساطرة بالدقة والأمانة فى النقل، حتى أن العرب الذى حملوا لواء الإسلام اعتبروا اللغة السريانية أقدم اللغات وأكثرها صحة. ولذلك كان معظم الذين اشتغلوا بنقل كتب اليونان إلى العربية فيما بين القرنين الثامن والعاشر الميلادى من السريان.

(4) Hitti, op, cit, 312- 313.

وكان لحركة الترجمة فى العصر العباسى، ولا سيما للكتب اليونانية أثر كبير فى بناء النهضة الثقافية وقيام الحركة الفكرية التى سادت الدولة الإسلامية. فأقبل العلماء المسلمون بعد دراسة الكتب المترجمة واستيعابها على التأليف فى سائر فروع المعرفة المختلفة. والمساهمة فى تقدمها بما وضعوه من أعمال قيمة ففى ميدان علوم الرياضيات ألف الخوارزمى سنة ٨٢٠م كتاباً لتدريس الجبر ودعمه بالأمثله. وظل هذا الكتاب مرجعاً هاماً فى العصور الوسطى حتى أن الأوربيين استخدموا الترجمة اللاتينية لهذا الكتاب إلى القرن السادس عشر الميلادى فى مدارسهم. وأجاد المسلمون تطبيق النظريات الهندسية والحسابية فى العمائر والمنشآت فاستخدموا الهندسة فى الزخارف الرائعة التى حليت بها مبانيهم ومساجدهم. ووصلوا فى علم حساب المثلثات ونظريات الزوايا والتماس إلى نتائج باهرة. كما استخدموا تلك العلوم فى تصميم مجارى المياه، وتطبيق مبادىء الميكانيكا فى صناعة الآلات الحربية والموازين الحساسة.

وعرف المسلمون عن الاغريق طريقة إيجاد الوزن النوعى. واستطاعوا بعد دراسة أعمال أقليدوس وبطليموس معرفة نظرية أفلاطون القائلة بأن الرؤية تتم بواسطة أشعة ترسلها العين على الأشياء. ولكن غالبية العلماء المسلمين فضلوا نظرية أرسطو التى ترى أن المرئيات ما هى إلا تأثير أشعة الضوء المنبعثة من الأشياء إلى العين. وبحث المسلمون فى المرئيات الخادعة. التى تحدثها إنكسار الأشعة وغيرها. على ضوء النتائج التى استمدوها من إقليدوس وبطليموس. ووضع ابن الهيثم نظرية عن المرئيات لحل هذه المسألة. وإلى جانب هذه الأبحاث قام ابن الهيثم، على ضوء نماذج يونانية، بتجارب على المرايا الكرية والمثلثة وابتكر طريقة صحيحة لايجاد البعد البؤرى.

وكان الفلك أحب الدراسات إلى المسلمين بعد الرياضيات. فأقيمت المراصد زمن المأمون فى كثير من نواحى الدولة. كما نجح العلماء المسلمون فى مراجعة جداول بطليموس الفلكية. وفى تحديد ميل سمت الشمس. واستطاع البيرونى

أن يحدد فى دقة خطوط الطول والعرض وهو من أقدم الفلكيين المسلمين، الذين ذاعت شهرتهما فى أوربا، بسبب الدراسات العميقة التى قام بها(١).

وابتعد المسلمون فى أعمالهم العلمية عن تيار الخرافات، وتجلى ذلك فى ميدان الكيمياء والطب. فشن ابن سينا وغيره من العلماء المسلمين حرباً على المنجمين والدخلاء على الكيمياء. وظهرت مجهودات المسلمين فى ميدان الكيمياء فى عدد الأنواع التى استطاعوا تجهيزها صناعياً، وتحسين النماذج التى وصلتهم عن الإغريق. ويرجع ذلك التفوق الإسلامى إلى استخدام العلماء للتجارب فى استجلاء الغموض من المظاهر المبهمة بدلا من الاعتماد على التأملات البحتة كما فعل الإغريق. فأجاد المسلمون طرق الصهر والإذابة والترشيح والتبلور ويعتبر جابر ابن حيان(٢) من اقدم من حضر العقاقير.

أما فى ميدان الطب فأحرز المسلمون نجاحاً فى ميدان الرمد وعلم الأمراض، وكذلك تقدموا فى ميدان فن التمريض واستخدامه فى المستشفيات العامة(٣) وقد أقبل الأطباء المسلمون الأول على ترجمة أعمال جالينوس وأبقراط وغيرهما من أطباء اليونان، ثم دخلوا بعد ذلك فى دور الابتكار. وأقدم رجال هذه الطبقة من الأطباء المبتكرين فى الدراسات محمد بن زكريا الرازى(٤)(٨٥٠-٩٢٣م) الذى وضع موسوعة عن الطب فى عشر مجلدات.

---

(١) أدخل البتانى (٨٧٧-٩١٨م) إصلاحات كثيرة على أعمال بطليموس، وبرهن على إمكان حدوث كسوف الشمس فى كل عام، أما البيرونى (٩٧٣-١٠٤٨م) فإنه استطاع أن يحدد فى دقة خطوط الطول والعرض.

(٢) هو أبو الكيمياء العربية، وأعظم أسم فى ميدان ذلك العلم فى العصور الوسطى وكان يقدر أكثر من أى كيماوى سابق له أهمية التجارب فى بحوثه. وخلف وراءه أعمالا باهرة فى هذا الميدان.

(٣) اهتم الخلفاء العباسيون بإنشاء المستشفيات فنسب إلى الرشيد تأسيس مستشفى بغداد الذى أطلق عليه بيمارستان. وتبع ذلك تأسيس مستشفيات أخرى فى سائر أرجاء الدولة الإسلامية بلغ عددها أربعة وثلاثين. وكذلك بتلك المستشفيات أجنحة خاصة للسيدات، ولكل منها صيدلية خاصة. وتقدم فن التمريض بها حرصاً على سلامة المرضى وراحتهم.

(٤) سمى الرازى نسبة إلى مولده فى الرى، التى لا تبعد عن طهران عاصمة فارس الحديثة.

واشتهر ابن سينا(١) بعد الرازى بمؤلفه فى الطب والمعروف باسم «القانون».

ولم يكن مستغرباً أن يتبادل المسلمون ثمار تقدمهم العلمى مع الروم إذ شاهدت دولة الروم فى القرن التاسع الميلادى وهو عصر المأمون نهضة ثقافية فى الآداب والعلوم. فأحيا برادس أعظم رجال دولة الروم إذ ذاك، والمتصرف الحقيقى فى شئون الدولة، جامعة القسطنطينية القديمة، وعين لها أساتذه فى الهندسة والفلك وفقه اللغة(٢) على أن أعظم شخصيات الروم فى القرن التاسع الميلادى الإمبراطور ثيوفيل. وقد عاصر الخليفة المأمون، وكانت القسطنطينية فى عهده تنافس بغداد فى الأبهه وفى حلبة الثقافة. وكانت مدارسها وجامعتها القبلة التى جذبت أنظار العلماء المسلمين إليها. وجهدت بغداد فى استدعاء مشاهير علماء الروم إليها، فمن ذلك أنه عاش فى القسطنطينية فى عهد الإمبراطور ثيوفيل عالم مشهور فى الرياضيات اسمه ليو. وذاع صيت هذا العالم فى الخارج ووصل إلى الدولة الإسلامية عن طريق تلاميذه. فلما ترامى إلى المأمون نبأ هذا العالم من علماء الروم أرسل إليه يستدعيه إلى بلاطه وأغراه بأجزال العطاء له. لكن الإمبراطور ثيوفيل علم بهذه الدعوة، فمنح ليو وظيفة معلم فى إحدى كنائس القسطنطينية، وقرر له راتباً شهرياً. على أن حرص المأمون على هذه العالم دعاه إلى إيفاد رسالة شخصية إلى الإمبراطور يطلب فيها السماح بإيفاد ليو إلى بغداد لمدة قصيرة، وذكر فى رسالته أنه يعد قبول الإمبراطور هذا الطلب عملا ودياً، وأنه يعرض لذلك ألف قطعة من الذهب وعقد صلح دائم غير أن ثيوفيل رفض إجابة طلب المأمون، ولا سيما أن دولة الروم اعتبرت علم ليو واختراعاته التى كان يقوم بها من الأسرار التى ينبغى ألا يطلع عليها المسلمون(٣).

---

(١) ابن سيناء أشهر شخصية فى ميدان الطب بعد الرازى، ويسميه المسلمون "الشيخ الرئيس". ومن مؤلفاته العلمية كتاب الشفاء الذى يعتبر دائرة معارف فلسفية والقانون فى الطب الذى يعد صورة مرتبة عن الفكرة الطبية عند اليونان والعرب.

(2) Baynes. op, cit, 162.

(3) Bury, The Easteen Empire, 336. 438.

وتبادل علماء المسلمون والروم كذلك الزيارات لمشاهدة الآثار ذات القيمة التاريخية فى بلديهما، ومنحت السلطات فى كل من الدولتين أولئك العلماء جميع التسهيلات لأداء مهمتهم. فأرسل الخليفة الواثق سنة (٧٤٢-٨٤٧م/٢٢٨-٢٣٢هـ) أحد العلماء المسلمين إلى مدينة إقتيوس لمشاهدة الكهوف التى كان محفوظاً فيها جثث الشبان السبعة الذين استشهدوا أيام دقلديانوس، وأذن الإمبراطور ميخانيل الثالث للعالم الإسلامى بالقيام بهذه الزيارة، كما أوفد معه رجلا يؤدى مهمة الدليل(١). ولم ينقطع الاتصال الثقافى بين المسلمين والروم حتى القرون الأخيرة من حياة إمبراطورية الروم. فيذكر بسلوس (Psellus) أحد المؤرخين الروم، ومن مشاهير فلاسفة الدولة، وأعظم رجال السياسة فى البلاط فى القرن الحادى عشر الميلادى، أن طلاباً من المسلمين تعلموا على يديه وكان من بينهم طالب من العراق نفسها(٢).

---

(1) Byzantium, 316.

(2) Runciman, op. 292.

أنظر الملحق ٤.

صدى الأحداث السياسية فى آداب الدولتين

إذا كانت الاتصالات الثقافية بددت سحب الأوهام المخيمة على عقول المسلمين والروم وجعلت كلا منهما ينظر إلى صاحبه بمنظار صادق جلى، فإن أحداث حروبهما وكذلك دوى حركاتهما المحلية تردد صداها فى آداب الدولتين وفلسفتيهما فى الحياة. فأدت الاصطدامات المسلحة بين الطرفين إلى إمتلاء آدابهما بالقصص والأشعار التى تمجد البطولة والبسالة وتشيد بالأقدام والمغامرة، وأضحى كثير من الرجال الذين تناولتهم هذه الآداب شخصيات أسطورية، لها قوة خارقة للعادة ومقدرة على أداء أعمال مدهشة. فالمراجع العربية تشيد بمحارب مسلم اسمه عبدالله البطال وتمجد مغامراته فى حروبه ضد الروم، وكان هذا المغامر المسلم كبير حراس مسلمه بن عبدالملك الذى حاصر القسطنطينية سنة ٧١٧م. فقد أبدى عبدالله البطال من ضروب الأقدام والشجاعة ما اكسبه لقب بطل الإسلام، وظل على جهاده حتى استشهد فى معركة أكرونيون بآسيا الصغرى، سنة ٧٤٠م.(١)

وكذلك خلدت أشعار الروم أعمال ابطالها الذين لقوا حتفهم فى الحروب ضد المسلمين. فوضعت ملحمة تشيد ببطولة أحد الأشخاص ويدعى ديجينيس أكريتاس (Digenis Akrtilas) وكان والد هذا المغامر مسلماً تحول إلى المسيحية ودخل خدمة دولة الروم، وقام ديجينيس نفسه بغارات سلب ونهب على أطراف الحدود الإسلامية فى القرن الثامن الميلادى خارج نطاق جيوش الروم النظامية، وإن كان قد ساهم فى بعض الأحيان فى العمليات الحربية لهذه الجيوش. وتصور هذه الملحمة كثيراً من الوقائع وحياة المحاربين على الحدود بين المسلمين والروم، ومن الطريف أنه حدث خلال تلك الإغارات المتكررة زواج بين افراد الدولتين، وأن الاتصال بينهما لم ينقطع برغم نشوب العداء، على أن ديجينيس لقى حتفه فى آسيا الصغرى سنة ٧٨٨م، ودفن هناك حيث يوجد قبره بالقرب من مدينة سميساط(٢).

---

(1) Byzantium, 319.320.

(2) Runciman, op, cit, 182, 192.

وتعتبر ملحمة ديجينيس أكريتاس وغيرها من ملاحم البطولة عند الروم مصدراً غنياً عن العلاقات الثقافية بين الروم والمسلمين، وفوق ذلك تردد صدى أحداث إغارات المسلمين على الروم فى القرن التاسع الميلادى فى الأغانى الشعبية التى دارت حول أحداث مناطق الحدود. ففيها تصوير لانتصارات المسلمين ولا سيما غارة عمورية وتخريبها على يد المعتصم سنة ٨٣٨م/٢٢٣هـ

وسجل الشعراء المسلمون أيضاً أنباء حروبهم وانتصاراتهم على الروم. ففى عهد الرشيد ترى الشعراء يمجدون انتصاراته ويشيدون ببطشه وشدة انتقامه من الأعداء(٢). كذلك صور الشعراء ألمهم من إغارة الإمبراطور ثيوفيل على زبطرة سنة ٨٣٧م، وألهبوا ببيانهم الهمم للأخذ بالثأر(٢). فخرج المعتصم للانتقام وخرب عمورية، التى خلد ذكر حملتها الشاعر المشهور أبو تمام فى إحدى قصائده الرائعه. على أن عصر الحمدانين فى شمال الشام يمدنا بالأدلة الواضحة على اثر الحروب بين المسلمين والروم فى الأدب الإسلامى، إذ اشتهر سيف الدولة الحمدانى بإغاراته المتكررة على أرض الروم، كما اشتهر بمجالس الأدب التى عقدها، والتى أنشدت فيها قصائد المتنبى(٤)، وأبى فراس الحمدانى(٥)، تمجيداً لبطولته وبسالته فى الحروب. وضمت هذه المجالس

---

(١) ومن ذلك قول أبى العتاهية حين خرب هارون الرشيد مدينة هرقله انتقاماً من الإمبراطور نقفور الأول:

ألا نادت هرقله بالخراب ... من الملك الموفق للصواب
غدا هارون يرعد بالمنايا ... ويبرق بالمذكرة القضاب
ورايات يحل النصر فيها ... تمر كأنها قطع السحاب

(٢) فقد دخل إبراهيم بن المهدى على المعتصم وأنشده قصيدة يذكر فيها ما حل بزبطرة من نكبات:

ياغارة الله قد عاينت فانتهكى ... هتك النساء وما منهن يرتكب
هب الرجال على إجرامها قتلت ... ما بال أطفالها بالذبح تنتهب؟

(٣) ففى هذه القصيدة يقول أبو تمام:

السيف أصدق أنباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت ... عنك المنى حفلا معسولة الحلب

(٤) قال المتنبى يصف انتصار سيف الدولة فى إحدى إغاراته وقلة الأعداء:

بناها على والقنا تقرع القنا ... وموج المنايا حولها متلاطم
وكان بها مثل الجنون فأصبحت ... ومن جثث القتلى عليها تمائم

(٥) قال أبوفراس الحمدانى يصف حملة لسيف الدولة أسرفيها شخصية كبيرة من الروم:

وآب بقسطنطين وهو مكبل ... تحف بطاريق به وزرازر
وولى على الرسم الدمستق هارباً ... وفى وجهه عذر من السيف عاذر

الأدبية كذلك ابن نباته (المتوفى سنة ٩٨٤م)، ذلك الخطيب البليغ. فكان لعظاته ذات الفقرات التى صيغن فى قلب من السجع أثر كبير فى إثارة حماسة مستمعيها وحثهم على الإشتراك فى الجهاد ضد الروم.

ويلاحظ فى استعراض آداب الدولتين أن كثيراً من الكلمات العربية انتقلت إلى اليونانية. وكذلك دخلت كلمات يونانية اللغة العربية نتيجة الاتصال المتبادل. ولكن هذه الكلمات المنقولة سواء العربية منها أو اليونانية أخذت صوراً محرفة بدرجة يصعب معها معرفة الأصل الحقيقى للكلمة. على أننا يمكن نلتمس أثراً لمثل هذه الكلمات المنقولة وتعريبها فى التراجم الأولى التى قام بها المسلمون. فعندما اعترضت المترجمين قطعة صعبة، عمدوا إلى ترجمتها حرفياً، فإذا لم يجدوا مرادفاً عربياً نقلوا اللفظ اليونانى بحروفه مع إدخال شىء من التغيير عليه(١). ومن ذلك كلمات «ارتماطيقى» حساب، «وجومطريقى» هندسة. إلخ. التى ترى فى التراجم العربية الأولى.

وليس أدل على ترديد الحركات الداخلية فى الدولتين لصدى بعض آثار الاتصال الثقافى بينهما من المشكلة اللاإيقونية، التى ظهرت فى دولة الروم فى القرن الثامن الميلادى. فيتجلى فى هذه الحركة مبلغ التأثير الإسلامى فى تفكير الإمبراطور ليو الثالث، الذى أشعل فتيلتها الأولى. فإلى جانب الأسباب السياسية التى دفعت ذلك الإمبراطور إلى تحريم عبادة الصور والإيقونات، وإصداره المرسوم المشهور سنة ٧٢٦م، كان للديانة الإسلامية وجالياتها العديدة فى أرض دولة الروم أثر كبير على هذه الحركة. فالمسلمون يحرمون تقديس الصور وأشباهها من مخلفات القديسين. ونشأ الإمبراطور ليو وقضى حياته الأولى فى بيئة إسلامية يسودها هذا الاعتقاد.

ويبدو أن مسألة تقديس الصور كانت شائعة كذلك عند المسيحين التابعين للدولة الإسلامية. ذلك أن الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك أمر فى

(1) De Lacy O'Leary, How Greek Science Pased to the Arabs, 100.

سنة ٧٢٢م/١٠٤هـ، بكسر الصلبان وإزالة الصور والتماثيل من كنائس المسيحيين في الدولة الإسلامية. ويلاحظ أن هذا القرار صدر قبل منشور الإمبراطور ليو بثلاث سنوات(١). على أن الدولة الأموية لم تكمم بذلك العمل حرية رعاياها المسيحيين في الاعتقاد بأهمية الصور المقدسة. ففي عهد الخليفة يزيد نفسه قام حنا الدمشقي، أعظم رجال الكنيسة الشامية التابعة للدولة الإسلامية بالرد على سياسة الإمبراطور «ليو» اللاإيقونية. وكتب ثلاث مقالات مشهورة رد فيها على الذين يحطون من شأن الصور المقدسة، وغدت هذه المقالات سلاحاً ماضياً في أيدي الروم الذين دافعوا عن الإيقونات(٢).

نظم الروم وتكوين الدولة الإسلامية

لم يقتصر المسلمون على التزود من معين الثقافة اليونانية والإفادة منها فحسب، وإنما أخذوا عن الروم كذلك ثمار تجاربهم الطويلة في ميدان النظم الإدارية والحربية. ويلاحظ أن موقف الدولة الإسلامية في هذه الصدد كان سلبياً إذ حافظت على النظم الإدارية في ولاياتها التي كانت خاضعة من قبل للروم، وابقت في المرحلة الأولى من الفتوح على هيئة العمال التي خدمت الروم(٣). ولم يجد الحكام المسلمون غضاضة في الاستعانة بخبرة عمال يجلبونهم من القسطنطينية نفسها، حتى إنه يمكن القول أن دولة الروم ساهمت بنصيب كبير في بناء الحضارة الإسلامية. وهذه الروم الإسلامية الواسعة الأفق هيأت للمسلمين إمبراطورية زاهرة يسود رقعتها الهدوء والنظام، وتحلى جنباتها العمائر والمنشآت.

---

(1) Byzanitum, 316.

(٢) حنا الدمشقي أحد العلماء المسيحيين البارزين في ميدان الثقافة اليونانية. وبرغم أنه لم يكن يونانياً، وإنما كان سوريا يتكلم الآرامية. فإنه كان يجيد اللغتين اليونانية والعربية، وكتب بهما. وكانت أسرة حنا من المخلصين للدولة الإسلامية، فكان منصور بن سرجيوس جد حنا ممن سهل للمسلمين فتح مدينة دمشق، وتولى إدارة الشئون المالية في هذه المدينة زمن الفتح العربي. وتولى والد حنا هذا المنصب كذلك. وكان حنا نفسه نديماً ليزيد بن معاوية. ووضع حنا كتباً في العقيدة المسيحية والجدل القائم حولها، وكذلك في التاريخ والفلسفة، وفي الخطابه والشعر. ويعتبر حنا بفضل هذه المؤلفات أشهر رجال الكنيسة المسيحية التابعة للدولة الإسلامية.

(3) De Lacy O'Leary, How Greek Science Pased to the Arabs, 135.

وتتجلى فى مصر والشام عناية المسلمين فى الاحتفاظ بأوضاع الروم واتخاذها أسساً لإدارتهم. فظلت الوظائف الإدارية فى مصر تسير على النهج الذى وضعه الروم، ذلك أن مهام الحاكم العام الذى أطلق عليه الروم اسم سيمبولوس (Symboulos) غدت فى أيدى عامل إسلامى لقب بالأمير، وكان يشرف على شئون الوجهين البحرى والقبلى كما فعل سميه أيام سيادة الروم. وساعد هذا الأمير فى أعماله كاتب عن كل قسم من قسمى الدولة عرف باسم «صاحب» وهو ما يرادف (Chartularius) فى اللغة اليونانية. كذلك قسم الوجهان إلى «كور» كانت هى الإقاليم عرفت زمن الروم باسم Pagarchies . وكان المهيمن على شئون الكورة يدعى «صاحب الكورة» وهو مرادف للكلمة (Pagarchos) . وظل دولاب العمل يسير على نسق الأداة عند الروم. فكل قرية من قرى الكور احتفظت بسجل فيه أسماء دافعى الضرائب وممتلكاتهم، وكذلك أرباب المهن والحرف. وكانت هذه السجلات تعد بمساعدة كبار رجالات القرى الذين عرفوا فى أيام الروم باسم «مَوازيت» (Mezones) ، وبعد أن تنتهى السلطات المحلية من إعداد السجلات كانت ترسلها إلى العاصمة حيث تعتمدها السلطات العليا هناك(١).

أما فى الشام فقد احتفظ المسلمون بالتقسيم الإدارى الذى كان سائداً من قبل زمن الروم. وكان هذا النظام ذا طابع خاص يجمع حاكم الإقليم إلى جانب مهامه المدنية سلطات حربية. فأبقى المسلمون على هذا الوضع وأطلقوا على الأقسام اسم الأجناد (جمع لكلمة جند)، وهى تسمية مشتقة من كلمة جند أو فرق الجيش التى كانت تصرف حاكم الإقليم، وبذلك أضحت الأقسام الإدارية بالشام كما يلى:

١- فلسطين الأولى (Palestina Prima) التى كانت تشمل الهضبة اليهودية، أطلق عليها جند فلسطين وصارت عاصمتة «الرملة».

---

(1) Bell, Greek Papyri in the British, Museum iv, 17.18.
Nabia Abbott, The Kurrah Papvri, 99.100

سيدة إسماعيل كاشف. مصر فى فجر الإسلام، ص٢٨، ٢٩.

٢- فلسطين الثانية (Palestina Secunda) التى كانت تضم الجليل والجزء الغربى من البتراء صارت جند الأردن وعاصمته «طبرية».

٣- فلسطين الثالثة (Palestina Tertia) التى كانت تضم البتراء العربية دخل جزء منها فى جند دمشق وجزء آخر فى جند فلسطين.

٤- فينيقيا الأولى (Phoenicia Prima) وفينيقيا الثانية أو لبنان (Libanun Ad) أصبحت تكون جميعاً جند دمشق الكبير.

٥- سورية الثانية (Syria Secunda) وهى الجهات الواقعة شمال جند دمشق قسمت بين جند حماه وجند حمص.

٦- سوريا الأولى (Syria Prima) أصبحت جند حلب أو جند قنسرين(١).

على أن المسلمين اثروا بدورهم فى نظم الروم الإدارية، كما تجلى أيام أسرة الإمبراطور «هرقل» فقد أدى قيام الدولة الإسلامية إلى جوار إمبراطورية الروم. وهجومها المتواصل على أراضيها إلى تدعيم النظم الجديدة التى وضع أسسها هرقل للاحتفاظ بما تبقى من إمبراطوريته. فبعد سقوط الشام فى أيدى المسلمين وتراجع جيوش هرقل إلى آسيا الصغرى. غدا هذا الإقليم محط عناية الأباطرة لمواجهته للحملات الإسلامية المتكررة، ولأنه أصبح أهم مورد للدولة تجند منه جيوشها، وتجبى منه ثروتها. ولذلك اقتضى الدفاع عن آسيا الصغرى أن تكون بلادها على تمام الأهبه فى اى وقت لصد الإغارات الإسلامية. فوزع الأباطرة فيالق (Themata) من الجيش(٢) على جهات من آسيا الصغرى تعسكر فيها بصفة دائمة ولترغيب الجند فى الاستقرار بأماكنهم منحتهم الإمبراطورية قطعاً من الأرض يستغلونها ويتمتعون بخيراتها. كذلك منح قائد الفيلق فى الإقليم سلطات مدنية واسعة. وبذلك أضحت آسيا الصغرى مقسمه إلى أقاليم حربية بكل منها فيلق من الجيش (Thema) ويجمع قائد ذلك الفيلق فى يده أبعاء الحاكم المدنى فضلا عم مهام الأشراف على الفيلق نفســـه.

(1) Lestrange, Palestine under the Muslums, 26.
(2) Bury, History of the later Roman Empire II, 248.

وبالتدريج أعطت الفرق الحربية أسماءها للأقاليم التى أقامت فيها(١). ويطلق المسعودى على هذه الأقاليم اسم «البنود» وربما جاءت تلك التسمية من الرايات أو البنود التى اتخذتها الفيالق شعاراً لها.

وقد عقد المسعودى مقارنة بين بنود الروم وأجناد الشام قائلا: «أرض الروم واسعة فى الطول والعرض آخذه فى الشمال والشرق، مقسمة فى قديم الزمن على أربعة عشر قسماً: أعمال مفردة تسمى البنود كما يقال أجناد الشام. كجند فلسطين وجند الأردن، وجند فلسطين، وجند حمص، وجند قنسرين، غير أن بنود الروم أوسع من هذه الأجناد وأطول(٢).

غير أن الطابع الفارسى غلب على نظام الحكم فى الدولة الإسلامية زمن العباسيين. ذلك أن أبا جعفر المنصور شيد عاصمته بغداد فى المنطقة التى شهدت المدائن عاصمة الفرس الساسانيين(٣). ومن ثم تسربت المؤثرات الفارسية إلى سائر المرافق العباسية على الرغم من محاولة الخلفاء العباسيين صبغ دولتهم بمظهر ثيوقراطى أساسه السيادة لرجال الدين. إذ عمد العباسيون إلى إحاطة أنفسهم بهالة دينية تبعدهم عن المظاهر الدنيوية التى جعلت الخلافة الأموية مكروهة عند الأنقياء من المسلمين ولكن العباسيين تأثروا فى نظرتهم إلى الحكم بنظرية الفرس القديمة القائلة بالحق الملكى المقدس. أى اعتبار كل حاكم لا يمت للبيت المالك بصلة مغتصباً للسلطان الذى هو منحه مقدسة. فقال أبو جعفر المنصور: «إنما أنا سلطان الله فى أرضه» أى لا يحق لأحد عزله.

---

(1) Runciman, op, cit, 88.

(٢) المسعودى: التنبيه والإشراف، ص١٥٠.

(٣) تأسست العاسمة الجديدة على نهر دجلة فى سهل خصيب، وعند نقطة تلتقى عندها أهم الطرق التجارية فى أسيا الغربية، حيث قامت من قبل بابل والمدائن. وبدأ المنصور بناء مدينة بغداد سنة ١٤٥هـ فى ذلك المركز القديم الذى يقترب من موطن الفرس، عمد الدولة العباسية الناشئة. وكانت بغداد مدورة ويحيط بها سوران عظيمان من لبنات ضخمة. وكان للمدينة فى كل من حوائطها الدائرية أربعة أبواب على أبعاد متساوية، ويبدأ من كل منها طريق رئيسى يصل إلى قلب المدينة.

واقتبس العباسيون عن الفرس كذلك نظام الوزارة. التى علا شأنها فى إدارة الدولة. فكان الوزير ينوب عن الخليفة فى حكم البلاد، ويعتبر حلقة الاتصال بينه وبين سائر مرافق الدولة. وتولى هذا المنصب الهام شخصيات فارسية، حتى غدا منصب الوزارة أشبه بوقف على الفرس دون غيرهم. وظل الوزراء طوال العصر العباسى الأول خاضعين تماماً لسلطان الخلفاء، لا يبرمون أمراً دون الرجوع إليهم. وكلن حين ضعف الخلفاء ازدادت هيبة الوزراء، وصاروا أحراراً فى إدارة شئون الدولة. وحرص الخلفاء العباسيون على تقوية قبضتهم على حكام الولايات عن طريق تدعيم نظام البريد، الذى كان فارسياً كذلك فى أصله. فأسسوا فى العاصمة بغداد ديواناً كبيراً للبريد. وله فروع فى حواضر الولايات. ذلك أن البريد كان خاضعاً بأعمال الدولة، ويقوم بمهام تختلف عن أغراض البريد فى العصر الحاضر. فقام المشرف على ديوان البريد فى الولايات أو «صاحب البريد» كما لقب بذلك، بمراقبة عمال الولايات والتجسس على الأعداء، ويوصل الأخبار إلى رئيسه فى العاصمة، الذى ينقلها بدوره إلى الخليفة.

النظام الحربى:

منذ أن اشتبكت القوات الإسلامية بجيوش الروم فى الشام وقادة المسلمين يعملون على اقتباس أساليب الروم فى القتال وفى تعبئة جندهم. ولم يبدأ العصر الأموى إلا وقد كانت جيوش الدولة الإسلامية تسير وفق القواعد الحربية عند الروم. فقسمت وحدات الجيش خمسة أقسام: قلب وجناحان ومقدمة ومؤخرة. وتشابه جند الروم فى الزى والدروع. وكانت نفس السروج التى يضعها المسلمون على جيادهم بسيطة مدورة على نسق سروج الروم. كذلك استخدم كل منهما من آلات الحرب الثقيلة العرادة والمنجنيق والدبابه أو الكبش.

واتبع العباسيون أساليب الروم كذلك فى تقسيم فرق الجيش ولا سيما فى عهد المأمون والمستعين. فكل عشرة جنود كانت تحت قيادة «عريف»

وهو الديكريون (decurion) فى جيش الروم، وكل خمسين عريفاً تحت قيادة خليفة، وكل مائة خليفة تحت إشراف قائد وهو «الكنتريون» (Centurion) فى نظام الروم. وكانت كل عشر فرق - وتعدادها عشرة آلاف - تحت إمرة أمير (جنرال). وقد سميت هذه الفرق المجتمعه باسم «كردوس».

وكانت مقدرة الجيوش الإسلامية على التحرك سريعاً وتعبئة قواتها فى وقت قصير من الأمور التى كفلت لهم التفوق على الروم. وأثنى أباطرة الروم على حسن نظام الجيوش الإسلامية، ودقة خططها وإحكامها، فوصف الإمبراطور قسطنطين بورفيروجنتيوس (Constantine Porphyrogennetus) (٩١٢-٩٥٩) شجاعة المسلمين قائلا: إنهم مغامرون ميالون إلى الحرب، بحيث لو أن ألفاً منهم احتل موضعاً غدا من المستحيل إخراجهم منه، إنهم يحبون ركوب الإبل ويفضلونها على الخيول. وكان الروم كذلك يدونون ملاحظاتهم على سلوك الجند الإسلامى والأحوال التى تعرقل حركاتهم. فكان المحارب المسلم يمقت الجو الممطر البارد، وإذا كسرت خطوطه الدفاعية فقد التعاون وساده الاضطراب. ولكن على الرغم من ذلك تفيض الكتب التى دونها الروم عن حروبهم مع المسلمين بتمجيد المحارب المسلم وعلو روحه المعنوية.

أما عن الأسطول الإسلامى فكان مشابهاً تماماً لأسطول الروم. وأوضحت لنا أوراق البردى التى كشفت فى السنوات الأخيرة مدى استعانة المسلمين بخبرة أهالى البلاد المفتوحة فى بناء الأساطيل. وكانت مصر هى العمود الفقرى للأسطول الإسلامى ولا سيما فى عهد الأمويين فقد زودت الدولة الإسلامية بالسفن والعتاد وللرجال والمؤن كما تجلت مواهب المصريين البحرية التى وضعوها فى خدمة المسلمين فى سلسلة الانتصارات الباهرة المبكرة التى أضيفت إلى قائمة الفتوحات الإسلامية. ولا غرابة أن يكون المصريون وأهل الشام عصب الأسطول الإسلامى وقادته الذين ساروا به إلى الفوز والفلاح: فقد مرنوا على أساليب حياة البحار وفنون القتال فيه منذ تبعتهم لدولة الروم، وللدولة الكبرى كذلك من قبل.

وبنيت السفن الإسلامية على طراز الروم، وكانت غالباً ذات طابقين الأسفل مخصص للجدافين، والأعلى للمقاتلة. وكان على ظهر كل سفينة عدد من المراسى يقال لكل منها «أنجور» وهو نفس اللفظ اليونانى. ولاحظ الروم أن المسلمين يميلون إلى الضخامة فى بناء سفنهم، ولكن شهدوا ببراعتها فى القتال. وكانت المعارك البحرية نادرة الوقوع فى عرض البحر، وإنما جرت بين الطرفين قرب الموانىء والجزر. وغدا البحر الأبيض المتوسط فى القرن العاشر الميلادى ميداناً اصطدمت فيه سفن المسلمين بالروم؛ ووصف الأصطخرى حالة البحر الأبيض المتوسط إذ ذاك قائلا: «وليس فى البحار أحسن حاشية من هذا البحر فإن العمارات فى الجانبين ممتدة غير متقطعة... وتتردد فيه سفن المسلمين والروم، يعبر كل فريق إلى جانب الآخر سواء فيغنمون، وربما اجتمع فيه الجيوش من المسلمين والروم فى السفن فيجتمع لكل فريق مائة سفينة حربية وأكثر من ذلك، فيكون حربهم فى الماء، وهذه صفة هذا البحر وما يكون فيه(١).

(١) الاصطخرى: المسالك ص ٧١.

الفصل السادس

التمثيل الدبلوماسى بين الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم الدبلوماسية فى الإسلام

حقوق الجوار:

اتسمت العصور الوسطى بأنها عصور الدين، وذلك لقيام دينين سماويين جنبا الى جنب وهما المسيحية والإسلام، وانتشارهما فى بقاع شاسعة من أرجاء العالم المعروف إذ ذاك. فاشتملت رقعة الإسلام على بلاد الدولة الاسلامية، التى امتدت من أطراف الصين شرقا الى المحيط الأطلسى غربا. وذلك فضلا عن الجماعات الإسلامية الكبرى فى الشرق الأقصى وجنوب الروسيا وجوف أفريقيا وسواحلها الشرقية.

وجاور هذه الدولة الإسلامية، إمبراطورية الروم المسيحية «الإمبراطورية البيزنطية» التى اشتملت رقعتها على آسيا الصغرى وبلاد البلقان وإيطاليا، وذلك فضلا عن الجماعات المسيحية الكبرى فى بلاد الغال «أرض فرنسا» والجزر البريطانية وشمال أوربا وبلاد الروسيا.

ولم تكن العلاقات بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية «الروم» علاقة عداء مرير، بحيث استهدفت كل منهما القضاء على الأخرى، وإنما نظمت كل من هاتين القوتين علاقتهما على أسس دينية، بحيث تعيشان فى مودة وسلام. وكشفت الرسائل التى تبادلها كبار رجال الدولتين عن تلك الحقيقة السالفة،

وحرص كل منهما على التمسك بأهداب حسن الجوار.

ومن أمثلة أساليب المودة التى سادت العلاقات الاسلامية البيزنطية، الرساله التى بعث بها بطريق القسطنطينية، نيقولا ميستيكوس، الى حاكم جزيرة كريت المسلم، أيام تبعيتها للدولة الاسلامية فى منتصف القرن العاشر الميلادى، إذ جاء فى تلك الرسالة ما يلى:

«الى الأمجد الأغر الأشرف، أمير جزيرة كريت إن أعظم قوتى العال أجمع، قوة العرب وقوة الروم، تعلوان: وتتألقان كالشمس والقمر فى السماء، وبهذا وحده يجب أن نعيش إخوة، على الرغم من اختلافنا فى الطبائع والعادات والدين».

وفى ظل تلك الروح السمحة الأخوية جرت العلاقات الخارجية وأساليبها، أو ما يسمى بالدبلوماسية، بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية. فأوفدت الدولة الإسلامية سفراءها منذ أيامها الأولى الى بلاط الروم بالقسطنطينية، كما بعث أباطرة الروم بسفرائهم الى عواصم الدولة الإسلامية ردا على التمثيل الدبلوماسى الإسلامى.

وينسب الى الرسول الكريم، وهو مؤسس الدولة الإسلامية، إرسال أول سفارة إسلامية الى هرقل، إمبراطور الروم. فبعث وفدأ من الصحابة على رأسهم دحية الكلبى، ومعهم كتاب منه يدعو فيه هرقل الى الإسلام. وصيغت فقرات الكتاب فى أسلوب يحمل كل معانى حسن الجوار، ويكشف عن سمو الدبلوماسية الإسلامية فى صدر حياتها، فجاء فى هذا الكتاب:

«من محمد رسول الله، الى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى»

أما بعد:

فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين».

وتبادل المسلمون والروم السفراء والمكاتبات منذ سفارة دحية الكلبى، إذ بعث قيصر الروم سفارة إلى النبى ردا على دعوته الى الإسلام. ثم تابع أبو بكر، بعد أن ولى خلافة الدولة الإسلامية، سياسة النبى، فأوفد سفارة من ثلاثة

أشخاص الى قيصر الروم. وزادت العلاقات الدبلوماسية الإسلامية مع الروم نشاطا بخلافة عمر بن الخطاب، وذلك بسبب اتساع الدولة الإسلامية فى الشام، واقتراب حدودها من آسيا الصغرى، موطن قوة الروم ومهد أباطرتهم.

غير التمثيل السياسى بين الدولة الإسلامية ودولة الروم أخذ طابعا منظما منذ قيام الدولة الأموية. واتخاذها دمشق عاصمة لخلافتها. فكان قرب دمشق من القسطنطينية يشجع تبادل السفارات بينهما، وذلك فضلا عن أن أطراف الدولة الإسلامية قد استقرت فى ذلك الوقت عند سلسلتى جبال طوروس، التى غدت تكون حدا فاصلا بين المسلمين والروم، يحترمه كل منهما ويعملان معا على تدعيم السلام بالقرب منه.

التوازن الدولى:

وبنهاية العصر الأموى حدث تطور فى التوازن الدولى حمل الدولة الإسلامية على توسيع دائرة نشاطها الدبلوماسى. وكان أول مظاهر هذا التطور فى التوازن الدولى هو انفصال الأندلس عن الدولة الإسلامية، واستقلالها بشئونها منذ قيام العباسيين على عرش الخلافة، واتخاذهم بغداد عاصمة لهم. ذلك أن أحد أبناء البيت الأموى الذى تداعى أمام قوة العباسين، ويدعى عبدالرحمن الداخل استطاع سنة ٧٥١م أن يفر الى الأندلس. وأسس لنفسه إمارة هناك عرفت باسم الإمارة الأموية.

ونافست تلك الإمارة الأموية بالأندلس سلطان العباسيين فى بغداد، وظلت تمثل خطرا يتهدد ممتلكات العباسيين فى شمال أفريقيا. ثم إن أمراء بنى أمية بالأندلس عمدوا الى منافسة العباسيين أيضا فى ميدان الحضارة، فجعلوا من عاصمتهم قرطبة مركزا ثقافيا زاهرا، يحج اليه العلماء والطلاب، وزينوا تلك العاصمة بالمساجد الفاخرة والعمائر الشاهقة حتى تنتزع قرطبة عظمة بغداد، أو تقف معها على قدم المساواة.

وحوالى تلك الفترة التى تأسست فيها الإمارة الأموية بالأندلس، قامت

قوة أخرى جديدة تنافس إمبراطورية الروم زعامة العالم المسيحى. وكانت تلك القوة المسيحية الجديدة هى دولة الفرنجة، التى شيدت سلطانها فى بلاد الغال «أرض فرنسا». واشتهر ملوك هذه الدولة المسيحية الجديدة بالقوة والبأس، وبالحماسة فى نشر المسيحية بين أهالى شمال أوربا، الذين لم تصلهم المسيحية فى ذلك الوقت.

وسرعان ما اتسع نفوذ الفرنجة وعلا ذكرهم بسبب ما نالوه من قوة، ولنشاطهم فى نشر المسيحية. وبلغ الفرنجة أوج مجدهم سنة ٨٠٠م حين صار شرلمان إمبراطورا عليهم، ومنافسا خطيرا لأباطرة الروم فى ميدان الزعامة على العالم المسيحى.

وتجلت مظاهر زعامة الفرنجة للمسيحية حين اتصل البابا فى روما بالإمبراطور شرلمان ليحميه من الأعداء المحيطين به فى إيطاليا. وسخر شرلمان سيفه فى سبيل إعزاز سلطان البابوية، وبسط سلطانها الروحى ليكسب بذلك الذكر الطيب فى العالم المسيحى. فبعث بجيوشه مرارا وتكرار الى ايطاليا استجابة لنداءات البابوية، حتى صار التحالف وطيدأ بين الفرنجة، أعظم قوة فى غرب أوربا، وبين البابوية، صاحبة السلطان الروحى فى العالم المسيحى.

وأدى هذا التحالف الجديد الى تدهور مركز إمبراطورية الروم فى العالم المسيحى، حيث فقدت زعامتها على مسيحى غرب أوربا. وفضلا عن ذلك فان الفرنجة تطلعوا الى شرق أوربا لبسط حمايتهم على المسيحين هناك من دون الروم، متلمسين من أجل ذلك شتى الوسائل.

وبذلك لم تعد الدولة الإسلامية ودولة الروم هما أعظم قوتى العالم، وإنما قامت الى جوارهما قوتان أخريان عظيمتان، وصار العالم موزعا بين أربع قوى متنافسة هى: الخلافة العباسية وعاصمتها بغداد، ومنافستها الإمارة الأموية بالأندلس وعاصمتها قرطبة، ودولة الروم وعاصمتها القسطنطينية، ومنافستها

دولة الفرنجة وعاصمتها إكس لاشابل.

وتبع هذا الوضع السياسى الجديد ازدياد فى النشاط الدبلوماسى الإسلامى. ذلك أن الخلافة العباسية فى بغداد لم تعد ترسل سفارتها الى القسطنطينية فحسب، وإنما بدأت تبعث سفارتها كذلك الى بلاط الفرنجة، لتجعل من تلك القوة الجديدة سنداً لها فى منافستها للأمويين بالأندلس. وشجع الوضع الجغرافى للفرنجة على تقرب العباسيين لهم، لأن بلاد الغال «فرنسا» التى يشغلونها تجاور مباشرة حدود إمارة الأمويين بالأندلس عند جبال البرانس. وفى نفس الوقت لم يعد الروم يرسلون سفاراتهم الى بغداد فحسب، وإنما أوفدوا سفراءهم الى قرطبة ليجعلوا من أمرائها عضدا لهم فى تهديد الفرنجة.

وبدأت مظاهر النشاط الدبلوماسى الإسلامى الجديد حين تولى أبو جعفر المنصور، وهو ثانى الخلفاء العباسيين عرش الخلافة فى بغداد، إذ أرسل الخليفة الى بين "pepin" سيد بلاط الفرنجة سفارة لعقد معاهدة صداقة وتحالف بينهما، لإرهاب الإمارة الأموية بالإندلس، ومنعها عن القيام بأى اعتداء على الممتلكات العباسية المجاورة لهافى شمال إفريقيا.

وتابع الخليفة المهدى بن المنصور، وكذلك هارون الرشيد بن المهدى سياسة إيفاد السفارات الى بلاط الفرنجة لتدعيم التحالف بين العباسيين والفرنجة، حتى تظل إمارة الأمويين بالأندلس فى خوف دائم من الخطر الفرنجى الجاثم على أطراف بلادها. وبلغ النشاط الدبلوماسى العباسى مع الفرنجة ذروته، حين بعث هارون الرشيد بسفارته المشهورة الى الإمبراطور شرلمان.

وفى نفس الوقت الذى سعى فيه العباسيون الى التقرب من دولة افرنجة المسيحية، أخذ أباطرة الروم بدورهم يتصلون بأمراء بنى أمية المسلمين بالأندلس، ليجعلوا منهم حليفا ضد خطر الفرنجة المتزايد. وترتب على

تطور الأوضاع السياسية بذلك ظهور غرب أوربا فى ميدان النشاط الدبلوماسى الإسلامى، وغدت القوات الأوربية هناك محط أنظار السفارات الإسلامية.

وهكذا أدى قيام تلك القوى الأربعة المتنافسة وتعدد مطالبها واختلاف أهوائها الى ظهور نشاط دبلوماسى حافل فى العصور الوسطى، كان للدولة الإسلامية فيه نصيب وافر. فخرجت السفارات الإسلامية من بغداد الى القسطنطينية والى إكس لاشابل النائبة. كما خرجت السفارات من قرطبة الى بلاط الفرنجة والروم، وفيما بعد الى الجزر البريطانية، التى بدأت تظهر على مسرح السياسة الدولية.

أغراض الدبلوماسية:

واستهدفت السفارات الإسلامى سواء ما خرج منها من بغداد، أم قرطبة، أم من القاهرة، استهدفت نفس الأغراض التى تضطلع بها الدبلوماسية فى الوقت الحاضر. فالمعروف أن التمثيل السياسى بين الدول يؤدى مهام عدة منها توثيق الراوبط السياسية والعلمية والاجتماعية، وكذلك إنهاء حالات التوتر بين الشعوب. وسارت السفارات الإسلامية على هذا النهج، حيث خرجت الى عواصم أوربا لإنهاء حالة حرب، أو عقد محالفة تجارية أو ثقافية أو للتهنئة بتولى حاكم جديد العرش أو بزواجه. وقامت السفارات الإسلامية أيضاً بالتجسس فى بعض الأحيان لمعرفة استعداد الأعداء الحربى والمادى، على نحو ما تنهض به بعض السفارات فى الوقت الحاضر.

وتحتل السفارات الخاصة بإنهاء حالة الحرب أو فض المنازعات المكانة الأولى فى العلاقات الدبلوماسية بين الدولة الإسلامية وقوى أوربا. وجرت التقاليد الدبلوماسية على ان يتبادل الطرفان أولا الكتب أو الرسائل بين قادة الدول التى يهمها الأمر حتى يتفق الطرفان على أسس إنهاء ودية تبغى إزالة ما فى النفوس من إحن واحقاد. ومن أمثلة تلك الكتب الرسالة التى بعث بها إمبرطور الروم ثيوفل «٨٢٩م» الى الخليفة العباسى المأمون بشأن تبادل

الاسرى وإعادة الحياة الاقتصادية بين المسلمين والروم، فجاء فى تلك الرسالة ما يلى:

«... وقد كتبت إليك داعيا الى المسالمة، راغبا فى فضيلة المهادنة، لتضع أوزار الحرب عنا، ويكون كل واحد لكل واحد وليا وحزبا، مع اتصال المرافق والفسيح فى المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق».

ورد الخليفة المأمون مجيبا طلب الإمبراطور البيزنطى، حتى تعود الحياة بين الطرفين إلى مجراها الطبيعى. وكان يسمح لحاملى تلك الرسائل بزيارة معسكرات اعتقال الأسرى ليتأكدوا من حسن معاملتهم، وليعرفوا عدد كل منهم.

وكان تولى الخلفاء والأباطرة العروش مناسبات طيبة لتبادل سفارات التهنئة وتحسين العلاقات بين البلدين. ومن ذلك أن الخليفة المهدى العباسى جين ولى الخلافة سنة ٧٧٥م وفدت عليه رسل الروم بالتهنئة. واستدنى الخليفة رئيس السفارة وتحدث معه، فقال السفير فى حديثه: «إنى لم أقدم على أمير المؤمنين لمال ولا غرض، وإنما دمت شوقا اليه والى النظر الى وجهه».

وسر المهدى سرورا عظيما بلباقة السفير البيزنطى، وأمر بإكرامه.

وإلى جانب تلك الأغراض الظاهرة التى توختها الدبلوماسية الإسلامية فى سبيل تدعيم العلاقات الخارجية، فإن التمثيل السياسى الإسلامى استهدف كذلك خدمة بعض الأغراض الخاصة، أشبه بما تقوم به بعض الدول الحديثة فى الوقت الحاضر من محاولة لمعرفة قوة جيرانهم ومدى بأسهم. فكان السفراء المسلمون يزودون بتعليمات تقضى التأكد من صحة طلب الفريق الآخر للصلح أو للمهادنة أو لتبادل الأسرى، إذ كثيرا ما يعمد الجانب المعادى للدولة الإسلامية الى اتخاذ مطالبه السلمية وسيلة لتدعيم قوته الحربية واستئناف القتال.

واتخذت الدولة الإسلامية من جانبها كل الوسائل لمنع سفراء الدول الأخرى من التجسس على مرافقها، وأصدرت تعليمات بذلك جاء فيها:

«ويجب أن يعلم أن الملوك بإرسالهم السفراء لا يقصدون تسليم رسالة أو نقل سفارة فقط، بل إن هناك مئات الأغراض يبغونها، فهم فى الحقيقة يريدون أن يعلموا حالة الطرق ... ويعلموا إذا كانت معبدة تستطيع أن تمر بها، والأمكنة التى توجد فيها المروج والأعشاب والحشائش للعلف والأمكنه التى لا يوجد فيها ذلك، وأن يعلموا أيضا قوة الجيش ومؤونته فى العدد والعتاد وفى الدفاع والهجوم، وأن يعرفوا كيف يعيش الأمير وماذا يأكل وبمن يجتمع، وأ، يدركوا تنظيمات بلاطه وعاداته، وأخلاقه فى عدله وظلمه وسهره وتبذله، وكرمه ورقته، وهل هو متعلم أوجاهل، وهل ازدهرت مملكته بالعمران أو ملأتها الخرائب والأطلال، وهل رضى عنه جنده أو هم مغضبون مغيظون، وهل اتباعه من الفقراء أو الأغنياء، وهل يجد فى شئون مملكته أو يهملها، وهل هو بخيل أو جواد ووزيره قدير أو عاجز. وحاشيته من العلماء الأذكياء أو لا؟ هم يريدون أن يعلموا ماذا يحب وماذا يبغض، وأن يعلموا ما شأنه إذا شرب الخمر. وهل يميل الى الحب والى النساء، حتى إذا رغبوا فى مهاجمة مملكته يوما او أرادوا نقض خططه. أو نقد عيوبه كانوا مطلعين مدركين يضعون المحاسن والمساوىء نصب أعينهم وينهجون بحسبها».

وبذلك كانت الدولة الإسلامية على خبرة واسعة بشئون الدبلوماسية والأغراض التى قد يستهدفها جيرانها بإيفاد الرسل إليها. ثم إنها استخدمت نفس الأساليب الدبلوماسية مع جيرانها حتى تكون على خبرة بأحوالهم، بعيدة عن التعرض للمفاجآت. وحفلت دور المحفوظات فى الدولة الإسلامية بتقارير مسهبة عن أراضى الدولة البيزنطية ومعاقلها وغير ذلك من مرافقها الهامة. وساعدت تلك المعلومات على تبادل التجارة بينهما، أو خدمة الأغراض الحربية.

ثم إن الجانب النفسى الخاص بمعرفة مزاج الحكام وطبائعهم لعب دورا

هاما فى تسهيل التبادل السياسى، من حيث اختيار نوع السفير الذى يستطيع أن يتفاهم مع الحاكم الموفد اليه، وكذلك فى انتقاء الهدايا المناسبة التى تدخل السرور على قلب أولى الأمر . ثم إن معرفة كبار رجال البلاط كان عنصرا هاما فى الدبلوماسية، حيث يهىء للسفير الاتصال بأوسعهم نفوذا، وأقدرهم على تحقيق الأغراض التى جاء من أجلها على رأس سفارته.

على أن هناك جانبا أخر طريفا استهدفته السفارات الإسلامية ألا وهو تدعيم الروابط الثقافية بين الدول الإسلامية وجاراتها، أشبه بالمهمة التى يقوم بها المستشارون الثقافيون فى سفارات الدول الحديثة اليوم. فكان الخلفاء والأباطرة يتبادلون السفارات الخاصة بدراسة الكتب النادرة التى توجد فى حيازة الطرفين أو فى مكتباتهما العامة، وكذلك لاستدعاء كبار العلماء للمساهمة فى الحركة العلمية فى بلادهما، أو لتسهيل مهمة بعض الطلاب لتلقى العلم فى الجامعات الكبرى فى عواصم المسلمين والبيزنطيين.

وكانت القسطنطينية على البسفور، وبغداد فى أرض الرافدين، وقرطبة فى سهل الأندلس الخصيب، حدائق للمعرفة والعلم والفنون. كل منها تسابق الأخرى فى ميدان البحوث والدراسات والابتكارات. ولذا كثرت السفارات بينها جميعا لنقل ثمار المعارف والعلوم. ومن أمثلة ذلك أن الخليفة المأمون العباسى علم أن بالقسطنطينية أستاذاً فى الرياضيات يدعى لو، ورغب فى استدعائه الى بغداد، فأرسل الى الإمبراطور البيزنطى، وهو إذ ذاك ثيوفيل، سفارة خاصة تحمل رسالة شخصية تطلب منه أن يسمح للأستاذ ليو بالحضور إلى بغداد لفترة قصيرة، وقال المأمون فى رسالته، إنه يعتبر ذلك عملا وديا، ويعرض على الدولة البيزنطية صلحا دائما وألفى قطعة ذهبية فى مقابل ذلك.

غير أن الإمبراطور البيزنطى رفض هذا العرض السخى. لأن بعض أبحاث العلماء كانت تعتبر من أسرار الدولة، ولا سيما إذا كانت تتعلق بالناحية الحربية من الأسلحة والعتاد. وبذلك ضنت الدولة البيزنطية بهذا العالم على

بغداد.

ولكن أشباه هذه الحالات لم تؤد الى قطع العلاقات الثقافية نهائيا، وإنما كان يسمح للعلماء المسلمين بزيارة مكتبات القسطنطينية، واستخراج الكتب النادرة التى يحتاج اليها المسلمون فى دراساتهم المختلفة، سواء فى ميدان الطب أم الكمياء أم الفسلفة، وغيرها من المواد التى برع فيها البيزنطيون. ومن أمثلة تلك السفارات العلمية ما بعث به الخليفة المنصور العباسى الى القسطنطينية، حيث عاد العلماء المسلمون محملين بالكتب النادرة من بينها كتاب إقليدس.

ولم تقتصر السفارات الثقافية على طلب الكتب النادرة فحسب، وإنما شملت أغراضها دراسة الأماكن التاريخية التى تتعلق بأحداث الدولة الإسلامية او مما ورد ذكره فى القرآن الكريم. ومن أشباه هذه الاتصالات العلمية تلك السفارة التى أرسلها الخليفة العباسى الواثق «٨٤٢- ٨٤٧م» الى إفيسوس بآسيا الصغرى لتزور الكهف الذى كانت محفوظة فيه جثث الشبان السبعة الذين استشهدوا أيام الإمبراطور دقلديانوس، والذين ورد ذكرهم فى سورة الكهف فى القرآن الكريم.

وقد منح الإمبراطور البيزنطى ميخانيل الثالث تلك السفارة تفويضا خاصا لزيارة ذلك الكهف، كما بعث معها رجلا ليقوم بمهمة الإرشاد ويؤدى دور الدليل أثناء تجوال السفارة. ووصف السفير الإسلامى وهو محمد بن موسى المنجم مشاهداته عن أهل الكهف فى مدينة إفيسوس قائلا:

عندما وصلنا الى المدينة شاهدنا جبلا يؤدى «الى الموضع الذى فيه أصحاب الرقيم، فبدأنا بصعود الجبل الى ذروته، فإذا بئر محفورة لها سعة وتبينا الماء فى قعرها، ثم نزلنا الى باب السرداب، فمشينا مقدار ثلثمائة خطوة، فصرنا الى الموضع الذى أشرفنا عليه، فإذا رواق فى الجبل... وفيه عدة أبيات، منها بيت مرتفع العتبة مقدار قامة، عليه باب حجر منقور فيه الموتى، ورجل موكل بحفظهم... وإذا هو يحيد عن أن نراهم أو نفتشهم، ويزعم أنه لا يأمن

أن يصيب من التمس ذلك آفة. يريد التمويه ليدوم كسبه بهم. فقلت له دعنى أنظر إليهم وأنت برىء، فصعدت بشمعة غليظة مع غلامى، فنظرت إليهم فى مسوح تتفرك فى اليد، وإذا أجسادهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها، وإذا جلودهم لا صقة بعظامهم، غير أنى أمررت يدى على صدر أحدهم فوجدت خشونة شعره وقوة نباته».

ولم تخل السفارات الثقافية من دعابات لطيفة أشبه بالمراسلات الأدبية. فيروى أن قيصر الروم كتب الى معاوية ابن أبى سفيان رسالة مع سفير يقول فيها:

«أخبرنى عما لا قبلة له، وعمن لاأب له، وعمن لا عشيرة له، وعمن سار به قبره، وعن ثلاثة أشياء لم تخلق فى رحم، وعن شىء ونصف شىء ولا شىء، وابعث الى فى هذه القارورة ببزر كل شىء».

فبعث معاوية بالكتاب والقارورة الى ابن عباس أعظم الفقهاء المسلمين فى ذلك الوقت ليجيب عن الأسئلة. ورد ابن عباس قائلا:

«أما ما لا قبلة له فالكعبة، وأما من لا أب له فعيسى، وأما من لا عشيرة له فآدم، واما من سار به قبره فيونس «النبى الذى ابتلعه الحوت» وأما ثلاثة أشياء لم تخلق فى رحم، فكبش إبراهيم، وناقة ثمود، وحية موسى. وأما شىء، فالرجل له عقل يعمل به، وأما نصف شىء فالرجل ليس له عقل ويعمل برأى ذوى العقول، وأما لا شىء، فالذى ليس له عقل يعمل به ولا يستعين بعقل غيره».

ثم ملأ ابن عباس القارورة ماء، وقال: هذا بزر كل شىء. وبعث معاوية بتلك الإجابة إلى قيصر الروم، الذى أعجب إعجابا شديدا بعلماء الدولة الإسلامية، وسعة معارفهم.

وهكذا شملت السفارات الإسلامية سائر الأغراض التى تحققها الدبلوماسية فى العصور الحديثة، ولكن كان لتلك السفارات الإسلامية طابعها الخاص من حيث الإعداد والتكون.

تشكيل السفارة

انتقاء السفراء:

لم تعرف الدولة الإسلامية وكذلك جيرانها من الأمم التمثيل السياسى بما نعرفه في الوقت الحاضر من حيث إعداد دور سفارات دائمه فى شتى عواصم البلاد. وإنما كان السفراء المسلمون أشبه بما نعرفه اليوم بالسفراء فوق العادة، الذين يوفدون فى مهام رسمية، وينتهى تمثيلهم الدبلوماسى بانتهاء العمل الذى يوفدون من أجله، مثل عقد معاهدة، أو إجراء فداء أو حضور حفلة زفاف أو التهنئة بتولى العرش.

وفيما عدا الاختلاف السالف الذكر كان السفراء المسلمون يختارون وفق أدق القواعد التى لا تختلف عن النظم التى تتبعها الدول الحديثة اليوم عند تعيين سفرانها. فالسفير الإسلامى أشبه بالسفراء فى الوقت الحاضر. كان يمثل الخليفة أو الملك، أى رأس الدولة، يتكلم باسمه، ويفاوض عنه ويبرم العقود والمعاهدات نيابة عنه.

والمعروف أن الدول الحديثة اليوم تتبع طريقتين فى انتقاء الممثلين الدبلوماسيين: الأولى، اختيار المبرزين الأولين فى مسابقات علمية عامة، يجرونها بعد اختبار دقيق للمرشح، وتتبع لأحواله وصفاته، إذ تكشف هذه المسابقات عادة عن مبلغ فهم المرشح وثقافته. وفى أغلب الأحيان تكون هذه الطريقة خاصة بانتقاء الدبلوماسيين المبتدئين. أما الطريقة الثانية، فهى اختيار من لمست فيه الكفاية والزكانة وعرف بالدهاء ليكون رسولا أوسفيرا دون امتحان يجرى أو عقد مسابقة.

واتبع العرب نفس الطريقتين السالفتين مع تعديل يسير فى الطريقة الأولى، إذ كان الخلفاء المسلمون يقومون بأنفسهم باختيار المرشحين للسفارة، وذلك بعد الإجراءات الأولية التى يقوم بها الموظفون المختصون بالسلك السياسى. وكان فى الدولة الإسلامية فى صدرها الأول ديوان يسمى ديوان

الرسائل، يختص بالمكاتبات مع الملوك وغيرهم من رؤساء الدول المجاورة للدولة الإسلامية. وقام كاتب الرسائل فى العصر الأموى والعباسى كذلك بالتمهيد لاختيار السفراء وإعداد الكتب التى يحملونها.

وعرفت بعض الدول الإسلامية مثل الخلافة الفاطمية فى مصر أهمية هذا الديوان، وأطلقت عليه اسم ديوان الإنشاء، لأهمية تحرير الرسائل به. وكان صاحب ديوان الإنشاء أشبه بكاتب الرسائل، يقوم بمهمة وزير الخارجية فى العصر الحاضر، من حيث اعداد السفراء وما يلزمهم من مطالب. ولكن حرص الخلفاء المسلمون برغم هذه الإدارات الدقيقة على اختيار المرشحين للسفارة بأنفسهم.

ومن أمثلة تلك الاختبارات الطريفة ما حدث لأحد المرشحين للسفارة الى بلاد الروم لتمثيل الخلافة الأموية، وهو عامر بنه شراحيل الشعبى. فقد كان هذا المرشح من فقهاء الكوفة وعلمائها وحجة فى تاريخ العرب قبل الاسلام وأنسابهم وأشعارهم. ووقع عليه اختيار الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق إذ ذاك، ليبعث به الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان، الذى أراد أن يوفده سفيراً الى البلاط البيزنطى.

وعندما قابل الشعبى الخليفة جرى الاختبار التالى:

قال الخليفة: يا شعبى، ما العلم؟

فقال: هو ما يقربك من الجنة، ويباعدك عن النار.

قال الخليفة: يا شعبى، ما العقل؟

فقال: ما يعرفك عواقب رشدك، ومواقع غيك.

قال الخليفة: متى يعرف الرجل كمال عقله؟

فقال: إذا كان حافظاً لسانه، مدارياً لأهل زمانه، مقبلا على شانه.

ثم قال الخليفة عبد الملك: يا شعبى، أنشدنى أحكم ما قالته العرب وأوجزه.

فقال الشعبى: يا أمير المؤمنين قول زهير:

ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره ومن لايتق الشتم يشتم

وقول النابغة:

ولست بمستبق أخا لا تلمه
على شعث أى الرجال المهذب

وقول عدى بن زيد:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدى

وقول طرفه:

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا
ويأتيك بالأخبار من لم تزود

وقول الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس

وانتقل الخليفة بعد ذلك الى امتحان الشعبى امتحاناً أشبه باختبارات الذكاء اليوم، والتى تبين مقدار ضبط المرء لنفسه. وكان الشعبى ضنيل الجسم، لا يبعث منظره لأول مرة على العلم الغزير الذى يعرفه. فقال له الخليفة عبد الملك: «إنك لدميم يا شعبى» فأجاب الشعبى على الفور: «زوحمت فى الرحم يا أمير المؤمنين»، كناية عن أنه ولد توأم.

ومما زاد اعجاب عبد الملك بالشعبى تلك الروح الخفيفة الفكهة التى تحلى بها، وقدرته على الدعابة الطريفة. فقد سأله الخليفة عن نوادره حين جلس للقضاء، فقال الشعبى: اختصم الى امرأة وبعلها، وكانت حسنة المظهر جميلة الوجه، وعلى حق فى دعواها، فقضيت لها. غير أن بعلها اتهمنى بالتحيز وكتب إلي رقعة فيها:

فتن الشعبى لما رفع الطرف إليها

حين ولت بدلال ثم هزت منكبيها
فتنته بقوام وبخطى حاجبيها
ومشت مشياً رويداً ثم هزت منكبيها
وقضى جوراً على الخصـ ـم ولم يقض عليها
كيف لو أبصر منها نحرها أو ساعديها
لصبا حتى تراه ساجداً بين يديها

فسأل الخليفة الشعبى: وماذا فعلت عندئذ؟ فأجاب أمرت بضربه حتى أوجعت ظهره. ثم أردف الشعبى فى ذكر نوادره قائلا: جاءنى رجل يخاصم الى، فقلت له: ما اسمك؟ فقال: خركوش، فأمرت بالسوط. فقال الرجل: أمهلنى ساعة حتى آتيك وأنا أحسن الناس كنية، فتركه ساعة، وحين دخل على قلت له: ما اسمك، قال: أبو عمرو، فخليت سبيله لحسن تصرفه.

واستمع الخليفة فى اعجاب تام إلى فكاهة الشعبى، الذى أضاف الى نوادره فى القضاء، نوادر أخرى اجتماعية حدثت له، فقال للخليفة: طلب رجل امرأة، وجاءنى أهلها لاستشارتى فقلت: هو رزين المقعد، نافذ الطعنة، فزوجوه، ثم علم أهل المرأة أنه خياط! فقالوا للشعبى: غررتنا، فقال: ما كذبتكم! ثم روى ايضاً أن جماعة من الناس سألوه مرة: ما اسم امرأة إبليس؟ فقال: إن ذلك لعرس ما شهدته.

وبذلك اجتاز الشعبى الإمتحان الذى عقده له الخليفة عبد الملك بن مروان، وأثبت أنه على درجة كبيرة من العلم والمعرفة بالتاريخ والأنساب وآداب العرب، فضلا عن قوته فى ضبط أعصابه، وروحه الفكهة التى جعلته يتخلص من كثير من المآزق. وتلك الصفات جميعها أهلت الشعبى ليكون خير سفير للدولة الاسلامية، حيث أرسله الخليفة عبد الملك فى سفارة الى إمبراطورية الروم. ولعل خير تقدير ناله الشعبى فى ذلك الامتحان قول الخليفة له: يا شعبى، إنك لكنيف علم.

صفات السفراء:

وإلى جانب الإختبارات التى أجراها الخلفاء والمختصون لانتقاء السفراء، فإنهم تطلبوا فى السفراء عدة صفات هامة، مازالت تلعب دوراً رئيسياً الى اليوم عند اختيار السفراء فى الدول الحديثة. وأول تلك الصفات التى اهتمت بها الدولة الإسلامية هى الصفات الجسمانية، التى جعلوا لها المكان الأول. فقال رجال الدبلوماسية الإسلامية: «يستحب فى الرسول تمام القد وامتداد الطول وعبالة الجسم، فلا يكون قميئا أو ضئيلا. وأن يكون جهير الصوت وسيماً لا تقتحمه العيون ولا تزدريه النواظر».

وأكد أقطاب الدبلوماسية الإسلامية أهمية الصفات الجسمانية برغم ما يتحلى به السفير من الفصاحة وقوة الجنان، لأن تلك المواهب الأخيرة لا تظهر لأول وهلة. فقالوا: «وإن كان المرء بأصغريه، مخبوءاً تحت لسانه، ولكن الصورة تسبق اللسان والجسمان يستر الجنان. وينبغى أن يجمل الرسول بكل ما أمكن، لأن العامة ترمق الزى أكثر ما ترمق الكفاية، ثم إن أعين الملوك تسبق الى ذوى الرداء من الرسل، وتطلب ذلك فى رسلها لئلا ينقص اختيارها خطا من خطوط الكمال، ولأنها تنفذ واحداً إلى أمة، وفذا الى جماعة، وشخصاً الى شخوص كثيرة. ولذا كان لابد أن يكون السفير وسيماً جسيماً يملأ العيون المتشوقة إليه فلا تقتحمه، ويشرف على تلك الخلق المتصدية له فلا تستصغره».

وهكذا فطنت الدولة الإسلامية الى ذلك العامل النفسى، وأدركت أهميته عند اختيار سفرائها. فالمعروف أن العناية بالمظهر الخارجى من الجسامة والوسامة والقسامة والتجمل بأحسن الزى وألطفه ذات أثر كبير فى نفوس الرائين، لأن النفس الإنسانية مطبوعة على تعظيم الجميل، مكبولة على رفعه وتكريمه، ففى جمال الزى وجمال الجسم سحر يبهر النفوس.

واستلفت نظر أباطرة الروم ما كان عليه سفراء الدولة الإسلامية من مهابة في الجسم وأبهة فى المظهر. فحدث أن أرسل الخليفة المعتصم بالله سفيرا الى البلاط البيزنطى بالقسطنطينية. وعندما رأى الإمبراطور هيبة الرسول وكثرة تجمله، وما صحبه فى رحلته من مظاهر العظمة والثراء قال للسفير: كم ترزق من مال سلطانك؟ قال السفير: أرتزق أنا وولدى فى كل شهر عشرين ألف درهم أو نحوها.

وعندئذ قال الإمبراطور للسفير: لابد أنك حصلت على هذا العطاء، بسبب خدمة جليلة قدمتها للخليفة، كأن تكون قتلت عدوا خطيرا له أو فتحت له اقليما شاسعا حافلا بالخيرات. فقال السفير: لم أفعل شيئا من هذا قط. فقال الإمبراطور: فبأى شىء تستحق هذا الرزق الكثير؟ فقال السفير: إن للخلفاء خدما يتصرفون فى أنحاء المملكة، لكل طائفة منهم مهامهم، فمنهم من يعد للفتوح، فهو يلبس السلاح ويقود الجيوش، ومنهم من يعد للقضاء فهو يلبس القلنسوة التى يغطى بها رأسه، ومنهم مثلى من يصلح أن توفده الخلفاء للملوك، ويحمل رسائلهم الى مثلك من أهل الجلالة والقدر والسناء والذكر، ولذا كان لابد من اختيار الشخص الذى يكون أهلا لهذه المهمة الرفيعة الشأن.

وقد أعجب الإمبراطور بلباقة هذا السفير الإسلامى وحسن مظهره. وكذلك اهتم البيزنطيون بدورهم بالصفات الجسمانية لسفرائهم. وحدث أن بعث أحدهم الى معاوية بن أبى سفيان سفيرا كان وسيما جسيما يملأ العين. فأحب معاوية أن يداعب ذلك السفير الضخم الهيئة، فقال له: «ما هذه الفدامة (أى الغلظة والجفاء) فيكم؟» فأجاب الرسول: «إنها عنوان نعم الله عندنا». واستحسن معاوية هذا القول الذى جاء غاية فى السداد والأدب، لأن السفير اعتد بنفسه، واعتبر بسطة الجسم عنوانا على نعم الله على الانسان.

وقام الى جانب الصفات الجسمانية التى اشترطتها الدولة الإسلامية فى سفرائها صفات خلقية. قل أن تتوافر جميعا لرجل واحد، حتى إذا ما تجمعت لإنسان صار جديرا بالسفارة والرسالة، وأن يمثل رأس الدولة فى الخارج.

ومن تلك الصفات الخلقية أن يكون السفير على درجة كبيرة من نفاذ الرأى وحصافة العقل تجعله يستنبط غوامض الأمور، ويستبين دفائن الصواب ويستشف سرائر القلوب ويأتى عمله عن بينه، ويدع ما لايستحب عمله عن خبرة. وقد راعت الدولة الإسلامية أن يتحلى السفير كذلك بالفصاحة، «ليعجب السامع بطلاوة حديثه، ويسحره بحلاوة لسانه، ويفتنه بخلابة لفظه. ثم ليكون كلامه ممتعا أنيقا، نافعا لذا فى الاستماع، فإن للبيان من السحر ما لاينكر، وإن له التوصل الى البغية ماهو معروف».

ولابد الى جانب الفصاحة من ذكاء القلب والقدرة على فهم «الإيماء»، حتى يدرك السفير حجة خصمه قبل النطق بها، ويستطيع أن يبرم ما نقص، وينقض ما أبرم، ويفعل ذلك كله بطبع لا تكلف فيه، لأن المتكلف أسرع الناس الى الفضيحة، وعندئذ يسهل عليه أن يحتال فى محاوراته ومكايده، حتى يبلغ مراده.

وينبغى ألا يخلو السفير من «جرأة وإقدام»، لأن الجرأة أكبر جنة من المخاوف وأقوى معين على النجاة وأضمن سبيل لبلوغ الهدف. وفضلا عن ذلك يحتاج الى الصبر. فإن الرسول ربما وجه الى سخيف، ودفع الى طائش فبدرت منه الكلمة البذينة، التى يجب أن يقابلها بالحلم، وقد قيل: «والرسول مع الحلم والكظم أخلق بالنجاح وأجدر ببلوغ المراد».

وللتأنى المحل الثانى بين صفات السفير، لأنه اذا لم يكن متأنيا، وقابل حاكما حازما، اندفع الى ابرام أمور تضر بدولته، بسبب العجلة، وتكوين الرأى دون بصيرة وأناة. وقيل إن السفير الذى لا يتسم بالتأنى «إما أن ينقاد الى مؤاتاة من أرسل اليه، وإما أن يعود بأمر لم ينفصل ورأى لم ينبرم».

والرسول بعد ذلك يحتاج الى ترك الإفراط فى الانقباض والحشمة، لأن الانقباض يوجب الوحشة والانبساط يوجب المؤانسة، والمؤانسة تجمع القلوب. وكان لابد للسفير من التظاهر بتلك الصفات حتى لا تكون الوحشة

سبيلا الى النفور ويكون النفور سبيلا إلى الإخفاق.

وقد فطنت الدولة الإسلامية الى أمرين لهما شأن كبير فى التعليمات التى زودت بها سفراءها: الأول أنها حذرت السفير اذا بلغ أرض المرسل اليه من شرب الخمر والإفراط فيه، لأن الخمر تفضح شاربها فى أغلب الأحايين وتطلع على ما فى نفسه من الأسرار، وألا يميل الى النساء، لأن للنساء حيلا بارعات يستخرجن بها الأخبار.

والأمر الثانى أن الدولة الإسلامية أوصت سفراءها بعدم التدخل فى شئون المرسل إليه وأمور مملكته، وأن لايحرش الملك على الرعية، أويتصل بشخصيات مشتبه فى أمرها لدى سلطان الدولة المرسل إليه.

وساعدت هذه الصفات الخلقية الرقيقة على خلق طبقة ممتازة من السفراء المسلمين، الذين كانوا عنوانا كريما على سمو الدولة الإسلامية وتعاليمها الدبلوماسية الجيدة. وعجز حكام الدول الذين قابلوا السفراء المسلمين عن التأثير عليهم أو خداعهم بالخمر أوالنساء، كما وجدوا فيهم رجالا على جانب كبير من الأدب الجم والروح الخفيفة الظل.

على أن الصفات الجسمية والخلقية لم تكن كل شىء خاص بؤهلات السفير، وإنما أضيف إليها الثقافة العامة، التى تجنب الغير من الزلل فى قوله، وتقوية فى محاوراته ومحادثاته. وام يكن يطلب من السفير التدقيق فى تحصيل كل علم، وإنما الهدف أن يكون له إلمام بكل علم، بحيث يمكنه أن يتكلم به اذا ما اضطر إليه. وأبلغ تعبير عن هذا المعنى قول الشعبى، العلم أكثر من أن يحصى، فخذ من كل شىء أحسنه.

وكانت الثقافة العامة السائدة فى تلك الأيام هى معرفة الأمور الدينية كالفرائض والسنن وأحكام القرآن، وهناك الأدب وما اليه من رواية الشعر وما يتبعه من جودة البيان، وهناك أصول الخراج، أى ميزانية الدولة، دخلها ومصروفاتها، ثم السير والتواريخ التى توسع الأفق العلمى. وجمعت الدولة

الإسلامية تلك الشروط فى هذه العبارة التى تنادى بأن السفير: «ينبغى أن تجمع الفرائض والسنن والأحكام والسير ليحتذى مثال من سلف فيما يورده ويصدره، وأن يعلم أصول الخراج، والحسبانات وسائر الأعمال ليناظر كلا بحسب ما يراه من صوابه وخطئه».

وأخيرا لاحظ العرب كما تلاحظ الدول الحديثة اليوم ما للنسب من أثر عند اختيار السفراء، ففضلوا السفير ذا المحتد الكريم والأصل النبيل على غيره. على أن نظرة العرب فى اختيار سفرائهم أعظم من نظرة الدول الحديثة، التى ترى فى النسب وسيلة لكسب السفير مظهرا أرستقراطيا يجعله على اتصال بشاكلته من أهل الأمم التى يذهب اليها.

غير أن الدولة الإسلامية رأت فى أختيار أصحاب الأصل العريق للسفارات سبيلا للسلوك الحسن، لأن النبيل لا يصدر عنه إلا العمل النبيل، ولا يجرؤ على مايجرؤ عليه السافل الوضيع، وهذا عملا بقانون الوراثة الذى يدافع أبناء الأسر الكريمة إلى النبل والسمو وكرم الأخلاق. وجاء فى شروط الدولة الإسلامية لاختيار السفير ما يلى: «وليكن من أصل الشرف والبيوتات، فإنه لابد مقتف آثار أوليته، محبب لمناقبها مساو لأهله فيها».

ولا شك أن تلك الصفات جميعها السالف ذكرها من جسمية وخلقية وثقافية ومن الأصل العريق، قلما تجتمع لشخص واحد، مما أدى الى تشكيل السفارة فى كثير من الأحوال من أكثر من شخص، بحيث تكمل مواهب الواحد منهم مواهب الآخر. وكان يتولى رئاسة السفارة أكثر الأعضاء تمتعا بالصفات السالف ذكرها. وفى بعض الأحيان كان شخص واحد يبعث بالسفارة اذا توافرت فيه الشروط التى تتطلبها المهمة الموفد من أجلها.

وجرت العادة على إرسال من يقع عليهم الاختيار للسفارة فى مهام محلية بسيطة، لاختبار مدى ماعندهم من مواهب. وفى بعض الأحيان كان يخفق السفير فى هذا الاختبار، وعبر أحد الشعراء عن هذا الإخفاق بقوله:

وكنت إذا بعثت به رسولا ... يدانى قبل أن يمضى بياس
وأنسانى وما وجهت فيه ... على أنى ذكور غير ناسى

ويرجع - لارعانى الله فيه ... إلى بخيبة بعد احتباس
يرد برأسه أبدا جوابى ... أرانيه الأله بغير راس

وعندما يتم السفراء تدريبهم، ويتأكد أولوا الأمر من صفاء معدنهم وقوة مواهبهم يراسلونهم الى خارج البلاد. وأدت هذه الاحتياطات العظيمة التى اتخذها الدولة الإسلامية فى مرشحيها للسفارة الى تمتعها بالمكانة الأولى فى عالم الدبلوماسية فى العصور الوسطى، كما ترك الخلفاء المسلمون وغيرهم من قادة البلاد نماذج عالية يحتذيها الخلف عن السلف فى اختيار ممثلهم الدبلوماسيين. ولقد جمع أحد الشعراء فى أسلوب رقيق تقاليد الدبلوماسية الإسلامية فى انتقاء سفرائها بقوله:

إن الرسول مكان رأيك فالتمس ... للرأى آمن من وجدت وأنصحا
تأبى الأمور على الغبى فإن سعى ... فيها الذكى فبالحرى أن تصلحا
فإذا توخيت الرسول فلا تكن ... متجوزا فى أمره متسمحا
وتوخ فى حسن اسمه وروائه ... قول النبى تيمنا وتنجحا
واجعله إما ماضيا أو نافذا ... أو ياسرا أو منجحا أو مفلحا

قواعد اللياقة أو البروتكول

المراسيم الدبلوماسية:-

جرت الدولة الإسلامية فى إيفاد سفارتها وفى معاملتها لسفراء جيرانها على نسق لا يختلف كثيرا عن المراسيم الدبلوماسية التى نشاهدها اليوم فى الدول المعاصرة. فكانت هناك قواعد مقررة يتبعها اولو الأمر فى الدولة الإسلامية عند إيفاد سفرانهم وكذلك عند استقبال سفرانهم وكذلك عند استقبال سفراء البلاد الأجنبية. وقد سجلت تلك القواعد الدبلوماسية فى سجلات خاصة حفظت فى ديوان الرسائل أو وزارة الخارجية فى المصطلح الحديث.

وفضلا عن ذلك وصلتنا صور جليلة عن سلوك السفراء المسلمين وتصرفاتهم الدبلوماسية فى كتاب وضعه احد أباطرة الدولة البيزنطية وسماه كتاب «المراسيم» حيث شرح فيه قواعد اللياقة أو البروتوكول فى البلاط البيزنطى. فجاء فى هذا الكتاب البيزنطى مشاهد رائعة عن السفراء المسلمين الذين وفدوا الى عاصمة البيزنطيين فى القسطنطينية، وكيف كانت أعمال السفراء المسلمين موضع الإجلال والإعجاب ، بسبب ما تحلوا به من سجايا وكريم الخصال الدبلوماسية.

ويعتبر كتاب «المراسيم» البيزنطى بذلك مصدرا متمما لما جاء فى المصادر الإسلامية عن قواعد اللياقة التى اتبعها سفراء المسلمين، ومرآة صادقة لما جاء فى الروايات العديدة عن سمو الدبلوماسية الإسلامية. ويتضح من استعراض قواعد اللياقة الإسلامية أن أستقبال السفراء وكذلك إيفادهم جرى حسب درجة المودة أو شدة الصلة مع الجيران المتاخمين لبلاد الدولة الإسلامية. وهذا التفاوت فى اعداد السفارات أو استقبالها يشبه ما نراه اليوم

من تباين فى التمثيل السياسى بين الدول المختلفة من حيث عظمتها أو مقدار ما بينها من صداقة، فترفع التمثيل السياسى بينها الى مرتبة السفارة أو الى درجة المفوضية، وغير ذلك من المراتب الدبلوماسية المعروفة اليوم.

ودأبت الدولة الاسلامية على ان نرسل الى البلاط البيزنطى خاصة سفارة على درجة كبيرة من الاعداد أشبه بما تقوم به الدول الحديثة الكبرى اليوم من رفع تمثيلها السياسى الى درجة السفارة ، على حين توفد الى جيرانها من الدول الصغرى سفارات متواضعه أشبه بما نعرفه بالمفوضيات. وهذا التفاوت فى اعداد السفارات الإسلامية اقتضته طبيعة التمثيل السياسى فى العصور الوسطى، الذى لم يعرف انشاء دور سفارات دائمة فى البلاد الأجنبية على نحو ما هو مألوف فى عصرنا الحاضر. ولكن فيما عدا هذا التباين اليسير بين التمثيل السياسى فى العصور الوسطى والعصور الحديثة، فان قواعد اللياقة أو البروتوكول الإسلامى لم تختلف عن المراسيم الدبلوماسية الحديثة، التى تحرص الدول اليوم على اتباعها ومراعاتها.

أوراق الاعتماد
وجواز السفر

وأول شىء حرصت الدولة الإسلامية على تزويد سفرائها به، واهتمت بتقديرة عند السفراء الوافدين عليها، هو أوراق الاعتماد وجواز السفر، واستعراض تلك الوثائق الدبلوماسية الهامة فى حفل الاستقبال الذى يعد للسفير. وكانت أوراق الاعتماد عبارة عن كتاب صادر عن لسان الخليفة به تعريف بالسفير والغرض من رسالته، ويطلب من أولى الأمر الوافد عليهم السفير اعتماده فى أقواله وأفعاله.

وكان يكتب هذا الكتاب أو اوراق الاعتماد كاتب خاص باللغة العربية، وأحيانا يحمل ترجمة بلغة البلد الذاهب اليه السفير، أشبه بأوراق الاعتماد اليوم، حيث تكتب بلغة الدولة الموفدة، وتشفع بترجمة لها بلغة الدولة الموفد اليها. وقد اشتهرت الدولة الاسلامية بعدد كبير من مشاهير الخطاطين، الذين أبدعوا فى تسطير أوراق الاعتماد، وتجميلها وتزيينها حتى تليق بمقام الدولة الموفد إليها السفراء المسلمون.

وجرت العادة على أن تكتب أوراق الاعتماد على الورق البغدادى، وهوأجود الأنواع، لأنه ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية، ويخصص لكتابة المصاحف، ولا يستعمل فيما عدا ذلك من أغراض الكتابة سوى مكاتبة كبار الملوك. على ان الدولة البيزنطية نافست الدولة الآسلامية فى تجميل اوراق الاعتماد التى زودت بها سفراءها. فمن ذلك أن مالك الروم بعث كتابا الى الخليفة الراضى بالله فى بغداد مع سفرائه سنة ٣٢٦هـ - ٩٢٨م دونت كتابته الرومية «أى اليونانية» بالذهب وترجمته العربية بالفضة. وكان مطلعه: «من ملك الروم الى الشريف الجليل مبلطان المسلمين. باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد. الحممد له ذى الفضل العظيم الرؤوف بعباده، الذى جعل الصلح أفضل الفضائل، اذ هو محمود العاقبة فى السماء والأرض. لما بلغنا مارزقته أيها الأخ الشريف الجليل من وفور العقل وتمام الأدب واجتماع الفضائل ... نطلب اليك الهدنة والفداء».

ومثلما اهتمت الدولة الاسلامية بنوع الورق الخاص باعتماد السفراء، غالت الدولة البيزنطية فى انتقاء أوراقها. فأرسل قسطنطين ملك الروم الى عبد الرحمن الناصر بالأندلس كتابا خاصا باعتماد سفير، وكان الخطاب فى رق مصبوغ ذى لون سماوى ، ومكتوبا بالذهب بالخط الأغريقى ، وعلى الكتاب

طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل، على الوجه الواحد منه صورة المسيح وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده. وكان الكتاب داخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملم مصنوعة من الزجاج الملون البديع، وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج.

وجاء فى عنوان الكتاب من «قسطنطين وورومانوس المؤمنين بالمسيح الملكين العظيمين ملكى الروم .. إلى العظيم الاستحقاق الفخر، الشريف النسب عبدالرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس».

وإذا كانت اوراق الاعتماد تقتصر على بيان أغراض السفارة، وذكر أساليب المودة والتبجيل، فإن السفراء اخذوا معهم أوراق أخرى هى أوراق الجواز يكتب فيها اسم الرسول ولقبه وصفته والجهة التى يقصد اليها، مع رجاء إلى السلطات المختصة بتسهيل مهمة انتقال السفير باعداد خيل البريد لحمله الى الجهه الموفد اليها، ومعاملته بالإكرام.

وحرصت الدولة الإسلامية على ذكر ألقاب السفير، مع بيان ما اذا كان من النبلاء أو مماليك النواب أو كبار رجالات الدولة، وذلك تقديرا منها لقواعد اللياقة أو البروتوكول، ولتجنب بذلك سفراءها سوء المعاملة الدبلوماسية. وكان يذكر فى أوراق الجواز المدة التى سيقضيها السفير فى مهمته سواء أكانت لمدة طويلة أم قصيرة، حتى لا يستغل السفراء الإكرام والحفاوة فى أغراض تتنافى مع طبيعة عملهم الدبلوماسى. ذلك أن الدولة الإسلامية كانت تكلف أحيانا بعض كبار التجار بمهام دبلوماسية باعتبارهم أعرف بالبلاد التى يوفدون اليها، ومن ثم كان تحديد مدة الإقامة يجنب الدولة الإسلامية محاولة استغلال أولئك التجار لمهامهم الدبلوماسية بالاشتغال بأعمال تجارية تسىء الى كرامة السلطات الإسلامية، أو تحط من قدرها.

وكانت أوراق الجواز التى يحملها السفراء المسلمون تشبه بذلك الجواز الدبلوماسى الذى يحمله السفراء اليوم، ويتضمن اسم السفير وصفته والجهة التى يقصد. وذلك مع فارق واحد هو أن الجواز الإسلامى تضمن طلب إكرام السفير أو حمله على خيول البريد التى كانت أسرع وأحسن وسائل المواصلات إذ ذاك، وهى أمور جعلتها المدينة أشياء لا داعى لذكرها فى جواز السفر.

أمان السفراء أو الحصانة الدبلوماسية:

ويلى أوراق الاعتماد فى الأهمية مسألة أمان السفراء فى الدولة الإسلامية أو ما يسمى فى العصر الحديث «بالحصانة الدبلوماسية». فقد شملت الدولة الإسلامية السفراء الوافدين إليها بالأمان والسلام طوال مدة بقائهم فى بلادها حتى يعودوا مطمئنين الى أوطانهم. واشتهرت الدولة الإسلامية منذ نشأتها بالحرص التام على تمتع السفراء عندها بالأمان أو بالحصانة الدبلوماسية. كما ظل هذا نهج خلفائها على مر السنين والقرون.

وقد أكدت النصوص الفقهية الإسلامية والعرف الإسلامى كذلك هذا الأمان أو تلك الحصانة الدبلوماسية، حتى صار السفراء الوافدون على الدولة الإسلامية ينعمون بالطمأنينة التامة. فقال الفقهاء المسلمون: ««إن الولاة إذا مالقوا رسولا يسألونه عن اسمه، فإن قال: أنا رسول الملك بعثنى إلى ملك العرب، وهذا كتابه معى، ومامعى من الدواب والمتاع والرقيق فهدية له، فانه يصدق ولا سبيل عليه ولايتعرض له ولا لما معه من المتاع والسلاح والرقيق والمال.

وكذلك لو أن المسلمين أسروا مركبا فى البحر، وقال نفر من ركابها: نحن نرسل بعثنا الملك، فلا يتعرض لهم. وبذلك شملت الدبلوماسية الاسلامية بحصانتها السفراء الأجانب سواء أجاءوا من البر أم من البحر. إذا يتمتعون بالأمان التام، ولايمسهم أحد بسوء أو بتعرض لهم إنسان بأذى. ويلاحظ أن النصوص الفقهية الإسلامية الخاصة بالحصانة الدبلوماسية للسفراء تطابق ما نادى

به كبار رجال الدبلوماسية فى العصور الحديثة. فيقول العالم فانل: «لما كان للسفارات شأن كبير فى المجتمع العالمى للدول، وكان لابد منها للسلام أو الأمان الذى يبغيه، فإن الممثلين الدبلوماسيين المكلفين بالسفارة يجب أن يكونوا محصنين مقدسين عند الشعوب جميعا».

وقد احترمت الدبلوماسية الإسلامية جميع حاشيةالسفراء وأتباعهم على اختلاف درجاتهم حتى خدمهم وعبيدهم، فبسطت الدولة الإسلامية حضارتها إلى سائر أتباع السفراء، واعتبرت أية إهانة تلحق بأحدهم كأنما هى إهانة موجهة إلى شخص السفير نفسه. وبذلك وقفت قواعد البرتوكول الإسلامى على قدم المساواة مع أرقى المبادىء والعرف الدبلوماسى الحديث، والتى تقرر اشتمال الحصانه الدبلوماسية على جميع أفراد السفارة حتى الخدم والسعاة فيها

وظلت الدولة الإسلامية طوال عهدها حريصة على أمان السفراء، وفية تمام الوفاء على هذه القاعدة الدبلوماسية السامية، التى نادى بها القدامى والمحدثون من اقطاب السلك السياسى. فلم يذكر التاريخ حادثة عاملت بها الدولة الإسلامية السفراء الوافدين إليها معاملة تشذ عما قررته اللياقة فيها من أمان السفراء. أو أن رجال الإدارة فى الدولة الإسلامية قد انتهكوا هذا المبدأ الدبلوماسى الجليل.وذلك على حين روت المصادر التاريخية النماذج الكثيرة عن انتهاك جيران الدولة الإسلامية لمبدأ أمان السفراء أو حصانتهم الدبلوماسية. وقد وقعت دولة الروم نفسها أحيانا فى هذا الخطأ الدبلوماسى الذى تسامت الدولةالإسلامية عن التردى فيه.

الميزات الدبلوماسية :

وإلى جانب أمان السفراء منحت الدولة الإسلامية السفراء الوافدين عليها ميزات دبلوماسية كثيرة أشبه ما يتمتع به رجال السلك الدبلوماسى فى العصر الحاضر. فأذا كانت دور السفارات تعفى فى الوقت الحاضر من الضرائب التى تفرضها الدولة على رعاياها، فإن الدولة الإسلامية أعفت الرسل والسفراء

من الضرائب التى فرضتها على الوافدين اليها، والتى كان أهمها العشر والمكوس.

وأكدت النصوص الفقهية الإسلامية هذه الميزة الدبلوماسية، حيث نصت «على أنه لا يتخذ من الرسول الذى بعث به ملك الروم عشر». وكانت جميع أمتعته تعفى من الرسوم الجمركية عند سفرهم ويسمح لهم بأن يخرجوا مايشاءون أن يخرجوه طالما كان ذلك لايتعارض مع أمن الدولة.

وحرصت الدولة الاسلامية على مراقبة السفراء حتى لايستغلوا هذه الميزة الخاصة بالاعفاء من الرسوم الجمركية وتهريب مواد قد تكشف أسرار الدولة الحربية. فجاء فى النصوص الدبلوماسية: «لاينبغى للإمام أن يترك السفراء يخرجون من ملكه بشىء من الرقيق والسلاح أو بشىء مما يكون قوة لهم على المسلمين، فأما الثياب والمتاع وما أشبهه فلا يمنعون منه».

وتمتع السفراء الوافدون على الدولة الإسلامية كذلك بحرية العبادة والأحوال الشخصية، كما بذلت السلطات الإسلامية جهدا كبيرا لتمنع كل أذى يمكن أن يحل بالسفير، مهما كانت المساوىء التى تبدو منه.

مراسم الاستقبال:

وإذا كانت شخصية السفير تحاط بالحصانة والأمان، وكذلك من معه من الحاشية، منذ تطأ أقدامه أرض الدولة الإسلامية، فإن قواعد اللياقة الإسلامية لم تكتف بذلك، وإنما أعدت للسفير أعظم مظهر دبلوماسى، أشبه بما هو معرف اليوم بحفل تقديم أوراق الاعتماد. فكما أن الدول الحديثة سخت فى حفاوتها بالسفراء وتعهدهم بالرعاية والإكرام.

واستهدفت الدولة الإسلامية من مبالغتها فى الاحتفال بالسفراء هدفين: أولهما يتكلم باسم رئيس دولته، ولذا فإن إكرامه للملك المرسل نفسه، والثانى هو حرص الدولة الإسلامية على إظهار عظمتها وبذخها وقوتها لتوقع الرهبة فى نفوس الوافدين عليها، فيرون لملوكهم ما شاهدوه وماسمعوه من مظاهر.

وكانت مراسيم استقبال السفراء تبدأ منذ دخول السفراء حدود الدولة

الإسلامية، إذ يقدم عمال الدولة الإسلامية لأولئك السفراء كل ترحيب، وينزلونهم فى مساكن تليق بهم، ويتولون الإنفاق عليهم من مأكل ومشرب. بحيث تصير اقامتهم هينة رغده، كما يخصصون للسفراء الخفراء والأدلاء للسير معهم، وهدايتهم عبر الطرق حتى يصلوا إلى دار الخلافة فى العاصمة.

وعندما يقترب ركب السفير من عاصمة الدولة الإسلامية يأمر الخليفة باعداد موكب عظيم من الناس لاستقباله، يضم الولاه والفقهاء والصوفية، ويتصدره كبير موظفى الدولة. واذا مادخل السفير العاصمة فإنه كان ينزل فى مكان خاص أشبه بدار الضيافة، كان يعرف فى بغداد زمن العباسيين باسم «دار صاعد» وأحيانا كان يعطى دارا خاصة بنزل بها أو مدرسة من المدارس يقيم فيها مؤقتا.

وبعد أن يستريح السفير يوما أو أياما من عناء السفر يلتمس مقابلة الخليفة. وجرت عادة الخلفاء على عدم استقبال السفير مباشرة، ولكن بعد مقابلة الوزير، بما يشبه مقابلة السفراء لوزراء الخارجية فى أيامنا. إذ كان لابد من مقابلة الوزير ومخاطبته فيما قصد السفير إليه وتقرير الأمر قبل مقابلة الخليفة.

وكانت تلك المقابلة التمهيدية وسيلة لمعرفة أحوال البلاد التى وفد منها السفير والوقوف على سيرة ملوكها.

ومن أمثلة ماروواه الفضل بن مروان أحد وزراء المعتصم العباسى، إذ قال: كانت الرسل من جهة الملوك، إذا جاءت بالهدايا تأتى إلى أولا قبل مقابلة الخليفة، فتكون المؤمرات فيما يجرى معهم من ديوانى، فكنت أسأل الرسل عن سيرة ملوكهم وأخبار عظمائهم. فسألت رسول ملك الروم عن سيرة ملكه فقال: «إن ملكنا ذو أناة عند القدرة، وحلم عند الغضب، وذو سطوة عند المغالبة، وذو عقوبة عند الاحترام، وقد يسر رعيته بجميع نعمته وقد يضرهم بعنيف عقوبته، فهم يتراءونه ترائى الهلال جمالا، ويخافونه مخافة الموت نكالا. قد

ومعنهم عدله، وردعتهم سطوته وكيده، لاتمهنه مزحة، وتؤسيه غفلة، إذا أعطى أوسع، واذا عاقب أوجع. فالناس اثنان: راج وخائف، فلا الراجى خائب، ولا الخائف بعيد الأمل».

على أن وزراء الدولة الإسلامية لم يغتروا بهذه الأقوال الدبلوماسية المنمقة وأنما حرصوا على الوصول إلى مبادىء عامة أو قرارات محددة مع السفراء خلال تلك المفاوضات التمهيدية، حتى يكون يوم الأستقبال الرسمى يوما حافلا خاليا من الشوائب والمناقشات التى لاطائل منيا. ومن ذلك أن الامبراطور البيزنطى ثيوفيل بعث سفيرا الى الخليفة المعتصم العباسى لإنهاء حالة التوتر بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية. وقد احتجز وزير الخليفة المعتصم السفير البيزنطى مدة ستة أشهر حتى أنتهى معه إلى قواعد مقررة، وعندئذ تحدد يوم الاستقبال.

وفى هذا اليوم آخذ الجيش اماكنه من دار صاعد حيث ينزل السفراء إلى قصر الخليفة، على حين أخذ كل فرد من موظفى القصر مكانه المخصص له، مرتديا ثيابه الرسمية. ثم جلس الخليفة فى أبهى قاعات القصر، وعن يمينه ويساره الوزراء وقادة الجيش، والجميع متشح بأفخر الحلل. وكان خلفاء الدولة الإسلامية يحاولون يوم الاستقبال التلطف مع السفراء الوافدين عليهم والتبسط معهم فى الحديث، لإزالة ماعلق بنفوسهم من وحشية أو رهبة.

ومن ذلك أن الخليفة المعتصم العباسى حين قابل سفير الإمبراطور البيزنطى، والذى احتجزه الوزير سته أشهر، قال له: «أرانا قد أضررنا بك لطول مقامك» فقال السفير: «ان طول المقام أوجب لى الذمام. ولم نزل نسمع من حكمائنا أن إبطاء الرسول يؤذن بالنجاح، وماضرنى مقام قرب منك، وأشهد نعم الله عندك». وكان لهذا الرد الدبلوماسى أثر طيب فى نفس الخليفة المعتصم، الذى بالغ فى إكرام ذلك السفير.

وزودت الدولة الإسلامية سفراءها بتعليمات مشددة ليكون مظهرهم

جليل، وملوكهم رفيعا فى حفلات الاستقبال. وروت المصادر الكثير عن كياسة السفراء المسلمين، وكيف أنهم كانوا نماذج عالية فى الخلق والمسلك الدبلوماسى. فلم ترهبهم كثرة القوات التى كانت تعدها الدولة البيزنطية لتكون فى شرف استقبالهم، كما أن المظاهر البراقة، والزينات الفاخرة، لم تأخذ بلبهم، وإنما ظلوا دائما ثابتى الجنان، وعنوانا عاليا على عظمة الدولة الإسلامية.

وكانت تخصص للسفراء المسلمين أقرب الأماكن وأعلاها بالقرب من الأباطرة والملوك، وذلك لأنهم يمثلون أعظم قوة معروفة إذ ذاك وهى قوة الخلافة الإسلامية. فإذا تصادف وجود أكثر من سفير أجنبى فى البلاط البيزنطى، كان يقدم عليهم جميعا سفير الدولة الإسلامية

وانتهز خلفاء الدولة الإسلامية يوم الاستقبال ليأذنوا للسفراء الأجانب فيه بمشاهدة عظمة عاصمتهم، والوقوف على مافيها من مرافق جليلة. وحرص الخلفاء كذلك على الاستماع إلى ملاحظات أولئك السفراء بأنفسهم والعمل على تلافى انتقاداتهم. ومن ذلك أن الخليفة المنصور العباسى، حين وفد عليه رسول من قبل الإمبراطور البيزنطى، كلف بعض ثقاته بأن يرافق السفير فى جولة طواف فى بغداد وكانت قد تم بناؤها منذ فترة يسيرة، ويوقفه على مبانيها ومجمعاتها.

وعندما عاد السفير الى الخليفة، قال له المنصور: كيف رأيت ماشاهدت؟ فقال السفير: كل مارأيت جليل نبيل،إلا ثلاثة أشياء. قال الخليفة: ماهى؟ فقال السفير: النفس خضراء ولاخضرة لك، والماء حياة ولاحياة لك، وعدوك معك - يعنى السوقة لأن الأسواق كانت قريبة من القصر. فأجاب المنصور قائلا: أما الخضرة فإنى خلقت للجد لا للهزل، وأما الماء فحسبى منه مابل الشفاه وروى الصدى، وأما مجارة العوام، فما أبالى أن يطلع على سرى خاصتى وعامتى لأنى لاأقصر فى شئون ملكى.

ولكن عندما انصرف السفير البيزنطى، راجع الخليفة نفسه لأن رده لم

يكن إلا تصرفا دبلوماسيا بارعا حتى لا يظهر أمامه بمظهر المعترف بما فى مدينته من عيوب: وبادر الخليفة العباسى فى الاهتمام بالحدائق ولا سيما فى حى العباسية الذى كان يطل عليه القصر، وشق قناة الى بغداد، ونقل العامة أسواقهم إلى حى يعرف بالكرخ خارج بغداد.

وكان سفراء الدولة الإسلامية ينعمون فى القسطنطينية بمشاهدة مباهجها ولاسيما كنيسة أيا صوفيا وميدان السباق، حيث تجرى حفلات الخيل والعربات ومباريات المبارزة وغير ذلك من المباهج التى يعرضها الفنانون. وكثيرا ماكان الخلفاء يصطحبون السفراء معهم الى ميادين لعب الكرة والصولجان، أو الى أماكن التنزه الجميلة، على نحو مانشاهده اليوم من حفاوة الدول الحديثة بالسفراء الوافدين عليها.

وعندما تنتهى مهمة السفير يودع ماأستقبل به من حفاوة وترحيب، وكان الخليفة يعد حفل استقبال أخر لايقل روعه عن حفل الأستقبال الاول. ويمتاز حفل الوداع بالهدايا إلى يغدقها الخلفاء على السفراء، والتى كانت أية فى الروعة وعنوانا على عظمة الدولة الإسلامية وثرائها. وكان الخلفاء يزودون السفراء بتوجيهاتهم من حيث الأمانة فى نقل ماشاهدوه وأن يكونوا رسل مودة وسلام.

وهكذا جرى العرف الدبلوماسى الإسلامى من حيث قواعد اللياقة أو البروتوكول على أرفع الأسس وأنبلها، وترك المسلمون بين جيرانهم أطيب السير وأعطرها. وأشاد بهذا كله الإمبراطور البيزنطى قسطنطين السابع فى كتابه المسمى بالمراسيم. إذ ردد فى تعليماته لسفرائه الكثير من النماذج التى قدمتها الدولة الإسلامية لرجالها فى ميدان السلك السياسى. كما عنى عناية خاصة بحض رجال دولته على معاملة سفراء الدولة الإسلامية معاملة ممتازة، لعلو كعبهم فى الميدان السياسى، وليجعلوا من الدولة البيزنطية ندا يقف على قدم المساواة مع الدولة الإسلامية فى ميدان البرتوكول الدبلوماسى أو قواعد اللياقة.

التمثيل الدبلوماسى الإسلامى مع دولة الروم فى شرق أوربا
"١" سفارة عامر بن شراحيل الشعبى

كان التمثيل السياسى للدولة الإسلامية مع شرق أوربا أسبق وأوسع نطاقا منه مع غرب أوربا. ذلك أن دول الروم (الدولة البيزنطية) فى شرق أوربا كانت أعظم قوى أوربا على الإطلاق فى العصور الوسطى، وذات مصالح حيوية مع الدولة الإسلامية سواء من حيث التجارة أم ضرورة إقرار علاقات حسن الجوار بينهما. ومن ثم حفلت عواصم الدولة الإسلامية ودولة الروم بعدد وافر من السفارات تبادلها الطرفان، وخلفت وراءها آثارا باهرة فى ميدان التمثيل الدبلوماسى.

ومن أطرف تلك السفارات الإسلامية المبكره مع دولة الروم سفارة عامر بن شراحيل الشعبى فى عهد الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان. وجاءت تلك السفارة عنوانا طيبا على عظمة الدبلوماسية الإسلامية فى تلك الفترة المبكرة من تاريخها. ذلك أن عهد الخليفة الأموى عبدالملك بن مروان شاهد تطورا خطيرا فى العلاقات الأقتصادية بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية اقتضى معه نشاطا دبلوماسيا واسعا لإقرار تلك العلاقات بين الطرفين.

وكان هذا التطور فى العلاقات الأقتصادية بين الدولتين هو انفصال العملة الإسلامية عن العملة البيزنطية وأهمها الدينار البيزنطى. ذلك أن الدولة الإسلامية ظلت تتعامل إلى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان بالدينار البيزنطى، الذى كان العملة الدولية المعترف بها فى المعاملات التجارية. ولكن رغب الخليفة عبدالملك بن مروان فى سك عملة خاصة بالدولة الإسلامية، تجعل دولته بعيدة عن التهديد البيزنطى أو التلاعب البيزنطى فى قيمة العملة.

ونفذ الخليفة عبد الملك بن مروان سياسته المالية فعلا، وضرب الدينار الإسلاميى على غرار الدينار البيزنطى، مما جعل العملة الإسلامية محترمة معترفا بها منذ بداية عهدها. غير أن تلك العملة الإسلامية الجديدة خلفت جوا

من التوتروالاضطراب بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية، مما استدعى نشاطا دبلوماسيا للتفاهم على تلك الأوضاع الجديدة. وفى هذه الفترة القلقة انتدب الخليفة عبد الملك بن مروان عامر بن شراحيل الشعبى ليكون سفيرا له الى البلاط البيزنطى.

ولم نعرف شيئا محددا عن المهمة الدبلوماسية أو الغرض من سفارة عامر بن شراحيل الشعبى، إذا طويت فى زوايا أرشيف الدبلوماسية الإسلامية، أشبه بالكثير من المهام الدبلوماسية التى لايعلم أحد عن كنهها شيئا. وإنما خلفت لنا المصادر وصفا مفصلا عن سلوك البلاط البيزنطى، وكيف مثل السلطات الإسلامية خير تمثيل.

وتجلت مواهب الشعبى الدبلوماسية حين قابل الامبراطور البيزنطى، الذى بذل غاية جهده لينال من كرامة الدولة الإسلامية فى شخص سفيرها، ويعجم عود هذه الدولة الفتية. إذ حاول الإمبراطور البيزنطى أن يدرك مدى ولاء سفراء الدولة الإسلامية لأولى الأمر فيها، ويعرف بالتالى قوة الدعائم التى تنهض عليها الخلافة الإسلامية، التى صارت مهيبة الجانب منذ صدر حياتها.

واستهل الامبراطور البيزنطى أساليبه الدبلوماسية العميقة الغور حين خاطب الشعبى فى سياق الحديث قائلا: «أنت أحق بموضع صاحبك منه (أى أحق من الخليفة). ولكن الشعبى أجاب الإمبراطور على الفور إجابة رائعة مفحمة حيث قال: «على بابه (أى باب الخليفة) عشرة آلف كلهم خير منى» فاستدرك الإمبراطور وقال: «هذا من عقلك».

الدعابات الدبلوماسية:

وبعد أن انتهى الإمبراطور البيزانطى من مفاوضاته السرية مع الشعبى، دخل معه فى مناقشات أشبه بالدعابات الدبلوماسية إذ قال الإمبراطور للشعبى فى آخر مقابلة له: أريد أن أسأل: عن ثلاث خلال، فإن خرجت منها فأنت

أعلم الناس، وكان حسن حديثك يمنعني من ذلك. فقال الشعبى: فليسألنى الملك عما أحب، فقال الإمبراطور: ياشعبى، وهل للعرب من الأمثال مثل أمثال العجم؟
فقال الشعبى: نعم، وعندنا مثل ليس فى الأرض مثله.
قال الامبراطور: وماهو؟
قال الشعبى: يابن آدم، إذلم تستح فاصنع ماشئت
فقال الإمبراطور: ماسمعت بهذا المثل قط.إنه لايشبهه مثل
وكان الشعبى كبير السن وخضب (صبغ) لحيته البيضاء باللون الأصفر، حين ذهب الى سفارته إلى بلاط الروم، تجملا منه، وإمعانا فى التمسك بالتقاليد الإسلامية الشائعة إذ ذاك، فكان الخصاب الأصفر يعتبر سنة من سنن النبى وعندما نظر الإمبراطورالى لحية الشعبى قال له: ياشعبى لم غيرت لحيتك بصفرة، ألا صبرت على البياض كما ابتليت أو رددتها إلى نسجها الأول، فخصبت بالسواد؟
فأجاب الشعبى: هذى سنة نبينا.
فقال الإمبراطور: ماجاء به النبيون فليس فيه حيلة.
ثم أردف مخاطبا الشعبى قائلا: أخبرنى ياشعبى، أنت خير أم أبوك؟
فقال الشعبى: أبى خير منى.
فقال الإمبراطور: وأنت خير من ابنك؟
فقال الشعبى: نعم
فقال الإمبراطور: وابنك خير من ابنك:
قال الشعبى: نعم
فقال الإمبراطور: الحمد لله الذى أظفرنى بك ياشعبى، آخركم قردة أذا كنتم تزدادون فى كل قرن شرا.

ولاشك أن هذه الدعابة الدبلوماسية من إمبراطور الروم جرت على أساليب المنطق الذى أجاده الروم إذ ذاك، وما حفل به إذ ذاك من دعابات تقوم على مقدمات تؤدى إلى نتائج تبدو مناقضة تماماً للعرف المألوف. وكانت

دراسات المنطق مازالت فى مهدها فى الدولة الإسلامية فى صدر حياتها، ولاسيما فى تلك الفترة التى ذهب فيها الشعبى سفير لدولة الروم.

غير أن الشعبى لم يترك الإمبراطور يسترسل فى تلك الدعابة التى استندت إلى سفسطة لغوية، وشرح له معنى إجاباته قائلا:

يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «سيجىء فى آخر الزمان أقوام تكون وجوههم وجوه الآدميين، وقلوبهم قلوب الشياطين، أمثال الذئاب الضوارى، ليس فى قلوبهم شىء من الرحمة، سفاكون للدماء، ولايرعون عن قبيح. وإن تابعتهم واربوك، وإن تواريت عنهم اغتابوك، وإن حدثوك كذبوك، وإن ائتمنتهم خانوك، صبيهم عارف، وشابهم شاطر، وشيخهم لايأمر بمعروف ولاينهى عن منكر. الاعتزاز بهم ذل، وطلب ما فى أيديهم فقر. الحليم فيهم غاو، والآمر بالمعروف متهم، والمؤمن مستضعف، السنة فيهم بدعة، والبدعة سنة، فعندئذ يسلط الله عليهم شرارهم، ويدعو خيارهم فلا يستجاب لهم».

وقد أعجب الإمبراطور اعجابا شديدا بذكاء الشعبى، واستولى عليه الحقد على الدولة الإسلامية الفتية بمثل هذا السفير العظيم. ولذا أختتم الإمبراطور جلساته مع الشعبى بإعطائه رقعة أو كتابا سريا مغلقا، طالبا منه تسليمه مغلقا للخليفة، ليفضه بنفسه، ولم يعرف الشعبى مضمون هذا الخطاب، وأنما حمله معه، واحتفظ بسريته حتى عاد إلى دمشق.

وقابل الشعبى الخليفة عبد الملك بن مروان وروى له مادار بينه وبين الإمبراطور من مفاوضات ودعابات، ثم سلمه أخيرا الخطاب المغلق قائلا: يا أمير المؤمنين، حملنى الإمبراطور رقعه وقال سلمها الى الخليفة مغلقة كما أخذتها.

فقال الخليفة عبد الملك: لعلها كيدة من كيداتهم، هاتها! فأعطاه الشعبى أياها. فلما فض الخليفة كتاب الإمبراطور وقرأه رأى فيه مايلى: «العجب لقوم

فيهم مثل هذا (اى الشعبى) يملكون غيره».

فلما وقف الشعبى على ماتضمنت الرقعة، طار لبه، واستولى عليه الخوف، خشية أن يظن الخليفة الظنون، وأن يفهم من تلك الرسالة أمور سيئة ارتكبها الشعبى فى حق الخلافة أثناء وجوده فى بلاط الروم. ولم يتمالك الشعبى نفسه أمام الخليفة، وظهر عليه البله وقال: «ياأمير المؤمنين، قال الإمبراطور ذلك،لأنى كبرت فى عينه، ولأنه لم يرك، ولورآك لاحتقرنى».

غير أن الخليفة عبد الملك طمأن الشعبى، لأنه فهم مقصد رسالة الإمبراطور، وشرح ذلك للشعبى قائلا: «أحسنت فى سفارتك ياشعبى! ولكن أتدرى ما أراد الإمبراطور بما كتب»؟ فقال الشعبى: لا فقال الخليفة: ««حسدنى الإمبراطور عليك، فأراد أن يغرينى ويحملنى على قتلك».

وبذلك أثبت رجال السلك السياسى المسلمون فى صدر دولتهم أنهم رجال من الطراز الأول، وأنهم موضع الإجلال والاحترام حيثما ذهبوا، وأنهم على جانب عظيم من صفاء الذهن، وفهم الحيل الدبلوماسية التى قد ينخدع بها كثير من الخبراء فى هذا الميدان الشاسع. ومن ثم لم يكن عجبا أن يتقدم المسلمون سريعا فى مضمار الدبلوماسية، ويضعون فيها القواعد والنظم والتعاليم ماجعلهم يتفوقون فى العصر العباسى على منافسيهم الروم، الذين كانوا يتمتعون منذ القدم بأنهم أساتذة العالم فى هذا الفن الدبلوماسى.

"ب" سفارة نصر بن الأزهر إلى القسطنطينية

المفاوضات بشأن الاسرى:

وبقيام الدولة العباسية ازداد النشاط الدبلوماسى الإسلامى مع إمبراطورية الروم، واتخذ طابعا أكثر دقة ووضوحا.

ذلك أن اتخاذ العباسيين عاصمة لهم فى بغداد بدلا من دمشق عاصمة الأمويين جعلهم بعيدين عن خط الحدود الفاصل بين دولتهم ودولة الروم عند سلسلتى جبال طوروس جنوب آسيا الصغرى. ومن ثم وضع العباسيون نظاما يكفل لهم حماية أطراف دولتهم شمال الشام، ومراقبة حركات البيزنطيين أو الروم داخل آسيا الصغرى. ذلك أن السلطات البيزنطية انتهزت انتقال مركز السلطان فى الدولة الإسلامية من دمشق التى كانت تقرب من ديارهم فى آسيا الصغرى إلى بغداد النائية عن تلك الديار فى أرض الرافدين وأخذت تشن إغارات مفاجئة على أراضى الدولة الإسلامية.

ولذا أقام العباسيون خطتهم الحربية على أساسا إقامة سلسلة من المعاقل والحصون على أطراف الشام الشمالية لتصد عدوان الروم المفاجىء، ولتكون تلك الحصون كذالك مراكز أمامية للهجوم على أرض الأعداء فى آسيا الصغرى بغية عرقلة تحركات الروم الحربية قبل هجومهم على أراضى المسلمين. وأدى هذا النظام الحربى الذى اتبعه كل من العباسيين والروم إلى كثرة الإغارات التى تبادلها الطرفان، والتى لم تخل منها سنة من السنوات صيفا كان، أم شتاء.

وترتب على تلك الإغارات الرتيبة صيفا وشتاء، والتى سميت تبعا لذلك بالصوائف والشواتى - ترتب عليها ازدياد فى التمثيل السياسى بين العباسيين والروم بغية وضع حد لحالة التوتر التى تكاد تكون مستمرة، ولتبادل الأسرى الذين كثر عددهم أحيانا عند الطرفين نتيجة تلك الإغارات المفاجئة. ولذا يغلب على السفارات التى يتبادلها العباسيون والروم طابع إنهاء حالات

القتال، ووضع نظام لتبادل الأسرى بين الفريقين، وهو ماعرف باسم «الفداء».

ومن أشهر تلك السفارات العباسية الخاصة بإقرار السلام بين المسلمين والروم سفارة نصر بن الأزهر إلى القسطنطينية سنة ٢٤٦هـ/٨٦١م، وكانت تلك السفارة ردا على سفارة بعثها إمبراطور الروم وهو ميخائيل بن تيوفيل سنة ٢٤٥هـ/٨٦٠م، وطلب فيها بإقرار السلام بين الدولتين وإجراء تبادل للأسرى بينهما. وجاء على رأس سفارة دولة الروم أعظم دهاتها الدبلوماسيين إذ ذاك وهو أطروبيليس، الذى وفد على الخليفة المتوكل العباسى ومعه سبعه وسبعون رجلا من أسرى المسلمين، عنوانا على حرص الروم على أظهار حسن نيتهم وصادق رغبتهم فى إعادة المودة والسلام، وتبادل الأسرى.

وأجاب الخليفة المتوكل العباسى طلب سفارة الروم، وذلك بسبب كثرة الأسرى من المسلمين والروم. فأن الخليفة المتوكل العباسى ولى الخلافة عقب فترة اتسمت بشدة الإغارات التى تبادلها العباسيون والروم، والتى توغلت كثيرافى جوف بلاد كل منهما. فوصلت بعض إغارات الروم مثلا إلى حصن زبطرة فى أعالى الفرات، كما وصلت إغارات العباسيين إلى عمورية فى قلب آسيا الصغرى، والتى ولى قيادتها الخليفة المعتصم العباسى نفسه، حيث جلب العباسيين أجل نصر سجله الشاعر العظيم أبو تمام فى قصيدته المشهورة:

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

ولذا ورث الخليفة المتوكل العباسى تركة مثقلة جعلته يرحب بما عرضته سفارة الروم من تبادل الأسرى، وبعث مع سفير الروم أحسن العباسيين إذا ذاك وهو نصر بن الأزهر، الذى سبق أن مثل الدولة العباسية فى بلاط الروم، وصار خبيرا بشئونه وتقاليده، وخير من يحافظ على حقوق المسلمين ويرعى سمو تقاليدهم الدبلوماسية.

وتجلت مواهب نصر بن الأزهر واعتداده بالتقاليد الدبلوماسية الإسلامية حين وصل إلى القسطنطينية، إذ كان فى أبهى زينة، متشحا بالملابس السوداء،

وهى الزى الرسمى للعباسيين، وعلى رأسه القلنسوة، وهى لباس الرأس الرسمى الخاص بالعباسيين كذلك، ومتمنطقا سيفا وخنجرا. فأبى القائم بأمور الإمبراطور، أو وزير الخارجية، وكان إذ ذاك بتروناس خال الإمبراطور أن يسمح للسفير الإسلامى بدخول قاعة الاستقبال على هذه الهيئة، وأبدى اعتراضه بصفة خاصة على الملابس السوداء وعلى السيف.

غير أن السفير الإسلامى الحريص على تقاليد دولته الدبلوماسية غضب وهم راجعا، مما اضطر الدولة البيزنطية إلى ملاطفته وإصلاح خطئها الدبلوماسى حتى عاد إلى البلاد. وروى ناصر بن الأزهر حادثة سفارته فى قوله:

«لما صرت إلى القسطنطينية حضرت دار ميخائيل الملك بسوادى وسيفى وخنجرى وقلنسوتى، فجرت بينى وبين خال الملك بطرناس المناظرة، وهو القيم بشأن الملك. وأبوا أن يدخلونى بسيفى وسوادى، فقلت أنصرف. فانصرفت، فرددت من الطريق ومعى الهدايا نحو الف نافجة مسك وثياب حرير وزعفران كثير وطرائف. وقد كان أذن لوفود برجان (من جيران الدولة البيزنطية) وغيرهم ممن ورد عليه، وحملت الهدايا التى معى، فدخلت عليه، فإذا هو على سرير فوق سرير، وإذا البطارقة حوله قيام، فسلمت ثم جلست على طرف السرير الكبير وقد هيىء لى مجلس، ووضعت الهدايا بين يديه. وبين يديه ثلاثة تراجمة... فقالوا لى: مانبلغه؟! قلت: لاتزيدوا على ماأقوله لكم شيئا، فأقبلوا يترجمون ماأقول. فقبل الهدايا،ولم يأمر لاحد منها بشىء وقربنى وأكرمنى، وهيأ لى منزلا بقربه. فخرجت فنزلت فى منزلى».

وأظهر نصر بن الأزهر بذلك كياسة دبلوماسية رائعة نمت على حسنة أستعداده السياسى، حين أمر المترجم بتوخى الدقة فى نقل كلامه، كما أنه كان حريصا على أن يظهر احترام الروم له حين ذكر أنه جلس فى مكان قرب السرير الكبير أى حيث يجلس الإمبراطور، وأنه بذلك كان مقدما على سائر سفراء جيران دولة الروم، الذين شهدوا هذا الاستقبال الرسمى. وكانت دولة

الروم ترعى التقاليد الدبلوماسية مع الدولة الإسلامية وتخصص للسفراء المسلمين مركز الصدارة فى حفلات الاستقبال.

وبدأ نصر بن الأزهر مهمته الرسمية بعد انتهاء مراسيم الاستقبال من حيث إعداد التقارير عن حالة الأسرى لدى دولة الروم وعددهم . وكان يروح عن السفراء المسلمين وأعبائهم المضنية برنامج الحفلات والزيارات الذى تعده لهم السلطات البيزنطية. فكان فى القسطنطينية ميدان سباق (HIPPODROME) يعتبر مرآة صادقة لحياة العاصمة الاجتماعية، وليس مقصوراً على حفلات السباق فحسب. وكان السفراء المسلمون يدعون إلى هذا الملعب ومشاهدة شتى المباريات فيه، ولاسيما الألعاب البهلوانية التى يقدمها أشخاص مخصوصون أجادوا هذا الفن الشعبى.

وكانت تخصص للسفراء المسلمين مقصورة إلى جانب مقصورة الإمبراطور نفسه، إمعانا فى إكرامهم. وحرصت السلطات البيزنطية عل إتاحة الفرصة للسفراء المسلمين لمشاهدة كنيسة أياصوفيا، حيث بلغ الفن البيزنطى وجمال البناء غايته فى هذا المكان الجليل. فكانت الدلايات والمباخر الفاخرة تأخذ بالألباب وتثير الروعة فى النفوس.

وتجنبت سلطات دولة الروم فى برامج الترفيه التى أعدتها للسفراء المسلمين عرض المناظر الساذجة والمساخر البسيطة التى كانت تؤثر بها على سفراء جيرانها من غير المسلمين، من أهل البلاد المتخلفة حضاريا. فكانت هناك قاعات وردهات خاصة فى القصر الإمبراطورى تؤدى إلى قاعة الاستقبال الخاصة بالإمبراطور، وامتلأت تلك القاعات والردهات الخاصة بتماثيل على هيئة الطير أو الحيوانات المقدسة، تخرج منه أصوات بطريقة آلية، اثناء اجتياز السفراء السذج لها، مما يستولى على لبهم ويثير فى نفوسهم الهيبة ويخرون سجدا فى حضرة الإمبراطور.

وظل السفير الإسلامى نصر بن الأزهر بعيدا عن مثل هذه المناظر

الساخرة، وموضع إجلال سلطات دولة الروم واحترامهم، ولكن سرعان ماحدثت واقعة عارضة أوقفت المفاوضات بشأن إطلاق سراح الأسرى مؤقتا.

الاتفاق على تبادل الأسرى:

وكان السبب فى توقف المفاوضات التى اضطلع بها السفير نصر بن الأزهر مع سلطات دولة الروم هو حضور وفد من أهل حصن اللؤلؤة يعرض تبعية سكان هذا الحصن على السلطات فى القسطنطينية. وكان لحصن اللؤلؤة أهمية استراتيجية عظمى بسبب وقوعه فى منطقة الأطراف الفاصلة بين أراضى المسلمين فى الشام وأراضى الروم فى آسيا الصغرى. إذ سيطر هذا الحصن بفضل موقعه الهام على الطريق الرئيسى الممتد عبر سلسلتى جبال طوروس والذى يصل بين شمال الشام وآسيا الصغرى.

ومن ثم كان للمهيمن على هذا الحصن المقدرة على منع الغارات التى يشنها أى فريق من المسلمين أو الروم على البلاد المجاورة لهما.

ورحب الإمبراطور البيزنطى بحضور وفد حصن اللؤلؤة، لأن هذا الحصن كان دائما فى قبضة المسلمين عدا فترات يسيره، استطاع الروم فيها استمالة أهل هذا الحصن إليهم بأغداق الأموال عليهم. فراى الإمبراطور البيزنطى استغلال هذه الفرصة، والضغط على السفير الإسلاميي فى المفاوضات الجارية بينهما، وكسب أكبر فائدة ممكنة.

وتغافل الإمبراطور البيزنطى بذلك عن السفير الإسلامى نصر بن الأزهر مدأ أربعة أشهر. ولكن السفير الإسلامى أظهر فى تلك الفترة مهارة دبلوماسية فائقة، إذ ظل ضابطا لأعصابه، لايعير هذا التغافل اهتماما، ولم يطلب العودة إلى بغداد، وإنما بقى هادئا، ينتظر مايمكن أن ينكشف عنه هذا الحادث الطارىء الذى عرقل سير المفاوضات.

وآتت دبلوماسية السفير الإسلامى سمارها، ذلك أن أهل حصن اللؤلؤة، سرعان ماثاروا على السلطات الحاكمة فيه، وأعلنوا ولاءهم مرة أخرى للدولة

الإسلامية. وبذلك انقطع آخر أمل عند الإمبراطور البيزنطى فى كسب الموقف أثناء المفاوضات مع السفير الإسلامى، وآثر السير سريعا فى إتمام تلك المفاوضات.

وسمحت سلطات دولة الروم للسفير الإسلامى بتفقد حالة الأسرى المسلمين عندها، وأحصاء عددهم حتى يتم تبادل الأسرى وفق قواعد دقيقة. وكانت دولة الروم تحرص على معاملة الأسرى من المسلمين معاملة تليق بكرامة الدولة الإسلامية. فكان هناك بالقرب من القصر الإمبرطورى دار خاصة بكبار الأسرى المسلمين، ليكونوا تحت رعاية الإمبراطور مباشرة. أما سائر الأسرى من المسلمين فكانوا يوزعون للعمل فى المرافق العاملة لدولة الروم كل حسب مايعرفه من صنعه أو حرفة.

ولم تكره سلطات دولة الروم أسارى المسلمين على تغيير دينهم، وكذلك لم تلزمهم بأكل لحم الخنزير أو غيره من الأشياء التى يحرمها الدين الإسلامى. وفضلا عن ذلك تجنبت تلك السلطات معاملة الأسرى معاملة وحشية، ولم تطبق عليهم ضروب العذاب التى أنزلتها بأسارى جيرانها من غير المسلمين، حيث شقت ألسنة الأسرى أوسملت (فقأت) أعينهم، ولم تقف معاملة سلطات دولة الروم لأسارى المسلمين عند هذا الحد، وإنما سمحت لبعضهم بالاتجار وحرية التنقل فى جهات معلومة.

وخصصت دولة الروم لأسارى المسلمين مناسبات يرفهون فيها عنهم، ولاسيما يوم عيد ميلاد السيد المسيح. فمن حفلات الترفيه السماح لأسارى المسلمين بحضور ميدان بالقرب من القصر الإمبراطورى فيه حبل ممدود، معلق به صوره فرس من نحاس. وفى طرف آخر من الميدان تقف فرقتان متنافستان من الخيول، يطلق الأسارى على إحداهما خيل الملك، وعلى الأخرى خيل الوزير. ثم تنطلق هاتان الفئتان من الخيول، فإن سبقت خيل الوزير استبشروا، واعتقدوا أن الوقت قد قرب لإطلاق سراحهم.

وأما فى يوم عيد الميلاد فكانت تعد الموائد فى القصر، ويحضر أسارى المسلمين، «وعلى تلك الموائد من الحار والبارد أمر عظيم، ثم ينادى منادى الملك فيقول: وحياة رأس الملك مافى هذه الأطعمة شيء من لحم الخنزير، وينقل إليهم تلك الأطعمة فى صحاف الذهب والفضة... والقوم كلهم جلوس على الموائد، ويدخل عليه عشرون رجلا بأيديهم الحلباقات، والحلباق الصنج يضربون فيها ماداموا يأكلون، ويطعمون على هذه الصفة أثنى عشر يوما، فإذا كان آخر هذه الأيام، يعطى كل أسير من المسلمين دينارين وثلاثة دراهم».

واسترعت هذه المعاملة الكريمة أعجاب السفراء المسلمين، وسجلوها فى تقاريرهم التى شهدت بأن أسارى العصور الوسطى، نعموا بنظم ومعاملة طيبة لاتقل عن القواعد التى يقرها العرف الدولى اليوم للأسارى فى أيامنا الحديثة. واستطاع السفير الإسلامى نصر بن الأزهر أن يحصى عدد الأسرى من المسلمين فى سهولة ويسر بفضل التسهيلات التى قدمتها السلطات فى القسطنطينية- ووجد السفير الإسلامى أن عدد الأسرى المسلمين يبلغ ألفين منهم عشرين أمراة معهن عشره صبيان.

وبعد الانتهاء من احصاء عدد الأسرى المسلمين جرت المفاوضات مرة أخرى بين السفير الإسلامى والإمبراطور ميخانيل للاتفاق على تبادل الأسرى. وأظهر السفير الإسلامى فى تلك المفاوضات لباقة دبلوماسية وحذقا سياسيا بارعا. ذلك أن خال الإمبراطور كان يتولى المفاوضات ويجيب على أسئلة السفير الإسلامى من دون الإمبراطور، الذى أقتصرت اجابته على هز رأسه بما يفيد «نعم» أو (لا) دون أن يتكلم. إذ حرص السفير نصر بن الأزهر على أن يعيد مايتفق عليه مع خال الإمبراطور، على الإمبراطور نفسه، ويرى ماذا يجيب برأسه، حتى يكون الاتفاق تاما ومؤكدا من الإمبراطور نفسه.

وعبر السفير الإسلامى عن نجاح مفاوضاته، وحرصه على أخذ تعهد ممكن من الإمبراطور نفسه قائلا: «فاجابونى (أى السلطات فى القسطنطنية)

إلى المحالفة فاستحلفت خاله فحلف عن ميخائيل. فقلت أيها الملك، وقد حلف لى خالك فهذه اليمين لازمة لك فقال برأسه نعم. ولم أسمعه يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد الروم إلى أن خرجت منها، وأنما يقول الترجمان وهو يسمع فيول برأسه نعم أو لا، وليس يتكلم، وخاله المدبر أمره، ثم خرجت من عنده بالأسرى بأحسن حال حتى إذا جئنا موضع الفداء أطلقنا هؤلاء جملة، وهولاء جملة».

وكان موضع الفداء عند ضفاف نهر يسمى اللامس (وهو فى منطقة سلوقية) حيث جرت العادة على أن يقف أسرى المسلمين مع مندوبى سلطات دولة الروم على جانب هذا النهر الغربى، ويقف المسلمون مع أسارى الروم على جانبه الشرقى.

وكانت تختار بقعه من النهر مد جسرين عليها، أحداهما خاص بالمسلمين والآخر بالروم. ثم يخضر هذه العملية الخاصة بتبادل الأسرى أو «الفداء» كبار رجال الدولتين الإسلامية والبيزنطية وحكام منطقة الحدود.

وبعد ذلك بيدأ الفريقان عملية الفداء بأن يرسل كل فريق من ناحيته أسيراً، والآخر بدوره أسيراً، بحيث يلتقى الأسيران فى منتصف جسر كل منهما. فاذا صار الأسير المسلم الى المسلمين كبر، وإذا «صار الرمى إلى الروم تكلم بكلامهم، وتكلموا شبيها بالتكبير»، وتتكررهذه العملية حتى يتم الفداء.

وقد استغرقت عملية الفداء سبعه أيام، وحضرها من أولها إلى آخرها السفير نصر بن الأزهر، ليشهد صحة الأجراءات التى تم الاتفاق عليها مع سلطات الروم. ثم عاد نصر بن الأزهر الى بغداد مسجلا هذا النصر الدبلوماسى الباهر فى ميدان تحسين العلاقات بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية، كما أضاف إلى سجله الحافل فى السلك السياسى صفحة ناصعة البياض.

"ج" سفارة الإمبراطور قسطنطين السابع إلى الخليفة المقتدر العباسى

الاستعدادات فى بغداد:

بلغ عدد التمثيل السياسى بين الدولة الإسلامية ودولة الروم أوج نشاطه فى عهد الخليفة المقتدر العباسى ومعاصره الإمبراطور قسطنطين السابع. ثم إن قواعد اللياقة أو البرتوكول عند كل من هاتين الدولتين قد تحددت إذ ذاك بشكل يدعو إلى الإعجاب والدهشة. إذ فى تلك الفترة الزاهرة من النشاط الدبلوماسى بين المسلمين والروم وضع الإمبراطور قسطنطين السابع كتابه «المراسيم» ليكون هاديا للسفراء الروم ورجال بلاطه فى ميدان السلك السياسى.

وبرغم الإعداد الذى تلقاه سفراء الروم فى عهد الإمبراطور قسطنطين السابع، فإن الدولة الإسلامية وضعت من قواعد اللياقة أو البرتوكول ما أثار دهشة سفراء الروم، وجعلهم يقفون موقف التلميذ من الأستاذ وهم فى حضرة الخليفة العباسى المقتدر. إذ وفدت على هذا الخليفة فى سنه ٣٠٥هـ/٩١٧م سفارة من عند الإمبراطور قسطنطين السابع، الذى اشتهر بالأبهة والميل إلى حسن إعداد سفرائه.

وعندما وصلت إلى الخليفة المقتدر أنباء اجتياز سفارة إمبراطورية الروم للحدود فى طريقها إلى بغداد أمر الخليفة السلطات الإسلامية بحجز سفارة إمبراطور الروم فى تكريت، شمال بغداد، حتى يفرغ من إعداد قصره وعاصمته، ويجمله ويزينها بما يليق بعظمة الدولة الإسلامية. وليكون استقبال تلك السفارة شاهدا على علو كعب المسلمين فى ميدان الدبلوماسية.

وأقامت سفارة الروم فى تكريت شهرين. تابعت بعدها السفر إلى بغداد. وفى العاصمة، قضت السفارة شهرين آخرين قبل أن تحظى بمقابلة الخليفة المقتدر. وفى تلك الأثناء كانت العاصمة قد أخذت ثوبا قشيبا،

وأمتلأت بالزينات الفاخرة. وأخذ سكان بغداد يزينون منازلهم على جانبى الطريق الذى أعد لموكب سفراء الروم، حتى غدت «أسواق الجانب الشرقى وشوارعه وسطوحه ومسالكه مملوءة بالعامة النظارة ...وزينت كل غرفة مشرفة ودكان... بأفضل زينة وأحسن ترتيب وتعبيه.

وفى نفس الوقت بذل الخليفة جهدا عظيما فى إعداد «قصر التاج وهو المقر الرسمى إذ ذاك للخلافة، ومكان استقبال السفراء ويقع هذا القصر على دجلة، ويتصف بالسعة والبهاء وبكثرة القباب والمجالس. واهتم الخليفة المقتدر اهتماما خاصا بهذا القصر، الذى غدا عنوان العاصمة وسلطانها، وأكثر فيه من الخدم والحشم، حيث بلغ عددهم «أحد عشر ألف خادم خصبى، وكذا صقلبى ورومى وأسود»

ووصف شاهد عيان زينة القصر فى بغداد لاستقبال سفارة الروم قائلا «كان عدد ما علق فى قصور أمير المؤمنين المقتدر بالله من الستور الديباج المذهبة بالطراز المذهبة الجلية، المصورة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع... ثمانية وثلاثين ألفا وخمسمائة ستر، وعدد البسط.. فى الممرات والصحون التى وطىء عليها القواد ورسل صاحب الروم... سوى مافى المقاصير والمجالس من الأنماط ... اثنان وعشرون ألف قطعة»

ولم يقف الاستعداد عند الفرش والبسط، وانما أخذ سائر موظفى قصر الخلافة، وخدمه وحشمه يرتدون ملابسهم الرسمية، ويزينون مجالسهم، حتى غدا القصر بأجمعه على تمام الأهبة لاستقبال سفارة الروم استقبالا رسميا.

حفل تقديم أوراق الاعتماد:

وبعد انتهاء الشهور الأربعة التى قضتها سفارة إمبراطور الروم فى تكريت وبغداد تحدد اليوم الرسمى لمقابلة الخليفة المقتدر العباس. وفى هذا اليوم صف العسكر من دار صاعد، وهى دار الضيافة الرسمية فى بغداد إلى قصر الخلافة. «ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة، وتحتهم الدواب بمراكب

الذهب وافضة، وبين أيديهم الجنائب عل مثل هذه الصورة... وكان عدد الجيش مائة وستين ألف فارس وراجل».

وخرج ركب السفارة من دار صاعد، وفى صحبتها أبو عمر الطرسوسى حاكم منطقة الحدود الإسلامية شمالى الشام، وهو الذى رافق السفارة ايضا منذ دخولها الأراضى الإسلامية. وكان هذا الحاكم المسلم يرتدى قبا أسود ويحمل سيفا ومنطقة، وبكامل زيه الرسمى. ووصل الركب أولا إلى دار نص القشورى الحاجب، أو كبير تشريفاتى القصر بلغه العصر الحاضر.

وهناك شاهدا سفراء الروم استعدادا رائعا، أدخل على نفوسهم الرهبة، وحسبوا الحاجب هو الخليفة. وعندما هموا بتقديم أوراق الاعتماد إليه، قيل لهم إنه الحاجب.

ثم تابع الركب سيره حتى وصل دار الوزير أبى الحسن على بن محمد بن الفرات، وهناك رأى السفراء استعدادا يفوق ماشاهدوه فى دار الحاجب، وكادوا يكررون خطأهم الأول بتقديم أوراق الاعتماد اليه. ولكنهم علموا للمرة الثانية أنهم مازالوا فى طريقهم إلى مجلس الخليفة. فتابع الركب سيره حتى وصل إلى مجلس قد علقت ستوره واختيرت فرشه وأحاط الخدم بالأعمدة والسيوف.

ومن هذا المكان دخلوا «إلى حضرة المقتدر بالله، وهو جالس فى التاج مما يلى دجله، بعد أن لبس بالثياب الدبيقية (نسبة إلى دبيق من مدن مصر) المطرزة بالذهب، على سرير أبنوس قد فرش بالدبيقى المطرز بالذهب، وعلى رأسه القلنسوة الطويلة، ومن يمنة السرير تسعه عقود مثل السبح معلقة، ومن يسرته تسعه أخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمة غالبة الضوء على ضوء النهار، وبين يديه خمسة من ولده ثلاثة يمنة واثنان ميسرة».

وكان يقف بالقرب من الخليفة كذلك مؤنس الخادم ونصر القشورى حيث اضطلعا بالترجمة عن الخليفة. وعندما دخل السفراء اخذتهم الرهبة من

الخليفة، ورغبوا فى السجود له جريا على عاداتهم فى الدخول على إمبراطورهم. ولكنهم منعوا من فعل ذلك لأنه أمر يخالف الشريعة الإسلامية وتقاليد بلاد الخليفة المسلم.

وقدم رأس السفارة، وكان شيخا جليلا كتاب إمبراطور الروم إلى الخليفة، ويضم تعريفا بأعضاء السفارة، ويطلب من السلطات الإسلامية إجراء فداء وإيقاف حالة الحرب بين الدولتين. وكان الخطاب أو أوراق الاعتماد كبيرة الحجم فتناولها الخايفة وقبلها إعظاما لها، وإجلالا لتلك السفارة وتقديرا منه لنبل مقصدها. وكان مع السفارة مترجم خاص بها يسهل مهمة تبادل الآراء والمناقشات.

واستغرق هذا الاستقبال الرسمى ساعة، لقى فيها سفراء الروم من عطف الخليفة وترحيبه ماجعلهم يطمئنون إلى نجاح مهمتهم. وكانت السلطات الإسلامية تحرص من جانبها على احترام السفارات التى تفد من دولة الروم بشأن الأسرى أو الفداء، وتقدم لأعضاء تلك السفارات كل إجلال وتقديرا ولذلك نعم أفراد الإمبراطور قسطنطين باستقبال ودى من الخليفة وقضوا وقتهم وسط مظاهر الحفاوة والتكريم.

وبعد انتهاء الاستقبال الرسمى، وعندما هم السفراء بالخروج أمر الخليفة بالمبالغة فى إكرامهم، والسماح لهم بالتجول فى القصر ومشاهدة مايحويه من مباهج وقاعات فاخرة. وصحب السفراء فى الخروج أبو عمر الطرسوسى، الذى لازمهم كذلك فى الطواف بأرجاء قصر الخلافة.

برنامج الترفيه:

وكانت قصور الخلافة ضمن برنامج الترفيه الذى أعد لسفارة الروم، وعرض مابها من كنوز ومحتويات. روى أحد المرافقين لسفارة الروم استعداد القصر قائلا: «أدخل رسل صاحب الروم من دهليز باب العامة الأعظم إلى الدار المعروفة بخان الخيل، وهى دار أكثرها أروقة بأساطين رخام، وكان فيها من

الجانب الايمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهبا وفضة بغير أغشية، ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الجلال الديباج..

ثم أدخلوا من هذه الدار إلى الممرات والدهاليز المتصلة بجى الوحوش، وكان فى هذه الدار من أصناف الوحوش التى أخرجت اليها من الحير قطعان تقرب من الناس، وتتشممهم وتأكل من أيديهم. ثم أخرجوا الى دار فيها أربعة فيلة مزينة بالديباج، على كل فيل ثمانية نفر من السند... فهال الرسل أمرهم. ثم أخرجوا إلى دار فيها مائة سبع، خمسون يمنة وخمسون يسرة، كل سبع منها فى يد سباع وفى رؤوسها واعناقها السلاسل والحديد.

ثم أخرجوا إلى داربين بساتين فى وسطها بركة رصاص.. حواليها نهر رصاص .. أحسن من الفضة المجلوة، طول البركة ثلاثون ذراعا فى عشرين ذراعا، فيها أربع طيارات لطاف بمجالس مذهبة مزينة بالدبيق المطرز وأغشيتها ديبقى مذهب، وحوالى هذه البركة بستان بميادين فيه نخل عدده أربعمائة نخلة، وطول كل واحدة خمسة أذرع، وقد لبس جميعها ساجا منقوشا من أصلها إلى حد الجمارة بحلق من شبه مذهبة، وجميع النخل حامل بغرائب البسر.

ثم أخرجوا من هذه الدار إلى دار الشجرة، وفيها شجرة فى وسط بركة كبيرة، مدورة فيها ماء صاف، وللشجرة ثمانية عشر غصنا، لكل غصن منها شاخات كثيرة عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة، وأكثر قضبان الشجرة فضة، وبعضها مذهب. وهى تمايل فى أوقات ولها ورق مختلف الألوان متحرك كما تحرك الريح ورق الشجر، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر، وفى جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارسا على خمسة عشر فرسا، وقد ألبسوا الديباج وغيره، وفى أيديهم مطارد على رماح يدورون على خط واحد فيظن أن كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد. وفى الجانب الأيسر مثل ذلك.

ثم أدخلوا إلى القصر المعروف بالفردوس، وفتحت الخزائن والآلات فيها مرتبة كما يفعل لخزائن العرائس، وقد علقت الستور، ونظم جوهر الخلافة فى قلايات على درج غشيت بالديباج الأسود. ثم أخرجوا منه إلى ممر طوله ثلثمائة ذراع، قد علق من جانبيه نحو من عشرة آلف درقة وخوذه... وقسى.

وقد أقيم نحو ألفى خادم بيض وسود صفين يمنة ويسرة، ثم أخرجوا بعد أن طيف بهم ثلاثة وعشرين قصرا إلى الصحن التسعينى وفيه الغلمان بالسلاح الكامل والهيئة الرائعة...ثم مروا بمصاف من علية السواد من خلفاء الحجاب الجند والرجالةوأصاغر القواد، ودخلوا دار السلام.

وكان عدة كثيرة من الخدم والصقالبة فى سائر القصور يسقون الناس الماء المبرد بالثلج والاشربة، ومنهم من كان يطوف مع الرسل، فلطول المشى بهم جلسوا واستراحوا فى سبعة مواضع، واستقوا الماء فسقو».

وفضلا عن مشاهدة سائر محتويات قصور الخلافة ركب السفراء قوارب جميلة، صعدت بهم فى دجلة، متجهين الى دار صاعد التى أعدت لإقامتهم. وأتاحت لهم هذه النزهة النهرية مشاهدة معالم بغداد، التى امتدت على ضفتى النهر فى جمال ورونق.

وعندما انتهت سفارة الإمبراطور قسطنطين من مهمتها وتم الاتفاق على تبادل الأسرى بين المسلمين والروم، قفلت عائدة الى القسطنطينية. ورغب الخليفة المقتدر العباسى فى اسباغ بالغ كرمه على السفراء عند عودتهم، فبعث الى الشخصين المشرفين على السفارة خمسين بدرة ورقا، فى كل بدرة خمسة آلاف درهم».

وكان المقصود من تلك الهبات هو مساعدة السفراء على شراء ما يحتاجون اليه من طرائف العاصمة والنادر من منتجات الدولة الاسلامية. وكذلك شمل بهباته أبا عمر الطرسوسى الذى رافق سفارة الروم فى عودتها إلى

أثر ميزان القوى بين المسلمين والروم
فى العلاقات الدبلوماسية الإسلامية
مع غرب أوربا
"أ" سفارة الخليفة هارون الرشيد
إلى الإمبراطور شرلمان

أهداف السفارة:

كان لاتساع الدولة الإسلامية فى شمال أفريقيا، واستيلاء المسلمين على بلاد الأندلس من شبه جزيرة أيبيريا أثر كبير فى خلق علاقات سياسية مع القوى الأوربية فى غرب القارة، ولاسيما مع الفرنجة فى بلاد الغال «فرنسا»، ومع النورمان فى الجزر البريطانية. غير أن تلك العلاقات بدأت متأخرة عن علاقات المسلمين مع شرق أوربا، بسبب افتقار غرب القارة الى القوى السياسية العظمى الى مطلع القرن الثامن الميلادى.

ولكن سرعان ما دب النشاط الدبلوماسى الإسلامى فى غرب أوربا بعد النصف الثانى من القرن الثامن الميلادى بسبب الانقلاب الذى حدث اذ ذاك فى الميزان الدولى. وكان آية هذا الانقلاب انفصال الأندلس عن الخلافة العباسية فى بغداد، وقيام إمارة إسلامية قوية هناك. ثم قامت فى نفس الوقت قوة الفرنجة فى بلاد الغال «فرنسا» ومنافستهم للروم فى شرق أوربا.

وكانت الخلافة العباسية هى باعثة النشاط الدبلوماسى الإسلامى فى غرب أوربا. إذ بعث الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور حملة للاستيلاء على بلاد الأندلس من أيدى عبد الرحمن الأموى، الذى هرب من جيوش العباسيين فى الشام. وانتهت مجهودات أبو جعفر المنصور بالإخفاق، حيث هزم عبد الرحمن الأموى جيوش العباسيين، وسقط القائد العباسى نفسه قتيلا.

وأدركت الخلافة العباسية منذئذ ألا سبيل الى القضاء التام على الإمارة الأموية بالأندلس، وأن التطورات السياسية تقضى عليه بالحد من شوكة هذه

الإمارة، حتى لا تمتد بها الأطماع الى مهاجمة الممتلكات العباسية بشمال أفريقيا.

ووجد العباسيون فى الفرنجة بأرض الغال خير حليف يساعدهم على تحقيق مآربهم، بسبب مخاوف الفرنجة من هجمات الأمويين بالأندلس على جنوب بلاد الغال «فرنسا». واستهل الخليفة أبو جعفر المنصور نفسه العلاقات الدبلوماسية مع الفرنجة، ليكسبهم الى جانبه ضد الأمويين بالأندلس. فبعث هذا الخليفة إلى بين (Pepin) سيد بلاط الفرنجة سفارة عباسية تخطب وده، وتطلب صداقته مع الخلافة العباسية.

وخلقت سفارة أبى جعفر المنصور مع بين جوا من الود بين البلاط العباسى فى بغداد وبلاط الفرنجة فى إكس لاشابل، دون أن تتطور العلاقات بينهما الى تحالف حربى ضد الأمويين بالأندلس وحاول الخليفة المهدى بن المنصور أن يجدد العلاقات الدبلوماسية مع الفرنجة، بغية خلق تحالف حزبى ضد الإمارة الأموية بالأندلس، ولكن ظلت العلاقات السياسية بين العباسيين والفرنجة علاقة صداقة فقط.

وتجدد النشاط الدبلوماسى الإسلامى مع دولة الفرنجة فى غرب أوربا حين ولى هارون الرشيد عرش الخلافة فى بغداد. إذ نال هذا الخليفة من السطوة والسلطان والغنى والثراء ما جعله يفكر فى إعادة الأندلس الى التبعية للخلافة العباسية. واستهل تنفيذ سياسته بالسير على التقاليد القديمة التى سبقه اليها الخليفة أبو جعفر المنصور، وهى كسب تحالف الفرنجة ضد الأمويين بالأندلس.

وأعد الخليفة هارون الرشيد سفارة عظيمة لهذا الغرض، ولا سيما أن الظروف السياسية ساعدته على إيفاد تلك السفارة دون أن يكون فيها امتهان لعظمته. ذلك أن مقاليد دولة الفرنجة آلت فى ذلك الوقت الى شخصية عرفت فى التاريخ باسم شرلمان العظيم. وتطلع هذا الإمبراطور الفرنجى الجديد الى

مزاحمة إمبراطور الروم فى السيادة على العالم المسيحى. ورأى شرلمان أن خير وسيلة تحقق له هذه الزعامه الروحية هو أن يظهر بمظهر حامى حمى الأماكن المسيحية المقدسة فى فلسطين، والحجاج المسيحين القاصدين إليها.

ولما كانت تلك الأماكن المقدسة المسيحية فى فلسطين تابعة للخلافة العباسية، فقد أرسل شرلمان سفارة الى هارون الرشيد تطلب منه عقد تحالف بين الدولة العباسية ودولة الفرنجة، وتسليم مفاتيح بيت المقدس للإمبراطور شرلمان. فانتهز الخليفة هارون الرشيد وصول تلك السفارة الفرنجية الى بغداد، واستقبلها بالحفاوة والترحاب، وأعد سفارة إسلامية تعود مع سفراء الفرنجة لتحقيق سياسته إزاء إمارة الأمويين بالأندلس.

ركب السفارة:

واستدعى الخليفة هارون الرشيد أحد خاصته، وعهد اليه بتولى رئاسة تلك السفارة. ثم استدنى الخليفة رئيس السفارة وقال له: «إنا أتانا من ملك الفرنجة رسول يقرئنا منه السلام ويلتمس جميل رعايتنا بمن يحج الى بيت المقدس من ملته. فرأينا أن نوجهك اليه بلطائف تروم اليه أن يتقبلها فى سبيل المودة لغاية نرغب فيها اليه من التعصب على بنى أمية الذين يمزقون الأندلس. فاذا وافقنا على ما نروم من الاستيلاء على ديارهم فهو المقصود من إنفاذك اليه فى هذه الرسالة.

واجهد فى أن تسرق قلبه بخلابة لسانك، وتقدم اليه بالوعد الجميل فى أننا نوفيه حقه يوم الفتح ونصرف له نفقة الحرب من بيت مالنا، ونجرى الأرزاق الواسعة على جنده. واستصحب معك هذا اليهودى الذى جاء به رسوله، فهو يترجم عنك اليه».

وبعد أن خرج السفير الإسلامى من دار الخلافة قصد الى دار البرامكة، وزراء الرشيد. وقابل السفير الوزير جعفر البرمكى يدرس معه تفاصيل تلك السفارة. فقال جعفر للسفير: «لقد اشرت على الخليفة بالإبقاء

على علاقات المودة مع شرلمان، وإرسال سفارة من أجل ذلك، ولم أكن أتوقع من الخليفة اتساع الأطماع، واستهداف القضاء على الإمارة الأموية بالأندلس».

ثم ذهب جعفر البرمكى الى الخليفة هارون الرشيد، وناقشة فى أغراض تلك السفارة، ليثنيه عن محاربة الأمويين. ولكن الخليفة أصر على رأيه، ولم يبق بذلك إلا إعداد السفارة.

وتولى جعفر البرمكى إعداد كتاب هارون الرشيد الى الإمبراطور شرلمان، وكذلك انتقاء الهدايا التى تساعد على جلب المودة، وكان من بين الهدايا فيل عظيم أبيض كان أحد ملوك الهند قد بعث به الى المهدى ولد الرشيد، وكذلك أقمشة فاخرة من الموشى المنسوج بالذهب، وبسط ديباج من طبرستان وعطور من اليمن والحجاز، ومسك وصندل وأعواد ند من الهند، وسرادق عظيم مجلل بأنواع الحرير وكلالبية من الذهب، ومزولة كبيرة تدل عل الأوقات، قام مهرة عمال بغداد بصناعتها.

وكان فى الهدايا أيضا شطرنج بديع الحسن قد اتخذت أدواته من العاج المنقوش، صنعه نقاش من مشاهير صناع بغداد اسمه يوسف الباهلى . وقد مثلت تلك الأدوات فيلا يلف خرطومه على فارس، وعلى رأسه جندى قد أخذ بزمامه ومن حوله ثمانية فرسان يراد بهم الرمز الى البيادق الثمانية الذين يناضلون عن الشاه.

«وقد أظهر الرسام فى تصويره من الحذق ما يستحق الثناء، لأنه مثل أصحاب الفيلة كما هم، وجعل فى آذانهم أقراطا وعلى زنودهم أساور وعلى أبدانهم القرامط وهى لباس الهنود، واتخذ عدة الخيل مزخرفة، وصنع لها السروج والأزمة والركائب، وقلد الفرسان شيءا من السلاح».

وخرجت السفارة من بغداد فى طريقها الى ميناء بيروت. وهناك انتظرت بعض الوقت حتى وصلت الهدايا ومعها الخدم. ثم أبحرت الى بلاد الغال، حيث وصلت ميناء مرسيلية بعد رحلة استغرقت عشرين يوما. وشاهدت

السفارة مظاهر الترحيب منذ وصلت الى مرسيلية. ذلك أن حاكم تلك المدينة خرج لاستقبالها فى أحسن عدة، وأبهى زينة. ولكن سرعان ما علمت السفارة أن الإمبراطور شرلمان ليس فى عاصمته، وإنما هو فى روما، يدرس مسائل خاصة مع البابا هناك.

وآثر السفير عدم البقاء طويلا فى مرسيلية، وإنما فضل الذهاب الى روما ليتم مفاوضاته مع الإمبراطور شرلمان بأسرع ما يمكن . فبعث حاكم مرسيلية رسولا مع السفارة الإسلامية حتى وصلت الى روما، ولما بلغ شرلمان خبر قدوم سفارة الرشيد، بعث بوفد من علية القوم لاستقبالها. وكان الإمبراطور مقيما فى أحد قصور روما العظيمة.

واستقبل شرلمان السفارة وأعضاءها وهو جالس على منصة مجللة بالذهب وعلى رأسه تاج مرصع باللؤلؤ والياقوت، وفى يده قضيب الملك وبين يديه حرس قد وقفوا بالسيوف المشهرة والحراب.

وأبلغ السفير المسلم رسالة هارون الرشيد الى شرلمان ، الذى تقلبها بالشكر والثناء. ثم استعرض شرلمان الهدايا التى حملتها السفاره الإسلامية، مما زاد فى ابتهاجه وسروره.

وانتهت المقابلة الرسمية وما صحبها من عبارات التحية والمودة. ثم طلب السفير المسلم بعد ذلك مقابلة شرلمان على انفراد ليحدثه فى أمر المحالفة مع الخلافة العباسية ضد إمارة بنى أمية بالأندلس. ولكن المفاوضات التى دارت بين شرلمان والسفارة الإسلامية لم تسفر عن شىء جديد، حيث أظهر شرلمان عدم استعداده لخوض حرب لا يعرف نتائجها ضد الأمويين بالأندلس.

وبذلك لم تحقق سفارة هارون الرشيد الى الإمبراطور شرلمان شيئا غير استمرار العلاقات الودية بين الخلافة العباسية ودولة الفرنجة، وهو أمر يعد وحده دليلا قاطعا على سعة النشاط الدبلوماسى الإسلامى، وأنه استهدف

أغراضا لا تختلف عن الأغراض التى نشاهدها اليوم من حيث عقد المحالفات والمعاهدات.

ثم إن تلك السفارة وجهت أنظار القوى الأخرى مثل دولة الروم الى إمارة الأمويين بالأندلس، لتحافظ على التوازن الدولى، الذى كاد أن ينقلب بسبب العلاقات الدبلوماسية بين العباسيين والفرنجة.

"ب) سفارة إمبراطور الروم إلى الأندلس

بلاط قرطبة:

كان لاتصال الفرنجة بالعباسيين فى بغداد، وتقوية اواصر المودة بينهما رد فعل عند الروم، الذين خشوا ازدياد نفوذ الفرنجة فى العالم المسيحى، واستئثارهم بمركز الزعامة من دونهم، ولا سيما بعد ان بعث الخليفة هارون الرشيد الى شرلمان إمبراطور الفرنجة بمفاتيح كنيسة القيامة ببيت المقدس. وكان من الطبعى أن يتجه الروم إلى إمارة الأمويين بالأندلس، لأنها بدورها خشيت التحالف القائم بين العباسيين والفرنجة.

وأدى اتفاق المصالح بين الروم والأمويين بالأندلس الى ازدياد النشاط الدبلوماسى الإسلامى فى غرب أوربا، حيث جاءت السفارات من القسطنطينية النائبة إلى قريطة حاضرة الأندلس. وبلغت العلاقات السياسية اوج عزها بين هاتين العاصمتين فى عهد الامبراطور قسطنطين السابع والخليفة الأموى عبد الرحمن الناصر.

وجهدت السلطات الاسلامية بالأندلس على تزيين العاصمة «قرطبة» وتجميلها، وتحسين البلاط فيها حتى تضارع بغداد عاصمة العباسيين، وتكون جديرة باستقبال سفراء الروم، فكثرت فى قرطبة الحدائق الغناء والمساجد الكبيرة والمنازل الواسعة، وكذلك الحمامات العامة التى خصصت لرفاهية السكان، وكان يتوج هذه المظاهر من العمران قصور الخلفاء وما حفلت به من البساتين والتحف والخدم والحشم، فكان قصر الزهراء فى قرطبة آية من الفن المعمارى ، وعنوانا على الرخاء الذى شاهدته بلاد الأندلس فى عهد الأمويين. وقام الى جانب هذا القصر قصر آخر هو قصر قرطبة. كان مركز المقابلات الرسمية، والمقر الرسمى للخليفة.

وشاهدت قرطبة أزهى عصورها فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر، الذى كان ملكه «فى غاية الضخامة ورفعة الشأن، وهادته الروم وازدلفت

اليه تطلب مهادنته ومتاحفته بعظيم الذخائر. ولم تبق أمة سمعت به بين ملوك الروم والافرنج والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية. من جملتهم صاحب القسطينينة العظمى، فانه هاداه ورغب فى موادعته».

سفراء الروم:

وفى صفر سنة ٣٣٨هـ/٩٤٩م وصلت سفارة الامبراطور قسطنطنين السابع الى بجاية ميناء الأندلس، وأعظم ثغورها على البحر المتوسط. وأمر الخليفة عبدالرحمن الناصر باستقبال تلك السفارة استقبالا حافلا، رغبة منه فى اظهار عظمة ملكه وأبهة سلطانه. وكان فى استقبال سفراء الروم فى الميناء احد قادة الأندلس العظام، وهو يحيى بن محمد بن الليث، الذى عهد اليه بمرافقة رجال السفارة أثناء انتقالهم من الميناء الى العاصمة.

وعندما اقترب ركب السفراء من قرطبة خرج لاستقبالهم قادة الدولة على اختلاف مراتبهم، ومعهم كامل العدة والعتاد. وكان العرض العسكرى الاسلامى رهيبا، حيث تلقى السفراء القائد السلم تلو القائد حتى تلقاهم اخيرا أعظم قائدين فى الدولة وهما ياسر وتمام، «وهما أصحاب الخلوة مع الناصر وبيدهم القصر السلطانى»

وفى قرطبة أعد للسفراء قصر خاص فى أحد الأحياء الجميلة، وأحيط بحراسة شديدة. منعت اقتراب الناس منهم سواء أكانوا من العامة أم من الخاصة. وتوفر على خدمة السفراء فى القصر ستة عشر رجلا ممن حذقوا أساليب الترحيب وفن الضيافة. وقضى السفراء نحو شهر فى ذلك القصر حتى حان موعد المقابلة الرسمية.

حفل الاستقبال:

ورغب الخليفة عبد الرحمن الناصر فى أن يكون استقبال السفراء فى قصره أعظم من استقبالهم عند وصولهم إلى الأندلس، فانتقل من قصر الزهراء

الى قصر قرطبة، وهو المقر الرسمي للمقابلات. وجلس الخليفة في قاعة الاستقبال يحف به رجال بيته وكبار موظفى الدولة وعلمائها وأدبائها، فكان على يمينه ولى عهده الحكم، يليه عبدالله أخو الحكم، وهو من عظماء الأندلس فى الفقه والشعر وعن يساره جلس ابنه المنذر ثم عبد الجبار...

ووقف وراء الخليفة وأبنائه الوزراء على اختلاف مراتبهم يمينا وشمالا، كما وقف رجال القصر من أهل الخدمة. وكان منظر القصر فى غاية الروعة بسبب البسط الكثيرة التى غطت أرض الحجرات والستائر الجميلة التى علقت على الأبواب والنوافذ ، كما تناثرت فى أرجاء القصر المظلات التى تحمى الجالسين من وهج الشمس.

وعندما دخل سفراء الروم وقفوا حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان، ثم تقدموا الى حضرة الخليفة، وسلموه كتاب الامبراطور قسطنطين، وكان يحوى تعريفا بالسفراء وبيانا بالهدية التى يحملونها. وكان الكتاب موضوعا داخل جلد رقيق مصبوغ بلون سماوى والكتابه عليه بالخط الآغريقى المذهب. وكان على الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل، على وجه الواحد منه صورة المسيح وعلى الآخر صورة قسطنطين وصورة ولده.

وبعد ان قرأ الخليفة كتاب إمبراطور الروم واستعرض الهدايا، أمر ابنه الحكم بأن يقدم الخطباء ليشيدوا بعظمة دولة المسلمين بالأندلس وبحكم الخليفة العطر الذكر. وقد استولت الرهبة على اول الخطباء وهو الفقيه محمد بن عبد البر، ولم يستطع التكلم على الإطلاق بسبب ضخامة الاحتفال وجلال الموقف. وكان هذا الفقيه «يدعى من القدرة على تأليف الكلام ما ليس فى وسع غيرة... فلما قام يحاول التكلم بما رأى هاله وبهره هول المقام وأبهة الخلافة، فلم يهتد الى لفظه، بل غشى عليه وسقط الى الأرض».

ولم ينقذ الموقف غير منذر بن سعيد أحد الفقهاء ممن حضر حفل الاستقبال. إذ نهض واقفا، وارتجل خطبة قيمة أشاد فيها بالخليفة عبد

الرحمن الناصر. وما ساد البلاد على عهده من الرخاء والطمأنينة، وأنها غدت محط أنظار الوفود والسفراء من أقاصى البلاد.

وجاء فى هذا الخطاب السياسى الرائع ما يلى: «أما بعد حمد الله والثناء عليه... فإن لكل مقام مقالا.... وأنى قد قمت فى مقام كريم، بين يدى ملك عظيم، فأصغوا الى معشر الملأ بأسماعكم.... إنى أذكركم بأيام الله عندكم ، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التى لمت شعثكم.... حتى توافرت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته ابواب الخيرات والبركات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم، وآمال الأقصين والأدنين مستخدمه اليه واليكم، يأتون من كل فج عميق، وبلد سحيق، لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفضيلا، ليقضى الله أمرا كان مفعولا، ولن يخلف الله وعده».

وانتهى بذلك هذا الحفل الرائع الذى بلغ من الرهبة حدا عجزت معه ألسنة فصحاء الخطباء عن القول، وعاد السفراء، الى القسطنطينية يشيدون بعظمة دولة المسلمين فى الأندلس، وما وصلت إليه من قوة وجلال.

"ج" سفارة يحيى بن حكم الغزال إلى الجزر البريطانية

غارات النورمان على الأندلس:

لم تقتصر علاقات المسلمين السياسية بغرب أوربا على بلاد الغال «أرض فرنسا» فحسب، وانما امتد النشاط الدبلوماسى الاسلامى كذلك فى تلك الفترة المبكرة من العصور الوسطى الى الجزر البريطانية، التى كانت تتجمع فيها اذ ذاك العناصر التى دفعت بها الى المسرح القوى الكبرى . وكان السبب فى ميلاد تلك القوة الجديدة هو التطورات الاقتصادية التى طرأت على شمال أوربا، حيث سادها الجدب والفقر، واندفع سكانها على جيرانهم جنوبا يبحثون عندهم عن لقمة العيش وتلمس اسباب الحياة.

وعرف هؤلاء الناس الذين اندفعوا من شمال اوربا عند جيرانهم باسم الشماليين أو النورمان، وهى تسمية جعرافية محضة بسبب انطلاق جحافلهم من الجهات الشمالية. وجرت هجمات الشماليين أو النورمان أول الأمر على غير هدى، اذ استهدفت جماعتها القيام بإغارات سريعة ، يستولون فيها على كل ما تقع عليه أيديهم من مأكل وغيره، ثم العودة الى بلادهم.

وأحدثت تلك الهجمات المفاجئة الذعر فى النفوس، ولاسيما أن شدة الجوع دفعت النورمان إلى القسوة والتخريب. فهرب كثير من سكان بلاد غرب أوربا إلى داخل المدن. مبتعدين عن الشواطىء ولكن جماعات النورمان لم تلبث ان عدلت نظام إغاراتها. إذ عمدت الى اتخاذ بعض الجزر الصغيرة الواقعة قرب مصاب أنهار غرب أوربا مقرأ لها. تغير منها على الأراضى المجاورة ثم تعود إلى تلك الجزر بدلا من الذهاب الى اوطانهم فى شمال أوربا.

وادى هذا التطور الجديد فى أغارات النورمان الى استيلائهم على الجزر البريطانية وغيرها من الجزر المبعثرة على امتداد ساحل أوربا الغربى. وكانت نتيجة هذه الظاهرة كذلك هو ابتعاد النورمان عن التخريب فى إغاراتهم،

ومحاولتهم اقتحام المدن. وسلب ما بها من كنوز نفيسة وتحف تساعدهم على الحياة والعيش فى رغد. ومن ثم لم تعد إغارات النورمان تقتصر على المدن الساحلية الخاوية، وإنما امتدت الى المدن الداخلية القاصية، مثل باريس وغيرها من جهات غرب أوربا.

وفى هذا الدور الجديد من نشاط النورمان، وصلت إغاراتهم الى بلاد الأندلس الخاضعة اذ ذاك لحكم الأمويين، الذين سبق أن فروا من مذابح العباسيين فى الشام . ولم تلبث بلاد الأندلس ان صارت خاصة هدفا ثمينا لإغارات النورمان بسبب ازدهارها تحت الحكم الأموى، وثراء مدنها وكثرة القصور ومظاهر العمران فيها.

وساعد النورمان على الهجوم على بلاد الأندلس كثرة الأنهار فيها مما حملهم على التوغل فى الداخل عن طريقها جريا على عاداتهم فى الإغارات . فكان فى مدخل الوادى الكبير الذى تقع عليه قرطبة جزيرتان صغيرتان، اتخذهما النورمان مقرا لهما فى الهجوم على المدن الواقعة على ضفتى هذا النهر. وكان أول هجوم النورمان على الأندلس سنة ٨٤٤م/٢٣٠هـ، واتخذ طابعاً مفاجئا جعل المسلمين لا يعرفون عنهم شيئا، أو عن مقرهم الأصلى.

وأطلق المسلمون على النورمان منذئذ اسم المجوس . وهى تسمية تطلق على من يعبد النارفى نظر المسلمين، وذلك لأن النورمان كانوا إذ ذاك وثنيين لم يعتنقوا المسيحية بعد، ويشعلون النار فى كل مكان ينزلون به. وكانت سفن النورمان خفيفة، لها أشرعة سود لتساعدهم على التقدم فى البحر الى داخل الأنهار.

واستهل النورمان إغاراتهم على مدن نهر الوادى الكبير بعد استيلائهم على الجزيرتين الواقعتين عند المصب. ويبدو أن أشبيلية وقادش وقرطبة كانت أهداف النورمان بسبب ما اشتهرت به تلك المدن من غنى وثراء. واتجهت شعبة من جماعات النورمان الى أشبيلية، حيث اخترقت المدينة،

وانتشرت سفنهم بأشرعتها السود فى مجرى النهر.

وحاول أهل أشبيلية تنظيم مقاومة، فأرسلوا بضع مراكب لتلقى سفن النورمان وتوقف تقدمها. فاستقبل النورمان سفن المسلمين بوابل من الأسهم النارية، أشعلت النار فى أشرعة سفن المسلمين، وحملتهم على الهرب من المدينة. وعلى أثر ذلك أنتشر النورمان فى ضواحى أشبيلية ونهبوها، وحملوا معهم كثيرا من الغنائم والأسرى، ووضعوها فى السفن فى انتظار عودة باقى المغيرين.

وكانت شعبتان من جماعات النورمان قد تركتا أشبيلية لمهاجمة قادش وقرطبة. بينما أخذت جماعات النورمان تخرب قادش على نحو ما فعلت بأشبيلية، عجزت الشعبة الثالثة عن مهاجمة قرطبة وهى العاصمة بسبب شدة التيار فى النهر. ويبدو ان هدف الشعبة الثالثة كان صرف أنظار المسلمين عن اعمال الجماعات النورمانية فى أشبيلية وقادش، وذلك بالتظاهر بمهاجمة قرطبة العاصمة، وحمل المسلمين على تجميع قواتهم للدفاع عن العاصمة.

ولكن بينما يجمع النورمان غنائمهم، ويحملونها على ظهور سفنهم، كانت السلطات الاسلامية فى قرطبة قد جمعت قواتها على عجل، وبعثت بها لمهاجمة النورمان. ورأى قادة المسلمين ان خير وسيلة لمقاومة النورمان وأفساد إغارتهم السالفة الذكر هو وضع المجانيق على ضفتى النهر، لترجم سفن النورمان بالحجارة وهى فى طريقها إلى العودة، محملة بالغنائم.

ونجحت خطة القوات الاسلامية، حيث حطمت ثلاثين مركبا من سفن النورمان أثناء عودتها من أشبيلية، على حين اضطر بعضهم الى الهرب من السفن والنزول الى الشاطىء، حيث لقى مصرعه على أيدى المسلمين. وعلى أثر هذه الهزيمة شدد المسلمون هجومهم، حتى طلب النورمان وقف القتال قائلين للمسلمين: «إن أحببتم الفداء فكفوا عنا» وقبل المسلمون هذا النداء وجرى بين الفريقين تبادل الأسرى. ولما كان فى يد النورمان كثير من أسرى

المسلمين فقد أخذوا مقابل الفداء «الثياب والمأكول، ولم يأخذوا فى فدائهم ذهبا ولا فضة».

واستغرقت تلك الإغارة النورمانية المفاجئة شهرين، وكادت تزعزع أركان المسلمين فى الأندلس، على نحو ما فعلت جماعات النورمان الأخرى فى هجومها على بلاد الغال «فرنسا» والجزر البريطانية. غير أن السطات الاسلامية بالأندلس اثبتت انها تمثل دولة إسلامية قوية الأوتاد، لها نظمها واستعدادها الحربى المتين. فلم يستطع النورمان تحقيق اى نصر منذ غارتهم الأولى على بلاد الأندلس، واضطروا الى احترام قوة المسلمين فى هذا الشطر الغربى من أرض أوربا.

على أن الأمر الهام الذى تمخضت عنه تلك الإغارة هو ازدياد نشاط الدبلوماسية الاسلامية، وامتدادها الى الجزر البريطانية التى صارت مركز النورمان الذين قاموا بتلك الإغارة المفاجئة على بلاد الأندلس. إذ تطلع المسلمون الى معرفة طبيعة تلك الجماعات الجديدة التى غدت تكون خطرا على أراضيهم، واستطاعت السلطات الأندلسية بفضل وسائلها الدبلوماسية معرفة الشىء الكثير عن موطن النورمان وفهم طبيعة حركاتهم الحربية.

سفارة الغزال:

أدرك ملك النورمان بعد تلك الاغاره انه قد اصطدم بقوة جديدة تختلف عن سائر قوى غرب أوربا، وأن المسلمين لابد انهم سينتقمون لما أصابهم انتقاما شديدا. وكان ملك النورمان اسمه تورجايوس، ويقيم شمال إيرلندا. التى غدت إذ ذاك مقر النورمان الذين سيطروا على سائر الجزر البريطانية، التى انطلقت منها أولى إغارتهم على المسلمين بالأندلس. ولذا أرسل تورجايوس سرا إلى أمير الأندلس عبدالرحمن الأوسط عقب إخفاق إغارة النورمان على أشبيلية يطلب الصلح والمهادنه.

ورحب الأمير عبدالرحمن برسل ملك النورمان، لأن الأندلس لقى من

غاراتهم بلاء شديدا. ورأى فى اتصالهم به سبيلا لمعرفة امورهم وفهما لمدى قوتهم. ثم إن الأمير عبدالرحمن رغب فى مصادقة تلك القوة الجديدة ليستعين بها ضد دولة انفرنجة ببلاد الغال«فرنسا». وهى القوة التى اتصلت بها الخلافة العباسية المناهضة للإمويين بالأندلس. ومما شجع الأمير عبدالرحمن على المبادرة بالاتصال بملك النورمان محاولة الفرنجة إثارة الفتن فى إسبانيا وخلق المتاعب للمسلمين هناك، إذ وجد الأمير عبدالرحمن فى قوة النورمان وهجومهم على بلاد الغال موطن الفرنجة سبيلا لصرف الخطر الجديد عن بلاده.

وأعد الأمير عبدالرحمن سفارة تعود مع سفارة النورمان لعقد الصلح وإنهاء الحرب بين الفريقين. وانتدب لسفارته رجلا ذكيا حاضر البديهة لطيف المدخل، قد توافرت له الكثير من صفات السفراء التى حرصت عليها قواعد اللياقة الإسلامية. وكان هذا السفير هو يحيى الغزال الذى اشتهر بأنه «حكيم الأندلس وشاعرها».

وكان الغزال ذا نسب رفيع «يرتفع الى بنى بكر بن وائل، أى أنه كان من ابناء البيوت العربية الأصيلة» وكانت الدولة الإسلامية تهتم اهتماما كبيرا بان يكون سفرواها من اصحاب الأصل العريق ليكسبوا سفاراتهم المهابة والجلال. وفضلا عن ذلك اتصف الغزال بأنه ذو جمال ظاهر. حتى ان الناس لقبوه بالغزال. فكان الى جمال وجهه رجلا طويلا عريضا ظاهر الصحه، كثير النشاط.

واشتهر الغزال إلى جانب الصفات السالفه بأنه شاعر قدير، خفيف الروح، جرت أشعاره على ألسنة معاصرية، وبلغت مقدرة الغزال فى الشعر أنه ألف تاريخا لأمراء الأندلس الى عهده شعرا، وبذلك كان الغزال يتمتع بالعلم الواسع والقدرة على قرض الشعر، وذلك فضلا عن مواهبة الخلقيه. إذ اشتهر بالنزاهة فى سائر الوظائف التى تقلدها. وغدا يحمل من الصفات ما يجعله خير مرشح للسفارة إلى الملوك.

وفى أواخر صيف ٨٤٥م/ أوائل سنة ٢٣١هـ كان الأمير عبد الرحمن قد أعد مركبا حسن المنظر، كامل العدة، حمله بالهدايا الطيبة لملك النورمان. وأخذ الغزال خطابا من الأمير عبد الرحمن به تعريف بشخصيته، وذكر لأغراض سفارته، ثم اصطحب معه مساعدا له يسمى يحيى بن حبيب، وركب فى سفينته التى أبحرت مع رسل النورمان فى سفينتهم قاصدين مقر ملك النورمان فى إيرلندا.

وبعد أن غادر الغزال أرض أسبانيا ودخل بحر المانش هاج ذلك البحر وتلاطمت أمواجه. ذلك أن تلك الفترة كانت فى شهر سبتمبر، وهو شهر تتعالى فيه أمواجه وتكثر أخطاره. وقاسى الغزال كثيراً من دوار البحر، واستولى الفزع على صحبه بسبب اشتداد العواصف. وسجل الغزال عبور المانش قائلا:

قال لى يحيى وصرنا — بين موج كالجبال
وتولتنا رياح — من دبور وشمال
شقت القلعين وانب — تت عرى تلك الحبال
وتمطى ملك المو — ت إلينا عن حيال
فرأينا الموت رأى ال — عين حالا بعد حال
لم يكن للتوم فينا — يا رفيقى رأس مال

وبعد تلك الرحلة البحرية الشاقة وصلت سفينة الغزال وسفينة النورمان الى احدى الجزر الصغيرة القريبة من إيرلندا. فأقاموا فيها أياما، وأصلحوا مراكبهم وأجموا أنفسهم. ثم تقدمت سفينة النورمان الى مقر الملك لتخبره بوصول سفارة المسلمين. وقد سر الملك سرورا عظيما بمقدم تلك السفارة وأذن للسفينة التى تنقل الغزال بأن تلقى مرساها فى جزيرته.

ووصف الغزال تلك الجزيرة بأنها «عظمة فى البحر المحيط، فيها مياه مطرده وجنات، وبينها وبين البر ثلاثة مجار، وهى ثلثمائة ميل، وفيها من المجوس ما لايحصى عددهم، وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة منها

صغار وكبار. وأهلها كلهم مجوس، وما يليهم من البر أيضا لهم مسيرة أيام، وأهلها مجوس، وهم اليوم على دين النصرانية، وقد تركوا عبادة النار، ودينهم الذي كانوا عليه، ورجعوا نصارى إلا أهل جزائر متقطعة لهم فى البحر، هم على دينهم الأول من عبادة النار، ونكاح الأخت والأم وغير ذلك من الشنار، وهؤلاء يقاتلونهم ويسبونهم»

وهذا الوصف الصادق عن حياة النورمان قد أكدته الدراسات التاريخية عن حياتهم . ذلك ان الفترة التى زار فيها الغزال إيرلندا كانت فترة انتشار المسيحية بين النورمان، ومحاولة أولئك الذين اعتنقوا المسيحية هداية إخوانهم الذين ظلوا على عبادتهم الوثنية الأولى.

وما كادت سفينة الغزال تلقى مرساها حتى أخرج ملك النورمان إليهم من يلقاهم بالترحاب. وقد استبدت الرهبة بالنورمان من عظمة السفارة الاسلامية وأعجبوا إعجابا شديدا بالزى العربى وفخامته. ثم نزلت السفارة فى احدى دور الضيافة. وأحاطتهم السلطات النورمانية بكل تكريم وحفاوة.

دبلوماسية الغزال:

وبعد يومين من وصول السفارة الإسلامية استدعى ملك النورمان الغزال لمقابلته رسميا. فأشترط الغزال أولا ألا يطلب منهم الملك شينا يخرجهم عن تقاليدهم العربية أو يتنافى مع تعاليم دينهم، كألا يسجد الغزال للملك. فأجاب ملك النورمان الغزال وصحبه الى ما طلبوه وجلس فى قاعة الاستقبال فى أبهى زينته.

ولكن أساليب السياسة التى اشتهر بها البريطانيون فيما بعد قد أخذت تكشف عن نفسها فى تلك الفترة المبكرة من تاريخهم السياسى. ذلك أن ملك النورمان أراد أن يحتال على السفير الإسلامى ويحمله على السجود له دون أن يشعر بالخدعة المبيته. فأمر الملك «بالمدخل الذى يفضى إليه فنيق، حتى لا يدخل عليه أحد إلا راكعا».

غير أن السفير الإسلامى أدرك فى سرعة خاطفة وفى لباقة تلك الحيلة. فلما وصل إلى باب قاعة الاستقبال جلس إلى الأرض، وقدم رجلية وزحف على إليته زحفا، فلما جاز الباب استوى واقفا، والملك قد أعد له واحتفل فى السلاح والزينة الكاملة. فما هالة ذلك ولا ذعره بل قام ماثلا بين يدية فقال: «السلام عليك أيها الملك وعلى من ضمه مشهدك والتحية الكريمة لك، ولا زلت تمتع بالعز والبقاء والكرامة، المفضية بك الى شرف الدنيا والآخرة المتصلة بالدوام فى جوار الحى القيوم».

ولما فسر الترجمان للملك ما قاله الغزال، أعجب بالكلام وقال: «هذا حكيم من حكماء القوم وداهية من دهائهم، لقد أردنا أن نذله فقابل وجوهنا بنعليه، ولولا أنه رسول لأنكرنا ذلك عليه» ثم قدم الغزال الى ملك النورمان كتاب الأمير عبدالرحمن أو أوراق الاعتماد.

ولما قرأ المترجم كتاب الأمير عبدالرحمن استحسنه الملك وأخذه فى يده ورفعه ثم وضعه فى حجرة، وأمر بالهدية ففتحت، ووقف على جميع ما اشتملت عليه من الثياب والأوانى. وأعجب الملك بتلك الهدية. وأظهر استحسانه بها. وعندما انتهت المقابلة الرسمية انصرفت السفارة الإسلامية الى دار الضيافة مرة أخرى.

وفى أثناء المفاوضات التى دارت بين الغزال والسلطات النورمانية أظهر السفير المسلم من اللباقة والحجة وسعة العلم ما أثار إعجاب النورمان. ثم إنه ناقش علماءهم وغلبهم ونازل شجاعانهم وهزمهم. وأثبت الغزال أنه يجيد كثيرا من فنون الرياضة التى تجعلة شخصية اجتماعية من الطراز الأول.

مقابلة الملكة:

ولما سمعت زوجة الملك بذكر الغزال وما اشتهر به من خصال بعثت تطلب حضوره إليها. وبرهن الغزال فى تلك المناسبة أنه يجيد أساليب الدبلوماسية التى لا تخفى على السفراء فى الوقت الحاضر، وهو ضرورة

التقرب من الشخصيات الكبيرة فى الدولة، ولا سيما عظيمات النساء فيها لتسهيل مهمامهم السياسية.

ولما دخل الغزال على مجلس الملكة سلم عليها ثم شخص فيها طويلا، ينظرها نظرة المتعجب، مما أدى الى ذلك الحوار بينهما:

قالت الملكة لترجمانها: «سل السفير عن إدمان نظره، لماذا هو : ألفرط استحسان أم لضد ذلك؟»

فقال الغزال :«ما هو إلا أنى لم أتوهم أن فى العالم منظرا مثل هذا. وقد رأيت عند ملكنا نساء انتخبن له من جميع الأمم، فلم أر فيهن حسنا يشبه هذا».

فقالت الملكة لترجمانها :«سله، أمجد هو أم هازل؟»

فقال الغزال :«لا، بل مجد!»

فقالت الملكة: «فليس فى بلدهم جمال»؟!

فقال الغزال: «فاعرضوا على من نسائكم حتى أقيسها بها».

فوجهت الملكة فى نساء معلومات بالجمال، فحضرن، فنظر إليهن الغزال طويلا ثم قال: «فيهن جمال، وليس كجمال الملكة، لأن الحسن الذى لها الصفات المناسبه، ليس يميزها كل واحد، وانما يعنى به الشعراء. وإن أحبت الملكة أن أصف حسنها وحسبها وعقلها فى شعر يروى فى جميع بلادنا فعلت»

وقد سرت الملكة سرورا عظيما بلباقة الغزال وحسن حديثه، وأخذها الزهو بما سمعت منه، ثم أمرت له بهدية. فامتنع الغزال عن أخذها وقال: «لا أفعل» فقالت الملكة للترجمان: «سله، لم لا يقبل صلتى؟ ألأنه حقرنى؟»

فقال الغزال : «إن صلة الملكة لجزيلة، وان الأخذ منها لتشرف، لأنها بنت ملك، ولكن كفانى من الصلة نظرى اليها وإقبالها على، فحسبى بذلك صلة. وإنما أريد أن تصلنى بالوصول اليها أبدا». وأثبت الغزال بذلك لباقة تامة، لأنه يريدأن يكون على صلة دائمة بالملكة ليعرف الكثير والمزيد عن

أحوال النورمان . وقد نجح فى ذلك لأن الترجمان حين فسر للملكة قول الغزال سرت سرورا عظيما، وقالت: «تحمل صلته اليه، ومتى أحب أن يأتينى زائرا فلا يحجب، وله عندى من الكرامة والرحب والسعة».

«وأولعت زوجة ملك المجوس «النورمان» بالغزال، فكانت لا تصبر عنه يوما حتى توجه إليه فيه، ويقيم عندها يحدثها بسير الإسلام وأخبارهم وبلادهم، وبمن يجاورهم من الأمم. فقلما انصرف يوما قط من عندها إلا أتبعه هدية تلطفه بها، من ثياب أو طعام أو طيب، حتى شاع خبرها معه، وأنكره أصحاب الغزال وحذروه من هذه المقابلات».

واتعظ الغزال بقول صاحبه، وامتنع عن زيارة الملكة، فأرسلت تطلبه، وسألته عن سبب غيابه، فقال لها ما حذر منه، فضحكت الملكة وقالت له: «ليس فى ديننا نحن هذا ، ولا عندنا غيرة، ولا نساؤنا مع رجالنا إلا باختيارهن، تقيم المرأة معه ما أحبت، وتفارقه إذا كرهت. وأما عادتنا قبل ان تصل المسيحية، فهى إلا يمتنع أحد من النساء على أحد من الرجال، إلا أن يصحب الشريفة الوضيع فتعير بذلك، ويحجره عليها أهلها».

ولما سمع الغزال ذلك من الملكة زالت عنه هواجسه ومخاوفه، وتابع زياراته لها، لأن ذلك لايحمل خروجا على تقاليد النورمان. وتعتبر سفارة الغزال بذلك مصدرا هاما عن حياة النورمان الاجتماعية، ولا سيما أن الأبحاث الحديثة أثبتت صدق مشاهداته فى بلاط النورمان.

وفى إحدى زيارات الغزال للملكة سألته عن سنه، وكان اذ ذاك قد جاوز الخمسين من عمره، وبرغم ظهور المشيب فى شعره رأسه إلا أنه كان حسن الصوره، جميل المنظر. وكان الغزال قد تبسط إذ ذاك مع الملكة وعرف اسمها وهو «نود» فقال الغزال مداعبا«سنى عشرون سنة» فقالت الملكة للترجمان :«ومن ابن عشرين سنة يكون به هذا الشيب؟»

فقال الغزال للترجمان :«وما تنكر الملكة من هذا ؟ألم ترقط مهرا ينتج وهو أشهب؟» فضحكت الملكة نود، وأعجبت من قول الغزال، الذى سجل

دعاباته شعراً، قائلا:

قالت:أرى فوديه قد نورا ... دعابة توجب أن أدعبا
قلت لها : يا بأبى إنه ... قد يتنتج المهر كذا أشهباً
فاستضحكت عجبا بقولى لها ... وإنما قلت لكى تعجبا

ولم تقف دعابات الغزال مع الملكة عند هذا الحد، وإنما طلبت منه أن يصبغ شعره، مستخدما الخضاب. ففعل الغزال ذلك وغدا عليها يوما ثانيا وقد اختضب، فمدحت خضابه، وأظهرت استحسانها له. وقال الغزال فى ذلك:

بكرت تحسن لى سواد خضابى ... فكأن ذاك أعاذنى لشبابى
ما الشيب عندى والخضاب لواصف ... إلا كشمس جللت بضباب
تخفى قليلا ثم يقشعها الصبا ... فيصير ما سترت به لذهاب
لاتنكرى وضح المشيب فانما ... هو زهرة الأفهام والألباب
فلدى ما تهوين من شأن الصبا ... وطلاوة الأخلاق والآداب

واستغرقت سفارة الغزال شهرين عاد بعدها الى قرطبة، حيث عرض على الأمير عبد الرحمن ما وصل اليه من نتائج. وتعتبر تلك السفارة ذات أهمية عظمى فى ميدان الدبلوماسية الإسلامية. إذ استطاع الغزال أثناء إقامته فى بلاد النورمان، واتصاله بأهلها نساء ورجالا لأن يعرف طبيعة حياة أولئك الناس، ولون معيشتهم. وترتب على التقرير الذى قدمه الغزال نشأة البحرية الأندلسية فى بحر الشمال إذ ادركت السلطات الأندلسية بعد دراسة تقرير الغزال ضرورة مواجهة سفن النورمان فى عرض البحر قبل الهجوم المفاجىء على أرض الندلس وافساد إغارتهم المحربة.

وعاش المسلمون بعد ذلك سواء فى الغرب أو الشرق عيشة كريمة، يهابهم جيرانهم من قوى أوربا بسبب نشاط الدبلوماسية الإسلامية، وما حفلت به من طبقة ممتازة من السفراء العظام، الذين يقفون على قدم المساواة مع كبار رجال السلك السياسى من أهل البلاد الحديثة، التى تتبوأ مركز الصدارة فى ميدان الدبلوماسية فى الوقت الحاضر.

السياسة الدينية

من الأمور التى اضطلعت بها بعض السفارات التى تبادلتها الدولتان الإسلامية والبيزنطية حمل السلطات الحاكمة فى الدولتين على إعادة النظر فى بعض قرارات تفرض على اتباع دين من الأديان من رعاياها اتخاذ سمة خاصة بهم. على أن هذه المعاملة الدينية التى لجأت إليها الدولتان أحياناً لم تقم على نوع من التعصب الدينى بين المسلمين والمسيحيين، إنما استهدفت كل دولة من وراء هذه القوانين الدينية التى فرضتها خدمة مصالحها السياسية والحصول على امتيازات أدبية. فالمعروف أن أولى الأمر فى الدولة الإسلامية عاملوا رعاياهم من غير المسلمين على هدى تعاليم الدين الإسلامى السامية التى تنص على أن لا إكراه فى الدين. وتجلت روح التسامح الدينى فى الدولة الإسلامية فى المعاملة الحسنة التى تمتع بها المسيحيون بصفة خاصة، وما وصل إليه كثير منهم من مراقب عالية فى الإدارة الإسلامية.

كذلك عاملت الدولة البيزنطية المسلمين الذين وفدوا إليها معاملة ممتازة تكشف عما كانت تكنة للدولة الإسلامية وجالياتها من احترام وتقدير. وهذه السياسة فريدة فى تاريخ الدولة البيزنطية الدينى، إذ عاملت الدولة البيزنطية من قبل رعاياها من أصحاب المذاهب الدينية المخالفة لمذهب الدولة الرسمى على أنهم «هراطقه» خارجون على قوانين الدولة ويستحقون أشد أنواع التكيل والتعذيب.

غير أن السياسة البيزنطية الدينية اتخذت لوناً آخر بظهور دولة الإسلام ودخول كثير من المسيحيين فى التبعية لها. فاعتبرت الإمبراطورية البيزنطية نفسها القوة المسيحية الكبرى التى وكل إليها رعاية المسيحيين فى بلاد المسلمين والدفاع عن مصالحهم. ويبدو أن أولئك الرعايا المسيحيين نسوا ما لاقوه من تعسف الدولة البيزنطية واضطهادها من جراء الخلاف المذهبى الذى ساد بينهم قبل ظهور الإسلام. إذ اعتبر المسيحيون بطريق القسطنطينية الملاذ الذى يتوجهون إليه إذا ما مسهم ضر أو إجحاف. على أن الدولة

الإسلامية لم تلجأ إلى العنف فى معاملتها المسيحيين إلا فى حالات خاصة نادرة تجلى فيها ميلهم إلى تأييد حركات الدولة البيزنطية الحربية فى ارض المسلمين. ويلاحظ أن عناصر مسيحية أجنبية عن رعايا الدولة الإسلامية المسيحيين هم الذين تسببوا فى كثير من الأحيان فيما نزل باخوانهم فى الدين من تدابير عقابية. ومهما يكن من أمر ذلك فإن اشباه هذه القوانين كانت طارئة عارضة. ولم يستمر العمل بها إلا فترة قصيرة. واستعراض بعض هذه الأمثلة النادرة من المعاملة يوضح الملاحظات السابقة ويبين مدى ما كانت تهدف إليه من النواحى السياسية البعيدة عن التعصب الدينى.

فكان المسيحيون طوال العصر الأموى موضع عطف الخلفاء ورعايتهم، إذ تزوج معاوية من مسيحية على المذهب اليعقوبى، تسمى ميسون، وهى أم يزيد خليفة معاوية. وكان الأحطل شاعر البلاط يدخل على معاوية وينشده القصائد والصليب يتدلى من عنقه. وكان القديس حنا الدمشقى نديماً ليزيد بن معاوية، قبل أن ينصرف فى عهده الخليفة هشام (٧٢٤-٧٣٤م) إلى حياة الزهد والتنسك. ويعطينا القديس حنا مثالا على أن الدولة الإسلامية فى النواحى الدينية رمت إلى مضايقة الدولة البيزنطية وتوسيع هوة الخلاف بين رعاياها. فعندما اشتدت السلطات البيزنطية فى القرن الثامن الميلادى فى معاملة أتباع الصور المقدسة والايقونات نجد القديس حنا الدمشقى يعارض هذه السياسة البيزنطية. فكتب فى ظل الخلافة الإسلامية ثلاث مقالات تعد من أروع ما كتب دفاعاً عن الصور المقدسة وإجازة تقديسها، حتى أن المجمع اللاإيقونى فى سنة ٧٥٤م اتهم حنا بأنه يميل إلى الإسلام. ومما يدعم الحقيقة السالفة أن الدولة الإسلامية سمحت لحنا الدمشقى بالدفاع عن الإيقونات فى فترة كانت هى نفسها تناهض حركة تقديس الايقونات فى كنائس رعاياها المسيحيين. ففى سنة ٧٢٣م/١٠٤هـ أى قبل تطبيق الدولة البيزنطية لسياستها اللاإيقونية بثلاث سنوات، أمر الخليفة يزيد بن عبدالملك بتحطيم الصلبان فى كل مكان(١)، ومحو الصور والتماثيل من الكنائس فى جميع بلاد الدولة

---

(1) Byzantium, 316.

الإسلامية. وبذلك لم تحجم الدولة الإسلامية عن تأييد أى حركة دينية فيها إزهاق للبيزنطيين ولو كانت مما لا تؤمن بها هى نفسها.

وفى عهد الخليفة الأموى عمر بن عبدالعزيز صدر قرار يحتم على المسيحيين اتخاذ سمة خاصة بهم، فيها شيء من الاذلال. فحظر عليهم لبس العمائم وطلب منهم أن يجزوا نواصيهم، وأن يتخذوا ملابس خاصة تميزهم وأن يعقدوا الزنانير (أى الأحزمة الجلدية) على أوساطهم، وألا يتخذوا السروج لدوابهم(١). ولا يعرف السبب الحقيقى الذى حمل هذا الخليفة التقى على اتخاذ مثل هذه التدابير، ولكن من المحتمل أن عمر اضطر إلى ذلك العمل إزاء فشل المسلمين فى حصارهم المشهور للقسطنطينية (٨١٧/٨١٨م). فربما أبدى المسيحيون نوعاً من الشماتة أو الابتهاج حملت السياسة الإسلامية على انتهاج هذه المعاملة، ولكن مما يدل على أن هذه الإجراءات اتخذت لأسباب طارئة أنها لم تدم طويلا، إذ أباح العمال المسلمون للمسيحيين فى الولايات الإسلامية العودة إلى حالتهم الأولى.

على أن هذه المعاملة العارضة لم تؤثر فى العلاقات العامة للدولتين، إذ ليس أدل على إحترام كل من الدولتين لديانة الأخرى من العناية التى وجهتها كل دولة إلى ما لزميلتها من بيوت دينية بأراضيها. فسمحت الدولة البيزنطية بإقامة مسجد فى القسطنطينية يقيم فيه المسلمون شعائر دينهم. وترجع الأخبار الأولى لهذا المسجد أيام حصار القسطنطينية (٧١٧-٨١٨م) على عهد الإمبراطور ليو الايسورى. فيحتمل أن الدولة البيزنطية أنشأت هذا المسجد فى الفترة المبكرة من علاقتها مع المسلمين ليؤدى فيه الأسرى وغيرهم من الشخصيات الإسلامية الكبرى شعائر دينهم. ذلك أن مسلمة بن عبدالملك اشترط على الإمبراطور إقامة دار خاصة بالقرب من البلاط، ينزل بها كبار رجال الأسرى من المسلمين. والمعروف كذلك أن الدولة البيزنطية لم تكره الأسرى

---

(١) ابن الأثير، نفس المرجع، ج٥، ص٢٥.

Hitti, op. cit, 234.

على تناول لحم الخنزير أو تجبرهم على أمر يخالف السنن الإسلامية. على أن أهمية هذا المسجد واستخدام الدولة البيزنطية له فى خدمة أغراضها السياسية لم تظهر إلا زمن العباسيين والفاطميين.

ومما يجدر بالذكر فى هذا الصدد أن الخلفاء الأمويين استعانوا بالعمال البيزنطيين فى تشييد مساجدهم وتزيينها. فمن ذلك ما فعله الخليفة الأموى الوليد بن عبدالملك الذى طلب من الامبراطور البيزنطى أن يرسل بعض الصناع لزخرفة جوامع دمشق والمدينة وبيت المقدس بالفسيفساء(١). وأن الإمبراطور أجابه إلى طلبه. وهكذا كانت روائع الفن الإسلامى التى تجلت أول الأمر فى المساجد من وحى البيزنطيين أو جاءت متأثرة بالطراز البيزنطى الفنى، وبالتالى تحمل هذه الظاهرة أبلغ المعانى على اتساع أفق المسلمين والبيزنطيين. فلم يتردد الأولون فى إكمال بيوت عبادتهم بأيدى البيزنطيين كما أن الآخرين كذلك لم يجمحوا عن المساهمة فى إظهار عظمة بيوت الله لدى المسلمين.

ويمدنا العصر العباسى الأول بأوضح مثال على أن استخدام الدولة الإسلامية لسياستها الدينية إزاء المسيحيين من رعاياها هدف إلى النيل من الدولة البيزنطية. ففى عهد الخليفة هارون الرشيد منحت الخلافة العباسية شرلمان إمبراطور الدولة الرومانية فى غرب أوربا(٢). مفاتيح بيت المقدس وحق رعاية شئون المسيحيين بالدولة الإسلامية. وتعزى هذه الصداقة بينهما

---

(١) زكى محمد حسن، فنون الإسلام، ص ٦٤٣.
الفسيفساء كلمة مشتقة من اللغة اليونانية، ويقصد بها أنواع الزخارف التى تتكون من جمع أجزاء صغيرة متعددة الألوان من الزجاج أو الحجر وتثبيتها بعضها إلى جانب بعض فوق الجص أو الأسمنت.

(٢) فى سنة ٨٠٠م توج شرلمان أحد ملوك الدولة الكارولنجية بفرنسا إمبراطورا على يد البابا فى روما، واعتبرت هذه الحادثة أحياء للدولة الرومانية، فى غرب أوربا، وهى الإمبراطورية التى زالت زوالا ماديا من هناك سنة ٤٧٦. ولكن يلاحظ أن هذا الإحياء كان نسماً لا فعلا، دفعت إليه ظروف خاصة، أهمها اعتبار شرلمان أقوى شخصية فى أوربا من دون الإمبراطور البيزنطى كنيلة برعاية شئون غرب أوربا، ومصالح البابوية كذلك خاصة. انظر: Barraclough, The Mediaeval Empire, 8,9.

إلى الأحوال السياسية التى سادت العالم حينذاك. فقد انقسم الميدان السياسى فى العصور الوسطى فى القرن التاسع الميلادى إلى معسكرين لكل منهما حلفاؤه وأشياعه: الخلافة العباسية فى الشرق الميلادى تناهض البيزنطيين على حين وقفت الخلافة الأموية بالأندلس تعادى إمبراطورية شرلمان التى ظهرت فى غرب أوربا. وهكذا دفعت المصالح كل فريق من هذه القوى الكبرى إلى أن يتقرب إلى الفريق الذى يحقق مصالحه ويقلق راحه أعدائه. وكانت القسمة طبيعية أملتها الملابسات والأوضاع الزمنية: فالخلافة العباسية ناهضت الأمويين فى الأندلس والدولة البيزنطية، مما حمل الأخيرين إلى التآزر فيما يحقق رغباتهما، ومن ناحية أخرى وقفت الخلافة الأموية بالأندلس بدورها عدواً مبيناً للخلافة العباسية وإمبراطورية شرلمان، مما حمل الأخيرين أن يعقدا بينهما أواصر الصداقة والتحالف. وفعلا تبادل الخليفة هارون الرشيد هو والإمبراطور شرلمان، فيما بين سنتى ٧٩٧، ٨٠٦م السفراء والهدايا. فبعث الرشيد مع سفارته بعض المنسوجات والروائح العطرية، وقيل ساعة مائية، وأهم من ذلك إرسال مفاتيح كنيسة بيت المقدس إلى شرلمان، الذى أصبح راعى المسيحيين والحجاج الذين يفدون إلى فلسطين لأداء مناسك الحج.

وإذا كانت الدولة البيزنطية أجابت على هذا التحالف بتبادل السفارات مع الأمويين بالأندلس، فإن هارون الرشيد استطاع باستغلال سياسته الدينية والتقرب من شرلمان أن ينال من سمعة الدولة البيزنطية فى وقت ضعف فيه نفوذها كذلك فى غرب أوربا. ذلك أن تتويج شرلمان إمبراطوراً سنة ٨٠٠م وإحياءه الإمبراطورية الرومانية فى غرب أوربا جاء لطمة قاسية لسمعة الدولة البيزنطية التى اعتبر أباطرتها أنفسهم الممثلين الحقيقيين لتراث الدولة الرومانية الكبرى. ويعتبر هارون الرشيد كذلك أول خليفة عباسى أعاد استخدام الوسائل المجحفة بالمسيحيين. ففى سنة ٨٠٧/ أمر هارون الرشيد بهدم كل الكنائس على الحدود الإسلامية البيزنطية، وفرض على المسيحيين اتخاذ زى خاص بهم، أشبه بما اتبع فى عهد عمر بن عبدالعزيز. ولعل هذه

السياسة ولا سيما هدم الكنائس على الحدود تعزى إلى اشتداد العداوة بين هارون الرشيد والإمبراطور البيزنطى نقفور الأول، ورغبة الرشيد فى إكمال سياسته فى الحط من شأن الدولة البيزنطية.

على أن هذه السياسة لم تدم طويلا إزاء المسيحيين واستعادت الدولة البيزنطية مكانها باعتبارها حامية شئون المسيحيين فى الدولة الإسلامية، ذلك أن إمبراطورية شرلمان اضطربت بعد وفاته واضمحلت سطوتها وتركت الجو خالياً للدولة البيزنطية مرة أخرى. وينهض دليلا على رعاية الدولة البيزنطية الدينية للمسيحيين وما كان لجاليتها كذلك من تقدير فى الدولة الإسلامية أنه أطلق على حى المسيحيين فى بغداد اسم «دار الروم». على أن الاختلافات المذهبية بين المسيحيين من رعايا الدولة الإسلامية لعبت دورها أحياناً فى التقليل من هذا النفوذ البيزنطى. فاستأثر المسيحيون النساطرة بحق إقامة بطريقهم فى بغداد من دون اليعاقبة، وجهدوا أن يحولوا بين اكتساب هذا الامتياز. فلجأوا إلى الدس لهذه الطائفة، موهمين السلطات الإسلامية بأن اليعاقبة موالين للبيزنطيين، ومن ثم لا ينبغى إقامتهم فى بغداد. وتجلت قدرة النساطرة على ذلك فى سنة ٩١٢/٩١٣م حين نجح البطريق النسطورى فى منع الخليفة من السماح لبطريق اليعاقبة فى نقل مقره إلى بغداد، متهماً اليعاقبة بالتشيع للبيزنطيين. فظل مقر البطريق اليعقوبى فى أنطاكية. وإن لم يحل ذلك دون أن تتخذ هذه الطائفة ديراً خاصاً بها فى بغداد ومطرانية فى تكريت بالقرب منها. ويدل على إفتراء النساطرة فى حق إخوانهم من اليعاقبة أن بطريق أنطاكية لعب دوراً هاماً فى خدمة السياسة الإسلامية إزاء الدولة البيزنطية. فقد توج هذا البطريق فى عهد الخليفة المأمون الثائر البيزنطى «توماس» إمبراطوراً ليكسبه صفة شرعية فى ثورته ضد الإمبراطور ميخائيل الثانى.

وكانت سياسة الدولة البيزنطية الدينية إزاء المسلمين صدى لما أرادت تحقيقه من أهداف حربية أو سياسية. وتجلى ذلك إبان فترة توسعها الحربى

فى القرن العاشر الميلادى. فانتهزت فرصة انتصاراتها على مناطق الحدود بينها وبين الدولة الإسلامية وعملت على تحويل المسلمين إلى المسيحية إمعاناً فى التأثير فى روحهم المعنوية. ففى سنة ٩٣٤م/٣٢٢هـ عندما استولى الإمبراطور البيزنطى على ملطية ضرب خيمتين على إحداهما صليب وقال: من أراد النصرانية انحاز إلى خيمة الصليب ليرد عليه أهله وماله؛ ومن أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأخرى وله الأمان على نفسه. فانحاز أكثر المسلمين إلى الخيمة التى عليها الصليب طمعاً فى أهليهم وأموالهم. ومن ذلك أيضاً الكتب التى أرسلها الإمبراطور نقفور فوقاس إلى المسلمين بعد انتصاره فى إقليم الثغور، وفيها وعيد وسخرية وتعبير. لكن هذه السياسة الدينية لم تنل من نفوس المسلمين الذين لم تضعف روحهم المعنوية رغم هزائمهم، إذ تقبل المسلمون هذه الحالة بإيمان قوى وفسروا ما حل بهم بأنه دليل على صحة الدين وأنه جزاء لأهله الذين أهملوا أوامره.

وبظهور الدولة الفاطمية أقلع البيزنطيون عن سياسة الحط من شأن المسلمين على مناطق الحدود، واتخذت سياستهم الدينية مظهراً جديداً يدل دلالة واضحة على الأغراض الحقيقية الكامنة وراءها. فجعلت الدولة البيزنطية الدعاء فى جامع القسطنطينية للخليفة الفاطمى دون الخليفة العباسى الذى زالت هيبة سلطانه. فقد وفد على الخليفة العزيز سنة ٩٨٧م/٣٧٧هـ رسل الإمبراطور البيزنطى يطلبون عقد هدنة. وأجاب العزيز طلبهم بعد أن اشترط عليهم عدة شروط قبلوها، كان منها الدعاء للخليفة الفاطمى بجامع القسطنطينية فى خطبة الجمعة. هكذا يخطب البيزنطيون المسجد فى القسطنطينية لتنظيم علاقاتهم بالدولة الإسلامية، يخطبون فيه للعباسيين تارة وللفاطميين تارة أخرى. كما جعلوه فى أيديهم وسيلة يردون بها على سياسة المسلمين إزاء الكنائس التى فى بلادهم، يهدمونه تارة ويعيدون بناءه تارة أخرى حسب ما تقتضيه الظروف. فمن ذلك أن الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله هدم فى سنة ١٠٠٩م عدداً من الكنائس المسيحية ومن بينها كنيسة القيامة

ببيت المقدس وأكره المسيحيين على أن يلبسوا أردية سوداء، وأن يعلقوا صلباناً عند ذهابهم إلى الحمامات. ورغماً من ذلك لم يستطع الحاكم التمادى فى هذه السياسة، إذ خشى المسلمون أن يرد البيزنطيون على ذلك بتحطيم المساجد فى بلادهم. وفى الحقيقة هدم البيزنطيون مسجد القسطنطينية، واكتفوا بذلك بعد أن كف الحاكم يده عن متابعة سياسته الدينية.

وهكذا ظلت القسطنطينية توجه سياستها الدينية بما يكفل لها مكانة عالية عند المسيحيين من رعايا الدولة الإسلامية. كما ظلت تجذب أنظار أولئك المسيحيين إليها، فوفد على بلاد القسطنطينية كثير من مسيحى الدولة الإسلامية عندما واتتهم المناسبات. ففى سنة ١٠١٦م ذهب بطريق الإسكندرية ثيوفيلوس إلى القسطنطينية وقضى هناك بضعة أسابيع مع الإمبراطور باسل الثانى، وقام بدور الوساطة بينه وبين البطريق سرجيوس. كذلك سافر بطريق بيت المقدس بعد وفاة الخليفة الحاكم إلى القسطنطينية سنة ١٠٢٢م مبعوثاً من قبل السلطات الإسلامية ليعلن للمسيحيين هناك إعادة بناء ما تهدم من كنائس الشام، وأن المسيحيين يعيشون فى أمان فى ظل الخلافة.

وبعد ذلك بقليل تجددت الاتصالات السياسية بين الفاطميين والبيزنطيين لإعادة ما تهدم من البيوت الدينية من جراء سياسة الحاكم بأمر الله. فعندما تولى الخليفة الظاهر الفاطمى عقدت هدنة بينه وبين الإمبراطور قسطنطين الثامن سنة ١٠٢٧م/٤١٨هـ، نصت على إقامة الخطبة للخليفة الفاطمى فى مساجد الدولة البيزنطية وإعادة بناء جامع القسطنطينية مقابل إعادة تعمير كنيسة القيامة ببيت المقدس. وفى الأيام الأولى من خلافة المستنصر بالله الفاطمى تم الاتفاق مع الإمبراطور ميخائيل الرابع سنة ١٠٣٦م/٤٢٨هـ على أن يطلق البيزنطيون سراح خمسة آلاف أسير لتعمير كنيسة القيامة. على أن هذه الاتصالات الفاطمية البيزنطية بشأن تعمير بيوتها الدينية لم يكن معناها إغفال الأسس السياسية المستترة خلفها، إذ كشفت الدولة البيزنطية عن الأسس السياسية فى علاقاتها الدينية بالمسلمين مرة أخرى عندما

غدا السلاجقة أصحاب النفوذ والسلطان فى أرض الخلافة العباسية. فقد أدى تدهور أحوال الخلافة الفاطمية وعلو نجم الخلافة العباسية بفضل السلاجقة إلى إغفال الدعاء باسم الخليفة الفاطمى فى مسجد القسطنطينية، وذكر اسم الخليفة العباسى بدلا منه فى خطبة الجمعة.

ومهما يكن من أمر هذه السياسية الدينية التى استغلتها كل من الدولتين الإسلامية والبيزنطية لتحقيق بعض الأهداف وتمصالح السياسية، فإن الأمر الجدير بالملاحظة والاعجاب هو إبتعاد هذه السياسة عن روح التعصب المذهبى البحت، ومحاولة أنصار كل دعانة القضاء على اتبع الديانة الأخرى. وهذا أمر فريد فى تاريخ العصور الوسطى عامة، التى نعتها بعض المؤرخين بأنها عصور دين وعصور حرب. فتاريخ الدولتين الإسلامية والبيزنطية يبين أن العصور الوسطى الأولى عرفت أن حياة الإخاء بين بنى الانسان ضرورة واجبة رغم اختلافهم فى المشارب والنزعات. وتتجلى هذه النظرة السامية فى رسالة بطريق القسطنطينية تيقولا ميستيكوس التى بعثها حوالى منتصف القرن العاشر الميلادى إلى حاكم جزيرة كريت أثناء تبعيتها لسلطان المسلمين:

«إلى الأمجد الأشرف الأعز، أمير جزيرة كريت. إن أعظم قوتى العالم أجمع، قوة العرب وقوة الروم تعلوان وتتألقان كالشمس والقمر فى السماء، ولهذا وحده يجب أن نعيش إخوة، على الرغم من اختلافنا فى الطبائع والعادات والدين.

ملحق (١)
مقتبسات من كتب الجغرافيين المسلمين توضح معرفة المسلمين بعاصمة الروم والحياة الاجتماعية فيها

«ويجب أن نذكر أسباب القسطنطينية. لأن للمسلمين بها داراً يجتمعون فيها ويظهرون الإسلام بها، وكثر الاختلاف والكذب فيها، وأمر البلد ومساحة بنيانه، فرأيت أن أصور ذلك للعيون، وأوضحه للقلوب، واذكر الطرق إليها لحاجة المسلمين إلى ذلك، وقصدهم فى شراء الأسارى والرسالات والغزو والتجارات».

صفة قسطنطينية

«مدينة قسطنطينية، وهى مدينة عظيمة، إثنا عشر فرسخاً فى إثنى عشر فرسخاً، وفرسخهم على ما ذكر لى ميل ونصف. ويحيط البحر مما يلى المشرق منها، وغربيها صحراء يؤخذ منه إلى الرومية، وعليها حصن. والباب الذى يؤخذ منه إلى الرومية من ذهب، وإلى جانبه ناس من خدمة، ويسمى باب الذهب، وعلى الباب تماثيل خمسة على مثال الفيلة، وتمثال على صورة رجل قائم قد أخذ بزمام تلك الفيلة. ولها باب مما يلى الجزيرة يقال له باب بيغاس، موضع يتنزه الملك إليه، وهو باب من حديد».

«ولقسطنطينية قناة ماء يدخل إليها من بلد يقال بلغر، يجرى إليها هذا النهر من صيرة عشرين يوماً، فينقسم إذا دخل المدينة ثلاث أثلاث، فثلث يذهب إلى دار الملك وثلث إلى حبوس المسلمين والثلث الثالث يذهب إلى حمامات البطارقة، وسائر المدينة فإنهم يشربون الماء الذى بين العذب والمالح».

«وما وجدناه (أيضاً) من صفة مدينة الرومية الرابعة مما يلى البر والحربية، يعنى الشمال وطولها من الباب الغربى إلى الشرقى ثمانية وعشرون ميلا، ولها حائطان من حجارة وبينهما فضاء ستون ذراعاً. وعرض السور الخارج ثمان أذرع وسمكه اثنتان وأربعون ذراعاً، وفيما بين السورين يسمى فسطيطالس.. وفيما بين باب الذهب إلى باب الملك إثنا عشر ميلا، وسوق ممتدة من الشرق إلى الغرب مثلثه الاسطوانات .. (هناك) نقير من نحاس من

المغرب إلى الشرق يجرى فيه لسان من البحر، وتجرى السفن فى هذا النقير بحولتها، وتحته حوانيت التجار للشراء والبيع فتجىء السفن بما تحمله حتى تقف على حانوت الرجل الذى يبتاع منها. وفى المدينة كنائس، فجميع ما فيها أربعون وعشرون كنيسة وثلاثة وعشرون ألف دير عظيم. وحول سورها ألف ومائتان وعشرون عموداً فيها الرهبان من كل جنس يسهرون الليل كله. وفيها مجامع لمن يلتمس صنوف العلم والحكمة من الرجال مائة وعشرون مجمعاً».

وصف الملعب بالقسطنطينية

«بقرب الكنيسة فى وسط المدينة بلاط الملك وهو قصر، وإلى جانبه يقال له البذرون(١)، وهو يشبه الميدان يجتمع إليه فيه البطارقة، فيشرف عليهم الملك من قصره فى وسط المدينة، وقد صور فى القصر أصنام مفرغة من صفر على مثال الخليل والناس والوحوش والسباع وغير ذلك. وعلى غربى الميدان مما يلى باب الذهب بابان، يسوقون إلى هذين البابين ثمانية من الخيل، وهناك عجلتان من ذهب يشد كل عجلة على أربع من الخيل، ويركب فوق العجلة رجلان قد ألبسا ثياب متوجه بالذهب، ويتركها تجرى بما نيط إليها من العجل حتى تخرج من تلك الأبواب، فتدور على تلك الأصنام ثلاث دورات، فأيها سبق صاحبها، التى إليه من دار الملك طوق من ذهب ورطل ذهب، وكل من فى قسطنطينية يشهدون ذلك الميدان ويبصرون».

---

(١) هذه الكلمة هى اليونانية Hippodrom، أى الملعب
يعتبر الملعب بهجة الشعب فى القسطنطينية، وبدونه تصبح الحياة جافة لا غناء فيها. وفى الملعب كانت تقام مباريات فى سباق العربات. وكان اللاعبون ينقسمون إلى حزبين، حزب اللون الأزرق وحزب اللون الأخضر، وكثيرا ما وقفنا قبل المباريات يتقاذفون أقذع ألوان السباب والنقائض. ولم يفكر الأباطرة فى وضع حد لهذه الحالة، لأنهم اعتبروا ذلك صمام أمن تتسرب عنه ما تكبته النفس من عواطف شريرة. وفى الفترة التى تتخلل سباق العربات، كانت تعرض ألعاب يقوم بها المهرجون والبهلوانات. فمنهم من يمشى على الحبل، ومنهم من يضع عموداً على جبهته وبتساقة الأطفال. وكان هذا الملعب مورد رزق لعدد كبير من الناس، كما كان يؤمه الكثير من علية القوم لمشاهدة الألعاب. فكبار رجال الدولة يحضرون فى ملابسهم الموشاه حيث يجلسون فى شرفة خاصة بهم. أما مقاصير الإمبراطور والإمبراطورة فكانت ملتصقة بالقصر، منفصلة عن الملعب وتشرف عليه من أعلى، وعندما يدخل الإمبراطور مقصورته ويرفع غطاء رأسه ويرسم علامة الصليب تبدأ الموسيقى تعزف وكذلك اللعب.

خروج الملك إلى الكنيسة العظمى التى للعامة

«يأمر بأن يفرش له فى طريقة من باب القصر إلى الكنيسة التى للعامة فى وسط المدينة حصر، ويطرح فوقها رياحين وخضرة ويزين الحائط يمنه ويسره من ممرة بالديباج، ثم يخرج بين يديه عشرة آلاف شيخ عليهم ديباج أحمر... ثم يجىء خلفهم عشرة آلاف شاب عليهم ديباج أبيض.. ثم يجىء عشرة آلاف غلام عليهم ديباج أخضر... ثم يجىء مائة بطريق من الكبار عليهم ثياب الديباج الملون... ثم يجىء اثنا عشر بطريقاً من رؤساء البطارقة عليهم ثياب منسوجه بالذهب... ثم يجىء مائة غلام عليهم ثياب مشهرة مرصعة باللؤلؤ ويحملون تابوتاً من ذهب فيه كسوة الملك لصلاته.. ثم يجىء رجل شيخ وبيده طشت وإبريق من ذهب... ثم يقبل الملك..وخلفه الوزير وبيد الملك حق من ذهب فيه تراب، وهو راجل، كلما مشى خطوتين يقول الوزير بلسانه من رمونت... وتفسيره اذكروا الموت، فإذا قال له ذلك وقف الملك وفتح الحق ونظر إلى التراب وقبله وبكى، فيسير كذلك حتى ينتهى إلى باب الكنيسة فيقدم الرجل الطشت والإبريق، فيغسل الملك يده ويقول لوزيره إنى برىء من دماء الناس كلهم لأن الله لا يسألنى عن دمائهم وقد جعلتها فى رقبتك، ويخلع ثيابه التى عليه على وزيره ويأخذ دواة «بلاطس» وهى دواة الرجل الذى تبرأ من دم المسيح (عم)، ويجعلها فى رقبة الوزير، ويقول له دن كما دان بلاطس بالحق، ويدور به على أسواق قسطنطينية فينادون به دن بالحق كما قلدك الملك أمور الناس...

وفى غربى الكنيسة على عشرة خطى عمود يكون طوله مقدار مائة زراع... وعلى الباب الغربى من الكنيسة مجلس فيه أربع وعشرون باباً صغاراً كل باب شبر فى شبر، معمولة على ساعات الليل والنهار، فكلما انقضت ساعة انفتحت منها باب من ذات نفسها، وإذا انغلقت من ذات نفسها.

ملحق (٢)
وصف الصوائف والشواتى على أرض الروم
وجدول يمثل انتظام تلك الحملات
زمن الخليفة هارون الرشيد
أوقات الإغارات الإسلامية

«... ثم نتبع ذلك بوصف أحد الغزوات ليكون علم ذلك محصلا محفوظاً فنقول... مما يعرفه أهل الخبرة من الثغريين(١) أن تقع الغزاة التى تسمى الربيعية لعشرة تخلو من أيار(٢)، بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوال حقولهم. فيقيمون ثلاثين يوماً وهى بقية أيار وعشرة من حزيران(٣)، فإنهم يجدون الكلأ فى بلد الروم ممكناً، وكأن، دوابهم ترتبع ربيعاً ثانياً، ثم يقفلون فيقيمون إلى خمسة وعشرين يوماً، وهى بقية حزيران وخمسة من تموز(٤) حتى يقوى ويسمن الظهر ويجتمع الناس لغزو الصائفة، ثم يغزون لعشر تخلو من تموز فيقيمون إلى وقت قفولهم ستين يوماً. فأما الشواتى فإنى رأيتهم جميعاً يقولون إن كان لابد منها فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل، وليكن مسيرة عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره، وأن يكون ذلك فى آخر شباط(٥) فيقيم الغزاة إلى أيام تمضى من أذار(٦) فإنهم يجدون العدو فى ذلك الوقت أضعف ما يكون نفساً ودواب، ويجدون مواشيهم كثيرة ثم يرجعون ويربعون دوابهم يتسابقون».

---

(١) الثغريون هم سكان إقليم الثغور، اى المناطق المواجهة لأرض العدو.

(٢) مايو

(٣) يونيو

(٤) يوليو

(٥) فبراير

(٦) مارس

نشاط المسلمين الحربى زمن هارون الرشيد
فى أرض دولة الروم

٧٨٦م/١٧٠هـ غزا الصائفة فى هذه السنة سليمان بن عبدالله البكانى. وفيها عمرت طرسوس على يدى أبى سليم فرج الخادم التركـى. وفيها عزل الرشيد الثغور كلها عن الجزيـرة وقنسريـن، وجعلها حيزاً واحداً وسميت بالعواصم.

٧٨٨م/١٧٢هـ غزا الصائفة فيها أسحق بن سليمان بن على.

٧٩٠م/١٧٤هـ غزا الصائفة عبدالملك بن صالح.

٧٩١م/١٧٥هـ غزاالصائفة عبدالرحمن بن عبدالملك بن صالح،فبلغ إقريطية. وأصابهم فى هذه الغزاة برد قطع أيديهم وارجلهم.

٧٩٢م/١٧٦هـ غزا الصائفة فيها عبدالرحمن بن عبدالملك، وفتح حصناً

٧٩٣م/١٧٧هـ فيها غزا الصائفة معاوية بن زفر بن عاصم، وغزا الشاتية فيها سليمان بن راشد.

٧٩٦م/١٨٠هـ غزا الصائفة فيها معاوية بن زفر بن عاصم.

٧٩٧م/١٨١هـ غزا الرشيد أرض الروم وافتتح فيها عنوة حصن الصفصاف

٧٩٨م/١٨٢هـ غزا فيها الصائفة عبدالرحمن بن مالك بن صالح، فبلغ إفيسوس، مدينة أصحاب الكهف.

٨٠٢م/١٨٧هـ وفيها أغزى الرشيد ابنه القاسم الصائفة، وولاه العواصم. ودخل القاسم بن الرشيد أرض الروم فى شعبان، يوليو فأناخ على قرة وحاصرها، ووجه العباس بن جعفر ابن محمد بن الأشعث فأناخ على حصن سنان. فبعث إليه الروم ثلثمائة وعشرين رجلا من أسارى المسلمين على أن يرحل عنهم. فأجابهم إلى ذلك ورحل عن قرة وحصن سنان. وفى هذه السنة كذلك نقض الإمبراطور نقفور اتفاقية ايرين مع الرشيد. فخرج الخليفة لقتاله. ويبدو أن هذه الغزوة كانت شاتية، لأن نقفور انتهز فصل الشتاء، وأقدم على تحدى الخلافة لصعوبة القيام بعمليات حربية جديدة فى هذا الفصل. على أن الرشيد لم يأبه بالبرودة وما تكلف

من مشاق ونفذ خطته الحربية التى خرب فيها مدينة هرقله.

٨٠٢م/١٨٨هـ فيها غزا إبراهيم بن جبريل الصائفة، ودخل أرض الروم من درب الصفصاف. وانهزم الروم وقتل منهم نحو أربعين ألفاً وسبعمائة، وأخذ منهم أربعة آلاف دابة.

٨٠٤م/١٨٩هـ فيها كان الفداء بين المسلمين والروم.

٨٠٦م/١٩٠هـ فيها غزا الرشيد بنفسه الصائفة، واتخذ قلنسوة مكتوباً عليها «غازحاج» وفيها فتح الرشيد هرقلة وبعث السرايا بأرض الروم. وكان فتح الرشيد هرقلة فى شوال/ أغسطس، وخربها وسبى أهلها بعد أن حاصرها ثلاثين يوماً وفيها خرجت الروم إلى عين زربة وأسرت كثيراً منها وفيها ولى الرشيد حميد بن معيوف سواحل بحر الشام إلى مصر. فأغار حميد على قبرص وأعمل الهدم والتحريق، وسبى من أهلها ستة عشر ألفاً.

٨٠٧م/١٩١هـ وفيها ولى الرشيد غزو الصائفة هرثمة بن أعين قبل أن يوليه على وفيها غزا يزيد بن مخلد الهبيرى أرض الروم فى عشرة آلاف فسدت عليه الروم المضيق وقتلوه ومن معه على بعد مرحلتين من طرسوس.

٨٠٨م/١٩٢هـ فيها كان الفداء بين المسلمين والروم

٨٠٩م/١٩٣هـ فيها مات الرشيد.

ملحق (٣)

مراسلات الإمبراطور نقفور فوقاس (٩٦٣-٩٦٩م) إلى المسلمين بعد انتصاراته فى إقليم الثغور ورد المسلمين عليه بما يسفه آراءه.

«وردت من نقفور عظيم الروم على المسلمين قصيدة ساءتهم وشقت عليهم لما كان اللعين أجرى إليهم فيها من التثريب والتعيير وضروب الوعيد والتهديد. وكانت (القصيدة) باسم الفضل الإمام المطيع لله أمير المؤمنين...».

أما سمعت أذناك ما أنا صانع ... بلى فعداك العجز عن فعل حازم
ثغوركم لم يبق فيها لوهنكم ... وضعفكم إلا رسوم المعالم
فتحنا ثغور الأرمنية كلها ... بفتيان صدق كالليوث الضراغم
ونحن جلبنا الخيل تعلك لجمها ... ويلعب منها بعضها بالشكائم
إلى كل ثغر آهل ... إلى جند قنسرينكم والعواصم
ومرعش أذللنا أعزة أهلها ... فصارت لنا من بين عبد وخادم
وملنا على طرسوس ميلة غامر ... أذقناهم فيها بحز الحلاقم
وإقريطش مالت إليها مراكبى ... على ظهر بحر مزبد متلاطم
فحزناهم أسراً وسيقت نساؤهم ... ذوات الشعور المسبلات الفواحم
وأنطاك لم تبعد على وإننى ... سألحقها يوماً بنزوة حازم
ومصر سأفتحها بسيفى عنوة ... وأحرز أموالا بها فى غنائمى
وكافور أغزوه بما يستحقه ... بمشط ومقراض ومص المحاجم
ألا شمروا يا أهل بغداد ويلكم ... فملككم مستضعف غير دائم

من قصيدة أجاب بها المسلمون على تهديد نقفور. تولى نظمها الشيخ الإمام القفال الشاسى:

أتاتى مقال لامرىء غير عالم ... بطرق مجارى القول عند التخاصم
تثبت هداك الله إن كنت طالباً ... لحق فليس الخبط فعل المقاسم
ولا تتكبر بالذى أنت لم تنل ... كلابس ثوب الزور وسط المقادم

ترى نحن لم نوقع بكم وبلادكم وقائع يثنى ذكرها فى المواسم
أتذكر هذا أم فؤادك هائم فليس بناس كل ذا غير هائم
طردناكم قهراً إلى أرض رومكم فطرتم من الساحات طرد النعائم
ولولا وصايا للنبى محمد بكم لم تنالوا تلك المجاثم
وقلتم ملكناكم بجور قضاتكم وبيعهم أحكامهم بالدراهم
وفى ذاك إقرار بصحة ديننا وأنا ظلمنا فابتلينا بظالم
وعددت بلداناً تريد افتتاحها وتلك أمان ساقها حلم حالم
لئن كان بعض العرب طارت قلوبهم أو ارتد منهم حشود كالبهائم
لقد أسلمت بالشرق هند وسندها وصين وأتراك الرجال الأعاجم
ونرجو بفضل الله فتحاً عاجلا ننال بقسطنطين ذات المحارم
هناك يرى نقفور والله قادر ينادى عليه قائماً فى المقاسم
فيضحك منا سن جذلان باسم ويقرع منه سن خزيان نادم
وإن تسلموا فالسلم فيه سلامة وأهنأ عيش للفتى عيش سالم

ملحق (٤)
سفارة الخليفة الواثق بالله العباسى
إلى مدينة إفسيوس بآسيا الصغرى
لمشاهدة الكهوف المحفوظة فيها جثث الشبان السبعة
الذين استشهدوا زمن الإمبراطور دقلديانوس
(أهل الكهف والرقيم)

«وعمل ترقيسيس، وفيه من الحصون أفسيس.. وهى مدينة أصحاب الكهف.. وقد قرىء فى مسجدهم كتاب بالعربية بدخول مسلمة بلاد الروم... وكان الواثق بالله وجه محمد المنجم إلى بلاد الروم لينظر إلى أصحاب الرقيم، وكتب إلى عظيم الروم بتوجيه من يوقفه عليهم. فحدثنى محمد بن موسى أن عظيم الروم وجه معه من صار به إلى قرة، ثم صار أربع مراحل، وإذا حبيل، قطر أسفله أقل من ألف ذراع، وله سرب من وجه الأرض ينفذ إلى الموضع الذى فيه أصحاب الرقيم. قال، فبدأنا بصعود الجبل إلى ذروته، فإذا بئر محفورة لها سعة تبينا الماء فى قعرها، ثم نزلنا إلى باب السرب، فمشينا فيه مقدار ثلثمائة خطوة فصرنا إلى الموضع الذى أشرفنا عليه، فإذا رواق فى الجبل على أساطين منقورة، وفيه عدة أبيات، منها بيت مرتفع العتبة مقدار قامة، عليه باب حجر منقور فيه الموتى، ورجل موكل بحفظهم...، وإذا ذلك هو مجيد عن أن نراهم أو نفتشهم، ويزعم أنه لا يأمن أن يصيب من التمس ذلك آفة، يريد التمويه ليدوم كسبه بهم. فقلت له دعنى أنظر إليهم وأنت برىء. فصعدت بشمعة غليظة مع غلامى. فنظرت إليهم فى مسوح تتفرك فى اليد، وإذا أجسادهم مطلية بالصبر والمر والكافور ليحفظها. وإذا جلودهم لاصقة بعظامهم، غير أنى أمررت يدى على صدر أحدهم فوجدت خشونة شعره وقوة نباته».

ملحق (٥)
مقتبسات توضح حياة الأسرى المسلمين
فى دولة الروم
معسكرات الاعتقال ونظم الحياة بها

«إعلم أن مسلمة بن عبدالملك لما غزا بلد الروم ودخل هذا المصر شرط على كلب الروم بناء دار بإزاء قصره فى الميدان ينزلها الوجوه والأشراف إذا أسروا ليكونوا تحت كنفه وتعاهده. فأجابه إلى ذلك، وبنى دار البلاط، والبلاط خلف الميدان، يصنع به الديباج الملكى، ولا يسكن دار البلاط إلا وجيه فى إجراء وتعاهد وتنزه. وسائر الأسارى من عامة المسلمين يستبعدون، ويستعملون فى الصنائع. فالحازم الذى إذا سئل عن صنعته لم يقر بها؛ وربما اتجر الأسارى بينهم وانتفعوا. ولا يكرهون أحداً على أكل لحم الخنزير، ولا يثقبون أنفاً ولا يشقون لساناً. ومن دار الكلب إلى دار البلاد حبل ممدود، فيه صورة فرس من نحاس؛ ولهم أوقات يجتمعون فيها للعب، واسم الملك وينطوا واسم الوزير براسيانا. فإذا أرادوا أن يتفاءلوا فى لعبهم ساروا حزبين، وأرسلوا الخيل حول الدكة، فإن سبقت خيل حزب الكاب قالوا ستكون الغلبة للروم، فصاحوا وينطوا وإن غلبت خيل حزب الوزير قالوا ستكون الغلبة للمسلمين. فصاحوا براسيانا، وذهبوا إلى المسلمين، فيخلعون عليهم ويصلونهم لكون الغلبة لهم.

الترفيه عن الأسرى في عيد الميلاد

«وفى يوم الميلاد يؤمر.. فيؤتى بأسارى المسلمين فاقعدوا على تلك الموائد فى القصر وحمل إليه (إلى الملك) عند قعوده فى الصدر موائد من ذهب... فتوضع بين يديه ولا يؤكل عليها، وإنما تترك ما دام الملك على مائدته. فإذا قام دفعت ثم يؤتى بالمسلمين وعلى تلك الموائد من الحار والبارد أمر عظيم، ثم ينادى منادى الملك فيقول: وحياة رأس الملك ما فى هذه الأطعمة شىء من لحم الخنزير. وينقل إليهم تلك الأطعمة فى صحاف من الذهب والفضة... والقوم كلهم جلوس على الموائد، ويدخل عليه عشرون رجلا بأيديهم الحلباقات والحلباق الصنج يضربون فيها ما داموا يأكلون، ويطعمون على هذه الصفة اثنى عشر يوماً، فإذا كان آخر هذه الأيام يعطى كل أسير من المسلمين دينارين وثلاثة دراهم... ثم يقوم الملك ويخرج من باب البيدرون».

حضور الأسرى حفل تقليد الملك مهام دولته لوزيره فى الكنيسة

«ثم يأمر الملك بإدخال أسارى المسلمين، فينظرون إلى تلك الزينة والملك، فيصيحون أطال الله بقاء الملك سنين كثيرة «ثلاث مرات» ثم يؤمر فيخلع عليهم».

انتظار الأسرى تقرير مصيرهم

«ومما يلي باب الذهب من المدينة قبة قنطرة معقودة في وسط المدينة فيها، صنمان واحد يشير كأنه يقول بيده هاته، والآخر يشير بيده كأنه اصبر ساعة، وهما طلسمان، فيؤتى بالأسارى فيوقفون بين هذين الصنمين ينتظر بهم الفرج، ويذهب رسول الملك ذلك، فإن رجع الرسول وهم وقوف ذهب بهم إلى البس، وإن وافاهم الرسول وقد جوز بهم الصنمين قتلوا ولم يبق منهم على أحد».

صور من تبادل الأسرى (الفداء)

«وكفر سلام من قرى قيسارية... ولهذه القصبة رباطات على البحر، يقع بها النفير، وتقلع إليها شلنديات الروم وشوانيهم، ومعهم أسارى المسلمين للبيع كل ثلاثة بمائة دينار. وفي كل رباط قوم يعرفون لسانهم ويذهبون إليهم في الرسالات، ويحمل إليهم اصناف الأطعمة، وقد ضج بالنفير لما ترايت مراكبهم، فإن كان ليل أوقدت منارة ذلك الرباط، وإن كان نهاراً دخنوا. ومن كل رباط إلى القصبة عدة منابر شاهقة، قد رتب فيها أقوام، فتوقد المنارة التي للرباط ثم التي تليها ثم الأخرى، فلا يكون ساعة إلا وقد أنفر بالقصبة، وضرب الطبل على المنارة، ويؤدي ذلك إلى الرباط، وخرج الناس بالسلاح والقوة واجتمع أحداث الرساتيق. ثم يكون الفداء فرجل يشتري رجلاً، وآخر يطرح درهماً أو خاتماً حتى يشتري ما معهم.»

المراجع

ابن الأثير :

الكامل فى التاريخ (بولاق)

الإصطخرى :

مسالك الممالك (ليدن ١٩١٧)

ابن أبى أصبيعة :

عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج١ (١٧٨٢م)

البلاذرى :

فتوح البلدان (القاهرة ــ ١٩٠٠م)

دى بور :

De Boer

تاريخ الفلسفة فى الإسلام

(ترجمة محمد عبدالهادى أبو ريده - ١٩٣٨م)

جميل نخله المدور :

حضارة الإسلام فى دار السلام (١٩٣٢م)

حسن إبراهيم حسن :

تاريخ الإسلام السياسى (١٩٤٨م)

حسين مؤنس :

الشرق الإسلامى فى العصر الحديث (١٩٣٨)

ابن حوقل :

كتاب المسالك (ليدن ١٨٣٢م)

ابن خرداذبه :

كتاب المسالك والممالك (ليدن ١٨٨٩)

الخطيب البغدادى :

تاريخ بغداد (القاهرة - ١٩٣١م).

ابن خلدون :

مقدمة ابن خلدون (مصر)

ابن رستة :

كتاب الأعلاق النفسية (ليدن ١٨٩١)

زكى محمد حسن :

فنون الإسلام (١٩٤٨)

الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى

أبو زيد :

سلسلة التواريخ Ed, M, Reinaud باريس ١٨١١)

السبكى :

طبقات الشافعية (القاهرة)

سيده إسماعيل كاشف :

مصر فى فجر الإسلام (١٩٤٧)

السيوطى :

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (القاهرة)

الطبرى :

تاريخ الأمم والملوك (القاهرة - ١٣٢٦هـ)

ابن عبدالحكم :

فتوح مصر (ليدن ١٩٢٠)

عبدالرحمن بدوى :

التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية (١٩٤٠)

فشر :

تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (القسم الأول -
ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى)

ابن الفقيه :

قدامه بن جعفر :

نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابه (ليدن)

ابن القلانسي :

ذيل تاريخ دمشق (بيروت ١٩٠٨)

القلقشندي :

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا (القاهرة)

الكندي :

كتاب الولاة والقضاة (Ed, Rhavon Gaest)

متز : آدم :

Adam Metz

الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى

(ترجمة أبو ريده ١٩٤١)

محمد حسونة :

الجغرافيا التاريخية الإسلامية (١٩٥٠)

المسعودى :

مروج الذهب ومعادن الجوهر (القاهرة) اربع أجزاء

التنبيه والاشراف (مصر ١٩٢٨).

المقدسى :

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (ليدن)

المقريزى :

المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار (بولاق)

ابن هشام :

سيرة رسول الله (القاهرة)

كتاب التيجان فى ملوك حمير (حيدر أباد)

ابن النديم :

كتاب الفهرست (القاهرة)

نلدكه :

Noeldeke

أمراء غسان (ترجمة بندلى جوزى، وقسطنطين زريق - بيروت ١٩٣٣)

ياقوت :

معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٧م)

يحيى بن سعيد الأنطاكى :

صلة كتاب أوتيخا، الجزء ١٨ من مجموعة (Patrologla Orientalis)

Ameer Ali, Sayed,
A short History of the Saracens (London 1899)

Anderson, J. G. C.
The Road-System of Eastern Asia Minor (Journal of Hellenic studies, XVII—1897).

Arculf,
The pilgrimage of Arculf in the Holly Land (Trans. by Macpherson—London 1889)

Arnold, T. W.
The Preaching of Islam (London 1935)

Barraclough, G.
The Mediaeval Empire, Idea and Reality. (The Historical Association—General Series : G 17)

Baynes, N. H.
The Byzantine Empire (London 1925)

ترجم هذا الكتاب إلى العربية الدكتور حسين مؤنس ومحمود زايد :
ويعتبر نقل هذا الكتاب إلى العربية من أجل الخدمات لتوسيع المكتبة العربية في مادة التاريخ البيزنطي . وأشير على القارىء بالرجوع إلى هذه الترجمة فيما يرغب الاستزادة منه من نواحي المعلومات البيزنطية . والمترجم هنا أدى خدمة أخرى ، حيث أضاف ملاحق عبارة عن ترجمة لفصول أخرى من أهم الكتب التي تنير الطريق للقارىء .

Byzantium (Ed. Baynes and Moss-Oxford 1948).

Beazley, C. R.
The Dawn of Modern Geography (London 1897).

Bell, H. I.
The Aphrodito Papyri (Greek Papyri in The British Museum, IV.)

Bernard the wise,
The Itinerary of Bernard the wise (Trans. by H. Bernard, London 1893)

Bréhier , L . ,
Vie et Mort de Byzance (Paris 1949)

Brooks, E. W,

The relation between the Empire and Egypt (Byzantinische Zeitschrift XXII.)

Bury, J. B.,

A History of the later Roman Empire (London 1889).

History of the Eastern Empire (London 1912).

The Mutasim's March Through Cappadocia, (Journal of Hellenic Studies XXIX).

Butler, A.

The Arab Conquest of Egypt (Oxford 1902)

Charlesworth, M. P.

Trade Routes and Commerce of the Roman Empire (Cambridge 1926).

Cedrenus, G.,

Annales (Per I Oporinum et Episcopios Fratres Basileae—1566).

Cosmas,

The Christian Topography or Cosmas (Trans. by J. W. Mc. Crindle London, 1897).

Ferrand, G.,

Relation De Voyage et Textes Geographiques Arabes, (Paris1914)

Fisher, H. L.

A History of Europe (London 1935)

ترجم الدكتور زيادة القسم الخاص بالعصور الوسطى من هذا الكتاب . وهـذه الترجمة من الدرجة الأولى إن لم تكن نموذجاً عالياً يجب أن يحتذيه كل راغب فى خدمة المكتبة العربية وتيسير المعلومات لقرائها. فهذه الترجمة تمكن القارىء من الوقوف على مظاهر الحياة فى العصور الوسطى الأوربية بصورة لا يستطيع أن يضطلع بها غير الدكتور زيادة فى هذه الترجمة .

Galante, A.

Les Juifs de Constantinople sous Byzance (Istanboul 1940)

Ganshof, F. L.,

Notes sur Les Ports de Provence (Revue Historique Paris, 1933 — 183)

Gay, J.,

Note sur l'hellenisme sicilien (Byzantion I, 1924).

De Goeje, M.

Memoie sur la conquêt de la Syrie (Leide 1900).

Hadi Hassan,

A History of Parsian Navigation.

Hell, J.

Die Kultur der Araber (Liepzig 1919).

Heyd, W.

Histiore du commerce du Levant au Moyen-ages (Leipzig 1885)

Hirth, F.

The mystery Fu-lin (Journal of the American Oriental Society, 33,)

Hitti, P. K.

History of the Arabs (London 1949).

ترجم هذا الكتاب إلى العربية الأستاذ محمد مبروك نافع . وبذل المترجم جهدا مشكوراً في التعليق على هذا الكتاب .

De Lacy O'leary.

How Greek Science Passed to the Arabs (London)

Lammens., H.

Etude sur Le Rigne du Calife Omaiyade Mo'awia Ier, (Beyr-outh, 1906).

Laurent., J.

L'Armenie Entre Byzance et L'Islam (Paris 1919).

Lopez.,

Mohamed and Charlemagne (Speculum) XVIII, 1934.

Mann., J.

The Responsa of the Babylonian Geonim (Jewish Quarterly Review-new series IX.)

Maspero., J.

Organisation Militaire de L'Egypte Byzantine (Paris 1912).

Mommsen., T.

The Provinces of Roman Empire (London 1886).

Muir, Sir William,

The Caliphate, its Rise, Decline and Fall (1942).

Nabia Abbott,,

The Kurrah Papyri.

Nassiri Khusrau.,

Sefer Nameh (Trad. Par Carles Schefer- Paris, 1881).

De Perçeval., A. G.

Essai Sur L'Histoire Des Arabes (Paris, 1848).

Pirenne., H.

Mahomet et Charlemagne (Paris, 1973).

Procopius,

History of wars (Trans. by H. B. Dewing.).

Runciman., S.

Byzantine Civilisation (London 1933)

The Emperor Romanus Lecapenus (1929) .

The Byzantine Protectorate in the Holy Land in The Eleventh Century (Byzantion XVI.) .

The Widow Danelis (Reprint From Etudes dédieés à la Memoire d'Andre Andereádis) (Athens 1940) .

Starr., C. G.

The Roman Imperial Navy (New-York. 1941) .

Le Strange., G.

Palestine under the Moslems (1890) .

The Lands of The Eastern Caliphate (Cambridge 1930) .

Theophanes,

Cronographia (Parisiis) .

Vasiliev.,

Histoire de L'Empire Byzantin.

Byzance et Les Arabés (Bruxelles 1935) .

(١) ترجم هذا الكتاب إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة .